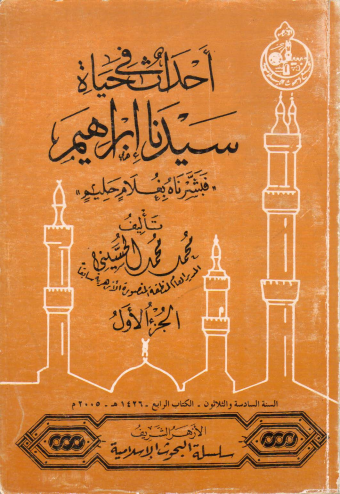
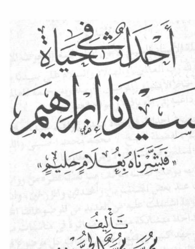

أحداث في حياة
سيدنا إبراهيم
«فبشرناه بغلام حليم»
تأليف
محمد محمد الحسيني
المدير العام لمنطقة المنصورة الأزهرية سابقاً
الجزء الأول
السنة السادسة والثلاثون - الكتاب الرابع - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
الأزهر الشريف
سلسلة البحوث الإسلامية



تأليف

محمد محمد الحسيني
المدير العام لمنطقة المنصورة الأزهرية سابقاً

الجزء الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة الأستاذ الشيخ الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمرسلين، أرسله ربه رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبعد.

فهذا كتاب « أحداث فى حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام فبشرناه بغلام حليم » لفضيلة الشيخ / محمد محمد الحسينى والذى نقدمه إلى عامة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

والكتاب يوضح فيه المؤلف ما لفت نظره من روايات هذه الأحداث عند بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين، وأن معظم الروايات وما اشتملت عليه من العديد من الموضوعات المختلفة قد جاءت متداخلة متشابكة متفرقة ومتناثرة فى مناسبات مختلفة، وتحتاج إلى جهد كبير فى تتبع وتجميع أحداث كل موضوع فيها على حدة وفى نظمها على نسق الترتيب التاريخى لكل منها.

والكتاب سهل فى عباراته، سلس فى أسلوبه، واضح فى معناه، جذاب لقرائه، ومجمع البحوث الإسلامية إذ يقدم هذا الكتاب العظيم للقراء يرجو من ورائه تحقيق النفع والخير لجميع المسلمين.

والله من وراء القصد فهو نعم المولى ونعم النصير.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

إبراهيم عطا الفيومى



مقدمة

قصة سيدنا إبراهيم الخليل مع أبيه وأمه، وولديه إسماعيل وإسحاق، وزوجتيه سارة وهاجر، وابن أخيه لوط.. حافلة بالكثير العجيب الغريب من الأحداث والمواقف التى اختلفت حولها آراء كثير من المفسرين والمحدثين والمؤرخين.. وقد لفت نظرى فى - حياة هذه الأسرة - ما رآه إبراهيم فى منامه من أن الله تعالى أمره أن يذبح ولده البكر الوحيد، الذى رزقه بعد حرمان طويل من الإنجاب وبعد أن دعا ربه: أن يهبه من الصالحين.. وحين استجاب الأب والإبن لمشيئة الله افتداه الله بذبح عظيم.

ولم أجد فى القرآن الكريم التصريح باسم هذا الابن الذبيح، وإنما إشارات وعلامات ودلالات، جهد المفسرون فى الاستدلال بها، على أن الذبيح هو إسماعيل مرة، أو إسحاق - على رأى البعض - مرة أخرى.. وذلك مع روايات لحديث نبوى شريف - لم يتصل سنده فى رأى بعض المفسرين - يصرح بأن الذبيح اسماعيل ومع الظاهر اللفظى فى سياق بعض الآيات الكريمة، استغله بعض أهل الكتاب من اليهود المتعصبين وحاكاهم بعض المفسرين - فى محاولة لا تثبت على يقين - لإثبات أن الذبيح إسحاق، بينما جاء السياق اللفظى لآيات كريمة أخرى يوضح أسبقية البشارة بإسماعيل كما سنوضحه فيما بعد...

ومع أن سياق الأحداث وترتيب الوقائع وتسلسلها التاريخى فى حياة إبراهيم - كما جاءت فى الآيات الكريمة - (من ٨٣ إلى ١١٢ من سورة الصافات) وفى غيرها من الآيات الكريمة فى سور

(البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والشعراء، والعنكبوت، والذاريات) - تقطع بأن الذبيح إسماعيل، فإن بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين أجاز - من غير يقين - احتمال أن يكون الذبيح إسحاق؛ معتمدين على مصادر يهودية إسرائيلية شأبها التزييف، وإهمال الحديث عن بعض الوقائع، وإغفال الترتيب التاريخي المعقول لكثير من الأحداث . . .

وقد لفت نظرى - فى روايات هذه الأحداث - عند بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين ما يلى :

١ - معظم روايات أحداث هذه القصة اشتملت على العديد من الموضوعات المختلفة، دون ترتيب، أو تنظيم، أو تنسيق، فجاءت هذه الموضوعات عند بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين متداخلة متشابكة، متفرقة متناثرة فى مناسبات مختلفة، تحتاج إلى جهد كبير فى تتبع وتجميع أحداث كل موضوع منها على حدة، وفى نظمها على نسق الترتيب التاريخى لكل منها . .

٢ - الالتباس بين سرد الأحداث وتكرارها - دون موالاة الترتيب الزمنى - وسردها بترتيب زمنى تتوالى فيه وتتحدد الأحداث، وترتب على هذا خطأ فى الحكم على سرد بعض الأحداث بأنها ذكرت فى القرآن الكريم مطابقة للترتيب التاريخى، مع أن هذه الأحداث ذكرت فى القرآن الكريم - والله أعلم - دون موالاة هذا الترتيب الزمنى، وإنما ذكرت لتعداد نعم الله والتذكير بها، ولمناسبات خاصة اقتضت كل حدث، ومع اختلافات دقيقة مميزة

لكل منها، ونتج عن هذا الخطأ أن يحكم البعض بأن إسحاق أسبق في الميلاد من إسماعيل، وبالتالي يكون هو الذبيح.. وليس هكذا تصدر الأحكام..

٣ ـ اختلاف الآراء في زمان ومكان زواج إبراهيم من سارة بعد أن آمنت به.. وهل كانت سارة ابنة أخيه؟ أو ابنة عمه؟ أم كانت ابنة ملك (حران) في الشام؟.. وهل تزوجها سيدنا إبراهيم في (بابل) جنوب العراق قبل أن يلقى في النار؟ أم بعد أن نجاه الله منها؟ أم تزوجها في (حران) التي هاجر إليها بعد نجاته من النار وبعد أن يئس من هداية قومه إلى عبادة الله.. وقد كشف هذا الخلاف عن محاولات بعض أهل الكتاب من اليهود تزييف الحقائق، وادعاء أن سارة هي التي بُشِّرَتْ بأول مولود لإبراهيم ـ وهو إسحاق ـ وأنها ولدته قبل أن تنجب هاجر إسماعيل ـ مع ما في هذا التزييف من مخالفة صريحة للواقع ـ وذلك بإقحام اسم إسحاق في روايات بعض المؤرخين لهذه الفترة، وفي سياق القصة في التوراة لإثبات أن الذبيح إسحاق...

٤ ـ اختلاف الآراء في تلك المناظرة التي ناظر بها إبراهيم أباه وقومه، وتلك المحاجة التي حاج بها إبراهيم ـ في ربه ـ ملك العراق. هل كانتا في زمن واحد؟ لجماعة واحدة؟ أم كانتا في زمنين مختلفين؟ لقومين مختلفين؟ وهل كانتا كلتاهما أم إحداهما قبل إلقاء سيدنا إبراهيم في النار؟ أم بعد نجاته منها؟ وهل كانتا كلتاهما أو إحداهما قبل هجرته من العراق إلى الشام أم بعدها؟ وأيهما كانت أسبق من الأخرى: المناظرة أم المحاجة؟ وأيهما كانت لأهل (بابل)؟ وأيهما كانت لأهل (حران)؟ وهل كان إلقاء

إبراهيم فى النار بسبب هزيمة الملك فى جداله مع سيدنا إبراهيم ؟ أم كان بسبب تحطيم إبراهيم للأصنام ؟ . .

٥ ـ الخلط بين الهجرة والاعتزال، وأى من الابنين ـ سيدنا إسماعيل ، وسيدنا إسحاق ـ بشر به إبراهيم بعد الهجرة، أو بعد الهجرة والاعتزال . . مع أن الاعتزال مرحلة تالية للهجرة . . واعتزال إبراهيم لأبيه وقومه فى مكان هجرته من بلاده إلى الشام كان فى نهاية المطاف، أى : بعد الهجرة بعدد من السنين والأحداث. ومع أن القرآن الكريم ذكر أن البشارة بإسحاق كانت بعد أن اعتزل إبراهيم أباه وقومه وما يعبدون، وبما أن الاعتزال كان بعد الهجرة فإن هبة الله إسحاق لإبراهيم وسارة والبشارة به تكون بعد الهجرة والاعتزال. . . مما يتعين معه أن تكون البشارة بإسماعيل بعد الهجرة أيضاً، ولكن قبل الاعتزال، ويكون ميلاد إسماعيل أسبق من البشارة ومن ميلاد إسحاق، ويلزم أن يكون إسماعيل هو الذبيح . . .

٦ ـ الخلط بين (الغلام الحليم) و (الغلام العليم) وفى الزمن الذى بشر الله به إبراهيم : مرة بالغلام الحليم، ثم بالغلام العليم، وترتب على هذا الخلاف فى البشارتين : أيهما كانت لإسماعيل ؟ وأيهما كانت لإسحاق؟ أم كانتا كلتاهما لإسحاق، ولا شىء لإسماعيل؟ وتبع ذلك تعدد الآراء فى أيهما أسبق فى الميلاد : إسماعيل أم إسحاق؟ مع أن القرآن الكريم ذكر كلا من الغلام الحليم والغلام العليم فى مناسبة خاصة به مما يؤكد أنهما ـ مع اختلاف الوصفين ـ غلامان وليسا غلاماً واحداً، كما قرر القرآن الكريم أن إسحاق هو الغلام العليم، وإذاً يكون إسماعيل هو الغلام الحليم، فلا يحتاج إلى

تنبيه .. وإذا كانت البشارة - عادة ودائماً - بأول الأبناء وكان إسماعيل أول أبناء إبراهيم، فإنه يتعين أن تكون البشارة بالغلام الحليم - إسماعيل - أسبق من البشارة بالغلام العليم - إسحاق - والغلام الحليم - بنص القرآن - هو الذبيح ..

٧ - فى سياق قصة ذهاب سيدنا إبراهيم إلى الملك لطلب الطعام - على عادة القوم آنذاك - ورفض الملك أن يميره أقحم لفظ (الصبيين) مع لفظ (امرأته) مرة، ولفظ (أهله) مرة أخرى، ولفظ (سارة) مرة ثالثة، مما أثار اللبس فى حقيقة هذين الصبيين.

ولم تذكر الرواية التى سيق فيها لفظ (الصبيين) أى شئ عنهما، مع أن إبراهيم لم يكن له أبناء فى هذا الوقت، بل لم يكن قد تزوج من سارة على الأرجح... وقد ورد فى هذه القصة أن إبراهيم احتال على أهله وعلى الصبيين (المقحمين) فى هذه الرواية بتصرف لا ينبغى أن ينسب إلى خليل الرحمن، وإن كانت الرواية أردفت ما يفسر هذا التصرف من سيدنا إبراهيم.

٨ - كذلك يلفت النظر هنا ما وقع لسارة زوجة سيدنا إبراهيم مع ملك مصر، فقد كانت كبيرة فى السن، ولكنها مع هذا كانت جميلة، فقرر ملك مصر أن ينال منها ويستولى عليها، مما اضطر سيدنا إبراهيم أن يقول للملك - حين استدعاءه وسأله عنها -: (إنها أختى) وطلب من سارة أن تقول ذلك أيضاً إذا سألها الملك عن صلتها بإبراهيم. فكانت هذه المقولة إحدى المخالفات الثلاث للواقع والتى جاءت فى الرواية عن رسول الله (ﷺ) ومع أن القصة بالصورة التى رويت بها لا تحمل أى دلالة على أن إبراهيم استغل

جمال زوجته سارة للتأثير على الملك، ويستحيل أن يهدف خليل الرحمن سيدنا إبراهيم إلى هذا .. فقد ادعى بهذا بعض من أعميت بصائرهم، وأظلمت قلوبهم وطمست أبصارهم.. وتمسك البعض بوصفها بأنها (كذبات) كما هو لفظ الرواية عن رسول الله (ﷺ) وأضاف البعض مخالفات أو كذبات أخرى، وبينما جاهد جميع المفسرين في تفسيرها بما ينفي عنها صفة الكذب المذموم أنكر البعض صدور هذا الوصف عن رسول الله (ﷺ) لما قاله سيدنا إبراهيم على الرغم من أنه من المسلم به أن رسول الله (ﷺ) لا يقصد عن يقين أن يسيئ إلى أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم...

٩ - وفي تقديرنا : أن أهم ما يلفت النظر في هذه القصة موقف والد سيدنا إبراهيم وأمه وهو يلقى في النار .. وموقفهما من دعوته إلى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام والكواكب، وانحيازهما إلى أعداء ابنهما إبراهيم، وبقاؤهما على عدم الإيمان به والاستجابة لدعوته إلى أن توفيا. بينما ظل إبراهيم بارًا بهما، عطوفًا عليهما، كثير الاستغفار لهما، ولم يتبرأ من أبيه إلا بعد أن تبين له أنه عدو لله

١٠ - وأخيرا : هذا الخلاف حول بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة كما أمر الله .. وهل كان ذلك حين وصل إبراهيم مع هاجر وابنهما إسماعيل من بيت المقدس إلى مكة؛ تلبية لرغبة سارة. ثم تركهما ولم يعد إليهما إلا بعد أن تزوج إسماعيل؟ وأصحاب هذا الرأى من أهل الكتاب اليهود، أرادوا أن يثبتوا به أن محاولة الذبح لم تكن بين إبراهيم وإسماعيل الذى لم يره أبوه إبراهيم، ولم يزره في هذه الفترة، وإنما كانت بين إبراهيم وإسحاق في بيت المقدس؟ أم كان بناء الكعبة بعد أن ترك إبراهيم هاجر وولدهما إسماعيل في

مكة، وكان يزورهما ويتردد عليهما مرات كثيرة، وفى إحدى هذه المرات كانت محاولة ذبح إسماعيل، ثم كان بناء الكعبة .. مع أن إسماعيل حين وصل مع أبيه إبراهيم وأمه هاجر إلى مكة كان رضيعاً يستحيل أن يساعد أباه على بناء الكعبة ؟ ثم هل كان بناء الكعبة قبل محاولة الذبح أم بعدها ؟ وذلك أن الروايات التى اعتمد عليها المؤرخون والمحدثون والمفسرون عن ابن عباس لقصة ذهاب هاجر وإسماعيل إلى مكة أغفلت موضوع محاولة الذبح، وتخطته - بعد زواج إسماعيل - إلى مشاركته لأبيه فى بناء الكعبة..

١١ - وفى محاولة عقيمة لإثبات أن الذبيح إسحاق المقيم فى بيت المقدس مع أمه سارة، تكلف هؤلاء اليهود الشطط والعنت بادعاء : أن محاولة الذبح وقعت لإسحاق فى بيت المقدس، وأن الكبش الذى فدى الله به الذبيح كان فى بيت المقدس، ونقل قرناه إلى مكة.. وبادعاء آخر : أن إبراهيم نقل إسحاق إلى مكة لذبحه فيها، ثم عاد به بعد أن افتداه الله إلى بيت المقدس... خيال جامح، وتكلف مرفوض !! إلى جانب ادعاء ثالث : بأن إسحاق هو ولد إبراهيم البكر. بينما كتابهم التوراة أثبت أن إسماعيل هو الابن البكر الوحيد قبل إسحاق، وهو الابن الوحيد البكر الموجود فى مكان الذبح فى مكة، كما ذكرت المصادر التاريخية أن الكبش كان فى الجنة وأنزله الله إلى ثبير بمكة....

١٢ - كل هذا يدل على التزييف الذى حدث فى هذه القصة فى محاولة يائسة لإثبات أن إسماعيل لم يكن الذبيح وإنما كان الذبيح إسحاق... ومن عجب - وبكل أسف - فإن كثيراً من الأخبار الإسرائيلية المزيفة فى هذه القصة اعتمد عليها بعض المؤرخين

والمحدثين والمفسرين، فوقعوا فى حمأة الغلط، وجانبوا الحق والإنصاف . . .

وإذا كان اجتهاد المفسرين والمحدثين والمؤرخين - فى مثل هذه الموضوعات - مطلوب ومرغوب ومقبول شريطة أن يلتزم الحياد، ويتحرى الحقيقة والإنصاف، إلا أننى لاحظت أن البعض من هؤلاء لم يرد على بعض الآراء والأقوال ببدهيات لا تحتاج إلى عمق البحث والتحليل . . .

كما لاحظت أن بعض المفسرين أصدر أحكاماً لا سند لها، وقبل أن يستوثق من سلامة أدلتها، وينساق خلف بعض الروايات التى تتناقض مع ما قرره من قبل . . فلا ندرى : إلى أى الاتجاهين يسير ؟

ودفعنى هذا إلى أن ألقى الضوء على هذه الخلافات . .

وأن أحاول ترتيب الأحداث فى قصة سيدنا إبراهيم، وأبيه، وأمه وزوجتيه : سارة وهاجر، وولديه : إسماعيل وإسحاق.

وأن أتناول بالتحليل ما يراه بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين من أدلة على أحكامهم.

وأن أحاول - أيضاً - الاقتراب من هذه الاتجاهات . . وأتناولها بالبحث والفحص ؛ أملاً فى أن أصل فيها إلى قبس يبدد هذه التجاوزات والتناقضات، ويهدى إلى رأى سديد، أقرب ما يكون إلى الصواب والمعقول، والإنصاف النزيه . . .

ولقد استعنت بما تيسر لى من مصادر فى كتب التفسير والحديث والتاريخ، وحاولت - فى بداية البحث - أن ألقى الضوء على ماجاء

فى هذه المصادر حول كل موضوع .. وأن ألخص ما جاء فيها فى رأى واحد إن كانت متفقة، أو فى آراء متعددة إن كانت مختلفة، مع ما فى هذه الطريقة من ضعف الإحكام والاستيعاب .. ولكنى اهتديت إلى أن أنقل نص ما جاء فى هذه المصادر ؛ ليكون كاملاً أمام القارئ، مع مناقشة ما أنقله، وتوضيح ما جاء فيه من عيب أو نقص فى بعض الأحيان وخاصة فى أهم موضوعات هذا البحث وهى :

١ - تحطيم إبراهيم للأصنام.
٢ - محاولة إحراق إبراهيم.
٣ - ما وقع لزوجته سارة مع ملك مصر.
٤ - الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟
٥ - بناء الكعبة.
٦ - كذبات لإبراهيم فى الظاهر.
٧ - محاجة إبراهيم للملك بابل، وموضوع (الميرة) الذى ترتب عليها.
٨ - إن إبراهيم كان أمة.
٩ - ابتلاءات إبراهيم.

وكتب التفسير التى اعتمدت عليها وأتيح لى أن أطلع عليها هى :

١ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبى.
٢ - جامع البيان للطبرى.

٣ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
٤ ـ الفتوحات الإلهية للعجيلى الشهير بالجمل.
٥ ـ (بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية).
٦ ـ مفاتح الغيب للرازى.
٧ ـ تفسير الشعراوى للشعراوى.
٨ ـ صفوة التفاسير : (مكتبة الغزالى ـ دمشق) الصابونى.

أما كتب الحديث (وقد عنيت بالمحدثين: شراح الأحاديث النبوية) فقد تيسر لى أن أطلع منها على ما يلى :

١ ـ كتاب : فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى.
٢ ـ كتاب: صحيح مسلم بشرح النووى للإمام النووى
٣ ـ كتاب : زاد المعاد لإبن القيم الجوزية.

كما تيسر لى أن أطلع على كتب التاريخ التالية :

١ ـ قصص الأنبياء لابن كثير.
٢ ـ قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار.
٣ ـ النبوة والأنبياء للصابونى.
٤ ـ تاريخ الأنبياء لمحمد الطيب النجار.
٥ ـ قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين.

كذلك فقد تيسر لى أن أطلع على كتاب :

١٧ ـ التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبى.

١٨ ـ التبصرة للإمام ابن الجوزى.

وهذه الكتب من المطبوعات الحديثة ـ عدا كتب قصص الأنبياء لابن كثير والتبصرة لابن الجوزى والتذكرة للقرطبى ، غير أنها ـ بكل تأكيد اعتمدت على كتب التاريخ القديمة ، فكانت ـ فى تقديرى ـ بديلاً عنها .. سهلاً .. مبسطاً لها .. والله المستعان .



وإذ قالَ إبرَاهيمُ لأبيه آزَرَ

يقول القرطبى فى تفسيره : (إبراهيم هذا . هو ابن « تارح بن ناخور » فى قول بعض المؤرخين) وفى التنزيل - فى سورة الأنعام - : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ وكذلك فى صحيح البخارى[1] .

والإشارة فى عبارة القرطبى (إبراهيم هذا) عن سيدنا إبراهيم لاتناسب مقام خليل الرحمن والمناسب أن يقول : سيدنا إبراهيم : هو ابن تارح أو يقول : إبراهيم هذا هو سيدنا إبراهيم بن تارح أو يستغنى عن هذه الإشارة فيقول : إبراهيم هو ابن تارح.

ويقول القرطبى : ويقول أبو بكر : محمد بن محمد بن الحسن الجوينى : (وليس بين الناس اختلاف فى أن اسم والد إبراهيم « تارح » والذى فى القرآن يدل على أن اسمه (آزر) ولا تناقض فى ذلك ؛ فقد قال الجوينى : وقيل آزر عندهم ذم فى لغتهم كأنه قال : وإذ قال لأبيه : يا مخطئ : أتتخذ أصناماً آلهة) وإذا كان كذلك فالاختيار : الرفع لآزر.

وقيل : آزر اسم صنم ، وإذا كان كذلك فموضعه نصب على إضمار الفعل ، كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه : أتتخذ آزر إلهاً ؟ أتتخذ أصناماً الهة ؟

وقال محمد بن إسحاق ، والكلبى ، والضحاك : « إن آزر أبو إبراهيم عليه السلام وهو (تارح) مثل (إسرائيل ويعقوب) فيكون له اسمان » .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن المجلد الأول ، الجزء الثانى ص ٩٦ .

وقال مقاتل : آزر لقب ، وتارح اسم .. وحكاه الثعلبى عن ابن إسحاق القشيرى ويجوز أن يكون على العكس.

وقال الحسن : كان اسم أبيه آزر.

وقال سليمان التَّيميُّ : هو سبٌ وعيبٌ ، ومعناه - فى كلامهم - (المعوج).

وروى المعتمد بن سليمان عن أبيه ، قال : بلغنى أنها (أعوج) وهى أشد كلمة قالها إبراهيم لأبيه.

وقال الضحاك : معنى آزر : الشيخ الهرم (أى الشيخ الفانى) بالفارسية.

وقال الفراء : هى صفة ذم - بلغتهم - كأنه قال : يامخطئ - فيمن رفعه - أو كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطئ - فيمن خفضه - ولا ينصرف لأنه على أفعل قاله النحاس.

وقال الجوهرى : آزر اسم أعجمى، وهو مشتق من آزر فلان فلانا : إذا عاونه ، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام.

وقيل : هو مشتق من القوى والأزر : القوة عن ابن عباس.

وقال مجاهد : (آزر اسم صنم ، وهو فى هذا التأويل فى موضع نصب ، التقدير : أتتخذ آزر إلهـا ؟ أتتخذ أصناماً ؟ .. وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير .. التقدير : أتتخذ آزر أصناماً) ؟ فعلى هذا يكون آزر اسم جنس ... والله أعلم [1].

وقال الثعلبى فى كتاب «العرائس» : اسم أبى إبراهيم الذى سماه

(١) الجامع لأحكام القرآن المجلد الرابع ، الجزء السابع ، ص ٢٢.

به أبوه (تارح) فلما صار مع النَّمرود قيِّماً على خزانة آلهته سمَّاه آزر.

وقال مجاهد ـ مرة أخرى ـ إن آزر ليس باسم أبيه، وإنما هو اسم صنم، وهو إبراهيم بن تارح بن ناخور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

يقول القرطبي : وآزر فيه قراءات :

(أإزراً) بهمزتين : الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة. عن ابن عباس.

(أأزراً) بهمزتين مفتوحتين، وقرأ بالرفع. عن ابن عباس.

وعلى القراءتين : تتخذ بغير همزة.

قال المهدوى : (أإزراً) فقيل : إنه اسم صنم، فهو منصوب على تقدير : أتتخذ إزرا، وكذلك أأزرا . .ويجوز أن يجعل (أإزراً) على أنه مشتق من الأزر وهو الظهر، فيكون مفعولاً من أجله، كأنه قال : أللقوة تتخذ أصناما ؟

ويجوز أن يكون (إزر) أى بمعنى (وزر) أبدلت الواو همزة.

وقرئ (آزرُ) أى : يا آزرُ، على النداء المفرد، وهى قراءة أُبَىّ ويعقوب وغيرهما، وهو يقوى قول من يقول : إن آزر اسم أب إبراهيم [1].

وابن كثير يقول فى تفسيره : قال الضحاك عن ابن عباس : إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنما كان اسمه (تارح).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن المجلد الرابع، الجزء السابع، ص ٢٢ ، ٢٣ .

وقال مجاهد والمهدى : آزر اسم صنم . قلت : كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم فالله أعلم.

وقال ابن جرير : والصواب أن اسم أبيه آزر ، وقد يكون له اسمان ، كما لكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقبا ، وهذا الذى قاله جيد قوى والله أعلم [1] .

ويقول فى «قصص الأنبياء» : ﴿ وإذ قَالَ إبرَاهيمُ لأبيهِ آزَرَ ﴾ هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم آزر.

وجمهور أهل النسب ـ منهم ابن عباس ـ على أن اسم أبيه (تارح) وأهل الكتاب يقولون (تارخ) بالخاء المعجمة فقيل : إنه لُقِّب بصنم كان يعبده اسمه آزر.

ويقول أيضاً : هو إبراهيم بن تارخ (عاش ٢٥٠ سنة) ابن ناحور (١٤٨ سنة) ابن ساروغ (٢٣٠) ابن راغو (٢٣٩) ابن فالغ (٤٣٩) ابن عابر (٤٦٤) ابن شالخ (٤٣٣) ابن أرفخشذ (٤٣٨) ابن سام (٦٠٠) ابن نوح (١٧٨٠ عاماً) .

وفي تفسير الجلالين (آزر هو لقبه واسمه تارح) [2] .

أما كتاب «قصص الأنبياء» للشيخ عبد الوهاب النجار فقد تعرض لهذا الخلاف فى اسم أبى إبراهيم ـ كما جاء فى التوراة وكما رأى المستشرقون ، وما سجله المؤرخون ، وما تناوله الباحثون ـ وجعل من هذا الخلاف قضية دينية ، رأى من الواجب عليه أن يشارك فيها ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، المجلد الثانى ، ص ١٤٢ .

(٢) تفسير الجلالين ص ١٠٢ طبعة الأزهر.

ويرد على كل ما يسيئ إلى العرب والمسلمين. وبعيداً عن هذا كله أنقل عنه ما يلي [1].

اختلف المفسرون في اسم أبي إبراهيم. فقال بعضهم: إن لفظ (آزر) في الآية بدل من لفظ (أب) في (أبيه) ويكون مقول القول: (أتتخذ أصناما الهة) ... الخ أي أن اسمه (آزر) ... وقال آخرون: اسمه (تارح). وأن لفظ (آزر) كلمة ذم - في لغته - ومعناها «أعرج» قاله السهيلي في التكملة.

وقال آخرون: إن معناه: الخاطئ والخرف.

وقيل في تاج العروس: معناه «ياشيخ»، أو هي كلمة زجر عن الباطل.

وقال آخرون: إن تارح اسم العلم، وإن آزر وصف له كما في البيضاوي.

وإذا صح أن والد إبراهيم كان له اسم علمي، واسم وصفي، يكون معناه: القوي أو الناصر أو المعين وهي - كذلك - في اللغات السامية التي منها لغة إبراهيم.

وينقل عن دائرة المعارف الإسلامية أن: آزر اسم أبي إبراهيم في القرآن - سورة الأنعام - وعلق الشيخ أمين الخولي على هذا بما يلي:

إطلاق القول بأن آزر اسم أبي إبراهيم - في هذه الآية - غير صحيح؛ لأن الآية قرئت قراءات مختلفة اختلفت بها معاني كلمة آزر باختلاف إعرابها، وفي بعض القراءات يتعين ألا تكون آزر

(١) قصص الأنبياء ص ٧٠ - ٧٢.

اسماً لإبراهيم وفي بعضها يحتمل ذلك.

فقد قرئت (أأزراً) بالنصب مع التنوين.

و(آزرَ) بالنصب بلا تنوين. و (آزرُ) بالضم.

ففي القراءة الأولى تفسير الكلمة على أنها عربية بمعنى : القوة، والهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري. والمعنى : الأجل القوة تتخذ أصناماً ؟

وعلى قراءة النصب بلا تنوين ؛ قد تعرب نعتاً، فلا تكون علما بل صفة... وقد تعرب بدلاً أو عطف بيان، فيحتمل أن تكون اسماً.

وعلى قراءة الضم للنداء تحتمل ـ كذلك ـ أنها اسمه.

فهذه أربع أوجه نقلت في تخريج قراءات الآيات يتعين في اثنتين منها : ألا تكون آزر اسم أبي إبراهيم. ويحتمل في اثنتين، فليس من الصنيع العلمي أن يطلق ناقل عن القرآن القول بأن آزر اسم أبي إبراهيم.

ويضيف النجار : ذهب فريق من المفسرين إلى أن آزر اسم صنم كان يعبده تارح والد إبراهيم، وكان سادناً له.

ويقول : قال السيد المرتضى في تاج العروس : وروى عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ﴾ قال : لم يكن بأبيه، ولكن آزر اسم صنم، فموضعه نصب على إضمار الفعل، كأنه قال : (وإذ قال إبراهيم أتتخذ آزر إلهاً ؟ أي أتتخذ أصناماً آلهة).

وهذا القول أولى الأقوال عندى بالقبول، وعلى ذلك يكون والد إبراهيم لم يذكر اسمه العلمى فى القرآن الكريم، ومما يستأنس له أن آزر اسم إله : أننا نجد فى الآلهة القديمة عند المصريين الإله (أوزوريس) ومعناه الإله القوى المعين .. وقد كانت الأمم السابقة يقلد بعضهم بعضاً فى أسماء الآلهة [1].

ومن تفسير الطبرى لقوله تعالى فى سورة الأنعام :

﴿ وإذ قال إبراهيمُ لأبيه آزرَ ﴾ نقل بتصرف ما يلى [2].

اختلف أهل العلم فى (المعنِىّ) بآزر ؟ وما هو ؟ اسم أم صفة ؟ وإذا كان اسماً فمن المسمى به ؟ ونقل عن (السُّدى) : أن آزر اسم أبيه... ومحمد بن إسحاق يقول : آزر اسم أبى إبراهيم، وكان فيما ذكر لنا - والله أعلم - رجلاً من أهل (كُوثى) من قرية بالسواد : سواد الكوفة... وسعيد بن عبد العزيز قال : هو آزر، وهو تارح، مثل إسرائيل ويعقوب.

وروى عن مجاهد قال : ليس آزر أبا إبراهيم وفى رواية أخرى عنه قال : آزر لم يكن بأبيه، إنما هو صنم ورواية ثانية عن السدى قال : آزر اسم أبيه، ويقال : لا، بل اسمه تارح، واسم الصنم آزر، يقول : أتتخذ آزر أصناماً آلهة وقال آخرون : هو سب وعيب بكلامهم، ومعناه (معوج) كأنه تأول أنه عابه بزيغه واعوجاجه عن الحق واختلف القراء فى قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الأمصار :

---

(١) قصص الأنبياء ص ٧٩ .

(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن، المجلد الخامس، الجزء السابع، ص ١٥٨ .

آزرَ - بفتح الراء - على اتباعه الأب فى الخفض؛ لأنه اسم أعجمى، وإن كان فى موضع خفض... وذكر عن أبى يزيد المدينى والحسن البصرى أنهما كانا يقرآن (آزرُ) بالرفع على النداء، بمعنى: يا آزر.

فأما الذى ذكر عن السدى من حكايته أن آزر اسم صنم فقد نصبه، بمعنى: أتتخذ ازر أصناماً آلهة.

يقول ابن جرير الطبرى: والصواب عندى قول من قال: هو اسم أبيه؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أبوه، وهو القول المحفوظ من قول أهل العلم فإن قال قائل: فإن أهل الأنساب إنما ينسبون إبراهيم إلى تارح. فكيف يكون آزر اسماً له، والمعروف به من الاسم تارح؟ قيل له: غير محال أن يكون له اسمان، كما لكثير من الناس فى دهرنا هذا، وكان ذلك فيما مضى لكثير منهم، وجائز أن يكون لقباً والله تعالى أعلم [1].

وجاء فى كتاب «النبوة والأنبياء» [2]: هو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ ينتهى نسبه إلى سام بن نوح وبينه وبين نوح عليه السلام مدة تزيد على ألف عام، وهذا النسب هو الذى ذكره المؤرخون نقلا عن التوراة، وأن اسم أبيه هو (تارح): وأما القرآن الكريم فقد ذكر أن اسم أبيه هو (آزر) وهذا هو الصحيح الذى يعول عليه.

وأما ما ذكره المؤرخون بناءً على ما فى التوراة فإن من المقطوع به

---

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن، المجلد الخامس، الجزء السابع، ص ١٥٩.

(٢) النبوة والأنبياء، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

عند المسلمين أن التوراة والإنجيل قد دخل إليهما تحريف كبير، فلم يعد مجال للوثوق بما فيهما من النصوص.

ومن العجب أن بعض المفسرين ساروا فى ركاب المؤرخين، فادعوا أن اسم أبى إبراهيم عليه السلام هو تارح. وزعموا أن آزر عمه، ولعل الذى دفعهم إلى هذا تنزيه ساحة إبراهيم عليه السلام أن يكون ـ وهو أبو الأنبياء ـ من والد مشرك.

واستعظموا الأمر، مع أن الأمر ليس فيه ما يخل بمقام إبراهيم، أو ينقص من قدره: فإن الهداية بيد الله، يضل من يشاء ويهدى من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين، فزوجة (فرعون) مؤمنة، وولد (نوح) كافر، ولم ينقص ذلك من قدر أحد من الأنبياء شيئاً وقد أخبرنا المعصوم ﷺ: أن والد إبراهيم هو (آزر) وذلك فى الحديث الذى رواه البخارى عن النبي ﷺ أنه قال: [يلقى إبراهيم أباه (آزر) يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترةٌ وغَبَرة (أى سواد وغبار) فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصنى؟ فيقول له أبوه: اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يارب إنك وعدتنى ألا تخزنى يوم يبعثون، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد؟! فيقول الله: إنى حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقول لإبراهيم: انظر ما تحت رجليك، فينظر، فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار] فهذا الحديث نص على أن اسمه ازر، وهو الحق الذى لا محيد عنه... قال (ابن كثير) رحمه الله (فى البداية والنهاية ١ / ١٤٢) ما نصه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ؟﴾ الآية: وهذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم (آزر) وجمهور أهل النسب ـ منهم ابن عباس على أن اسم أبيه (تارح)

وأهل الكتاب يقولون (تارخ) بالخاء المعجمة. فقيل : إنه لَقَبٌ بصنم كان يعبده اسمه آزر.. وقال (ابن جرير) : والصواب أن اسمه آزر - كما ذكر القرآن الكريم - ولعل له اسمين علمين، أو أحدهما لَقَبٌ، والآخر علم، وهذا الذى قاله محتمل والله أعلم.

ومن الفتوحات الإلهية ننقل ما يلي [1] : قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وإذ قال إبراهيمُ لأبيه آزر ﴾ هو لقبه، واسمه تارح . واختلف العلماء فى لفظة (آزر) فقال مجاهد : آزر اسم أبى إبراهيم، وهو تارح، ضبطه بعضهم بالحاء المهملة، وبعضهم بالخاء المعجمة.. وقال البخارى فى تاريخه الكبير : إبراهيم : ابن آزر، وهو فى التوراة : تارخ . فعلى هذا يكون لأبى إبراهيم اسمان : آزر، وتارخ - مثل يعقوب وإسرائيل اسمان لرجل واحد - فيحتمل أن يكون اسمه آزر ، وتارخ لقب له، وبالعكس، فالله سماه آزر، وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارخ، ليعرف بذلك. وكان آزر أبو إبراهيم من كوثى - وهي قرية من سواد الكوفة - وفي القاموس : قرية بالعراق.. وقال سعيد بن المسيب، ومجاهد : آزر اسم صنم كان والد إبراهيم يعبده، وإنما سماه الله بهذا الاسم لأن من عبد شيئاً أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسما له فهو كقوله تعالى : ﴿ يوم ندعو كلَّ أُناسٍ بإمامهمْ ﴾ وقيل : معناه : وإذ قال إبراهيم لأبيه عابد آزر، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والأول أصح لأن اسم آزر اسم أبى إبراهيم؛ لأن الله تعالى سماه به وقيل : هو صفة، بمعنى : المخطئ - كما قاله الزجاج - أو المعوج - كما قاله الفراء - أو الشيخ الهرم - كما قاله الضحاك - وقد

(1) الفتوحات الإلهية، المجلد الثاني، ص ٤٨، ٤٩ .

جرى المفسرون على أن آزر اسم أبيه، وهو مشكل بما تقرر في السير من أن جميع نسبه ﷺ مطهر من عبادة الأصنام.. ويجاب: بأن محل ذلك ما دام النور المحمدي في أصلابهم، أما بعد انتقاله منهم فتجوز عليهم عبادة الأصنام وغيرها).

ومن عجب أن يعتمد بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين على ماجاء في كتب الأنساب والسير من أن اسم أبي إبراهيم (تارح) مع وجود نص من القرآن الكريم، ومع حديث نبوي شريف يقرران أن اسمه آزر.

فمع النص القرآني وحديث رسول الله - ﷺ - وهو المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم - لا مجال للالتفات إلى - أو الاعتماد على - غيرها من النصوص.

وكان آزر - كما ذكر الطبري - رجلاً من أهل (كوثى) من قرية بسواد الكوفة وكان نجارا ينحت الأصنام ويبيعها لمن يعبدها [1].

وكان وقومه يعبدون الأصنام، فأنكر إبراهيم على أبيه أن يعبد غير الله، وحاول هدايته إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام، والقرآن الكريم يسجل الحوار الذي دار بين إبراهيم وأبيه وقومه في قوله تعالى من سورة الأنبياء (الآيات من ٥١ إلى ٥٦):

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذا قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السموات

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٧٩.

والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ .

وفى سورة الشعراء (الآيات من ٦٩ إلى ٨٢) :

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون* أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾

وكان إبراهيم عليه السلام - مع هذا - باراً بوالده ، يخشى عليه من أن يكون ولياً للشيطان ، وأن يمسه عذاب من الرحمن يقول تعالى فى سورة مريم (الآيات من ٤١ إلى ٤٥) :

﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا* إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا * يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾

ولكن أباه لم يستمع إليه ، ولم يقدر مشاعر الحزن والخوف عليه فى قلب ابنه إبراهيم ، بل هدده بأن يرجمه ويهجره ملياً إذا استمر على تحقير الأصنام وواصل دعوته وقومه إلى ترك عبادة الأصنام . . ذلك قوله تعالى عقب الآيات السابقة من سورة مريم :

﴿ قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك

واهجرنى مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ﴾.

ومع هذا فقد كان رد إبراهيم على تهديد أبيه أن تمنى له السلام، وطلب له المغفرة من الله، جاء ذلك عقب الآية السابقة:

﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾.

ولم يكن استغفار إبراهيم لأبيه إلا بعد أن وعده أبوه بأن يستجيب إلى دعوته، فلما نكص عن وعده، وتبين لإبراهيم أن أباه صار عدواً لله تبرأ منه ذلك قوله تعالى فى سورة التوبة (الآية ١١٤):

﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن ابراهيم لأواه حليم ﴾

ومع أن إبراهيم الخليل تبرأ من أبيه فإنه ظل باراً به، وسوف يطلب له - يوم القيامة - أن يصفح الله عنه، وألا يخزيه فيه، كما مر بنا فى حديث رسول الله ﷺ: [يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة .. الخ] رواه البخارى عن أبى هريرة عن النبى - صلوات الله وسلامه عليه - [1] ويقول ابن حجر العسقلانى - فى شرح هذا الحديث - (فإذا بذيخ ملتطخ) أى: ضبعا يتمرغ فى نتنه وفى رواية أيوب: (فيمسخ الله أباه ضبعا) وفى حديث أبى سعيد: (فيحول أباه فى صورة قبيحة، وريح نتنة فى صورة ضبعان)

(١) فتح البارى: شرح صحيح البخارى، المجلد الثامن، ص ٥٠٠.

والحكمة في مسخه : لتنفر نفس إبراهيم منه، ولئلا يلقى في النار على صورته ، فيكون فيه غضاضة على إبراهيم)[1].

أما أم سيدنا إبراهيم فقد قال ابن كثير ـ في قصص الأنبياء ـ[2]: (وحكى الحافظ ابن عساكر في تاريخه : أن اسم أم إبراهيم : (أميلة) وقال الكلبي : اسمها (بونا) بنت كربتا ابن كرثي ، من بني أرفخشد بن سام بن نوح . وقال في تفسيره ـ عن ابن عباس ـ : إن اسمها (شاني)[3].

ويلفت النظر في العلاقة الأسرية بين إبراهيم وأبيه وأمه موقفهما منه ـ وهو يلقى في النار ـ فقد ثبت أنهما كانا حاضرين مع كل الناس لمشاهدة محاولة إحراق ابنهما بالنار وإلقائه فيها .

وروي أبو هريرة أن والد إبراهيم قال حين رآه وسط النيران لم يصبه شئ : (نعم الرب ربك يا إبراهيم)[4].

ومع هذا فقد ظل والده على عبادة الأصنام إلى أن توفى بل هدد ابنه بأن يرجمه ويهجره ـ كما ذكرنا ـ أما أمه .. (فقد دخلت إليه وهو في النار ، ورأت ما فيه من كرم الله ونجاته له ، وقبلته واعتنقته) ومع هذا فحين طلب منها أن ترجع عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله لم تجب والتفتت جانبا ، وهمت بالانصراف ، وخرجت من النار ، وهي تقول : (إبراهيم ابني عليك السلام) .

---

(١) المصدر السابق . (٢) قصص الأنبياء ص ١١٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، المجلد الثاني الجزء السابع ص ١٤٣ .

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٢٦ .

ومع كل هذا ظلت على عبادة الأصنام إلى أن توفيت.

وروى ابن عساكر في تاريخه عن عكرمة، قال: (إنه لما ألقي - إبراهيم - في النار قالت أمه: لقد كان ابني يقول: إن له رباً يمنعه، وأراه يلقى في النار فما ينفعه..) [1].

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ص ١٢٦.



ميلاد سيدنا إبراهيم

يقول ابن كثير فى قصص الأنبياء :

(وروى الحافظ ابن عساكر عن عكرمة قال : ولما كان عمر (تارح) خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم - عليه السلام - وعندهم : أنه ولد فى أرض الكلدانيين - يعنون أرض بابل، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار - وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر - بعد ما روى عن طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس، قال : ولد إبراهيم بغوطة دمشق، فى قرية يقال لها (برزة) فى جبل يقال له (قاسيون) ثم قال : والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام (يعنى ولادته بغوطة دمشق) لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام) [(1)].

ثم يقول - بعد ذلك - فى موضع آخر : (... وكان مولده بـ (السوس) .. وقيل بـ (بابل) وقيل بـ (السواد من ناحية كوثى) وتقدم عن ابن عباس : أنه ولد بـ (برزة) شرقى دمشق) [(2)].

وجاء فى كتاب «النبوة والأنبياء» : (يذكر بعض المؤرخين أن إبراهيم عليه السلام ولد بـ (غوطة دمشق) فى قرية يقال لها (برزة) فى جبل يقال له (قاسيون) والصحيح المشهور - عند أهل السير والتواريخ - أنه ولد بـ (بابل) وهى أرض الكلدانيين فى العراق) [(3)].

---

(١) قصص الأنبياء، ص ١١٧، ١١٨. (٢) قصص الأنبياء، ص ١٦٦.

(٣) النبوة والأنبياء ص ٢٠٥.

ويقول القرطبي : (قال بعضهم : كان مولده بـ (حران) ولكن نقله أبوه إلى أرض بابل)[1] .

ويقول عبد الوهاب النجار : (.. إن إبراهيم كان فتى من أهل (فدان آرام) بالعراق)[2] .

وجاء في قصص القرآن : (.. وفي بلدة (فدام آرام) من مملكة بابل ولد إبراهيم لأبيه آزر)[3] .

والمعقول ـ بعد هذا كله ـ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولد في أرض الكلدانيين (ببابل) جنوب العراق ، حيث كانت مملكة الملك نمرود ، وفيها كانت محاولة إحراقه بإلقائه في النار بأمر نمرود ، والصفوة من قومه .. أما (حران) في الأرض المباركة : أرض الكنعانيين ـ في الشام ـ فقد هاجر إليها إبراهيم بعد نجاته من النار ، كما سيأتي ..

ثم يقول ابن كثير في قصص الأنبياء : (.. ذكر ابن جرير في تاريخه : أن مولد سيدنا إبراهيم كان في زمن (النمرود) بن كنعان ، وهو ـ فيما قيل ـ الضحاك ، الملك المشهور ، الذي يقال : إنه ملك ألف سنة ، وكان في غاية الغشم والظلم .. وذكر بعضهم : أنه من بني راسب ، الذين بعث إليهم نوح عليه السلام ، وأنه كان ـ إذ ذاك ـ ملك الدنيا .. وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الرابع ، الجزء السابع ، ص ٢٤ .

(٢) قصص الأنبياء ، ص ٧٩ .

(٣) قصص القرآن ، ص ٣٥ .

والقمر، فهال ذلك أهل ذلك الزمان، وفزع النمرود، فجمع الكهنة والمنجمين، وسألهم عن ذلك، فقالوا: يولد مولود في رعيتك يكون زوال ملكك على يديه، فأمر - عند ذلك - بمنع الرجال عن النساء، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين، فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين، فحماه الله - عز وجل - وصانه من كيد الفجار، وشب شباباً باهراً، وأنبته الله نباتاً حسناً)[1].

وجاء في تفسيره[2]: ولدته أمه - يعني إبراهيم - حين تخوفت عليه من نمروذ بن كنعان (في السَّرب) لما كان قد أُخبر (نمرود) بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه فأمر بقتل الغلمان عامئذ فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ذهبت إلى (سَرَب) ظاهر البلد، فولدت فيه إبراهيم، وتركته هناك) قال ذلك محمد بن إسحاق وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف).

أما القرطبي فيقول[3]: (وقال عامة السلف - من أهل العلم -: ولد إبراهيم في زمن النمرود بن كنعان بن سنجاديب بن كوش بن سام بن نوح وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم ألف ومائتا سنة وثلاث وستون (١٢٦٣) وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثين سنة (٣٣٣٠) وكان نمروذ اللعين رأى رؤيا،

---

(١) قصص الأنبياء ص ١٦٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثاني، الجزء السابع، ص ١٤٥ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن المجلد الرابع الجزء السابع ص ٢٣ ، ٢٤ .

فعبِّرت له : أنه يذهب ملكه على يدَى مولود يُولد ، فأمر بعزل الرجال عن النساء وقيل : أمر بقتل كل مولود ذكر وكان (آزر) من المقربين عند نمروذ، فأرسله يوماً فى بعض حوائجه، فواقع امرأته، فحملت إبراهيم وقيل : بل واقعها فى بيت الأصنام فحملت، وخرَّت الأصنام على وجوهها حينئذ، فحملها إلى بعض الشِّعاب حتى ولدت إبراهيم، وحفر لإبراهيم (سَرباً) فى الأرض، ووضع على بابه صخرة؛ لئلا تفترسه السباع وكانت أمه تختلف إليه فترضعه، وكانت تجده يمصُّ أصابعه، من إحداها عسل ومن الآخر ماء، ومن الآخر لبن.. وشبَّ، وكان على سنة : ابن ثلاث سنين فلما أخرجته من السَّرب توهمه الناس أنه وُلد منذ سنين فقال لأمه : من ربى؟ فقالت : أنا فقال : ومن ربُّك؟ قالت : أبوك قال : ومَنْ ربه؟ قالت : نمروذ قال : ومَنْ ربُّه؟ فلطمته، وعلمت أنه الذى يذهب مُلْكُهم على يديه) وروى عن محمد بن إسحاق أن إبراهيم لما خرج من السَّرب كان ابن خمس عشرة سنة وقيل : إنه ابن سبع سنين.

أما الطبرى فقد حدث عن محمد بن إسحاق [1] : (قال - فيما ذكر لنا - والله أعلم : إن (آزر) كان رجلاً من أهل (كوثى) من قرية بالسواد : سواد الكوفة، وكان - إذ ذاك - ملك المشرق النمرود بن كنعان، فلما أراد الله أن يبعث إبراهيم حجة على قومه، ورسولاً إلى عباده، ولم يكن بين نوح وإبراهيم نبىّ إلا هود وصالح، فلما

---

(١) جامع البيان، المجلد الخامس، الجزء السابع، ص ١٦٣ .

تقارب زمان إبراهيم الذى أراد الله ما أراد، أتى أصحاب النجوم نمرود فقالوا له : تعلم أنا نجد فى علمنا أن غلاماً يولد فى قريتك هذه، يقال له : إبراهيم، يفارق دينكم، ويكسر أوثانكم، فى شهر كذا وكذا، من سنة كذا وكذا فلما دخلت السنة التى وصف أصحاب النجوم لنمرود بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقريته، فحبسها عنده، إلا ما كان من أم إبراهيم - امرأة آزر - فإنه لم يعلم بحبلها، وذلك أنها كانت امرأة حدية - فيما يذكر - لم يعرف الحبل فى بطنها ولما أراد الله أن يبلغ بولدها أراد أن يقتل كل غلام ولد فى ذلك الشهر من تلك السنة؛ حذراً على ملكه، فجعل لا تلد امرأة غلاماً - فى ذلك الشهر من تلك السنة - إلا أمر به فذبح، فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها، فولدت فيها إبراهيم وأصلحت من شأنه، ما يصنع مع المولود، ثم سدَّت عليه المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه فى المغارة، فتنظر ما فعل، فتجده حيًّا، يمص إبهامه... يزعمون - والله أعلم - أن الله جعل رزق إبراهيم فيها، وما يجيئه من مصه وكان آزر - فيما يزعمون - سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل ؟ فقالت : ولدت غلاماً فمات، فصدقها وسكت عنها، وكان اليوم - فيما يذكرون - على إبراهيم فى الشباب كالشهر... والشهر كالسنة، فلم يلبث إبراهيم فى المغارة إلا خمسة عشر شهراً حتى قال لأمه : أخرجينى، فأخرجته عشاء ثم رجع إلى أبيه آزر، وأخبره أنه ابنه وأخبرته أم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت من شأنه ، فسر بذلك آزر وفرح فرحاً شديداً، وكان آزر يصنع أصنام قومه التى يعبدونها،

ثم يعطيها لإبراهيم يبيعها، فيذهب بها إبراهيم - فيما يذكرون - فيقول: من يشترى ما يضره ولا ينفعه ؟! فلا يشتريها منه أحد، وإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فضرب فيه رءوسها، وقال: اشربى - استهزاء بقومه وما هم عليه من الضلالة - حتى فشا عيبه إياها واستهزاؤه بها فى قومه وأهل قريته).

ونقل بتصرف من الفتوحات الإلهية ما يلى [١]:

(قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار والسير: « وُلد إبراهيم فى زمن النمرود بن كنعان، الملك، وكان نمرود أول من دعا الناس إلى عبادته، وكان له كهان ومنجمون، فقالوا له: إنه يولد فى بلدك - هذه السنة - غلام يغير دين أهل الأرض، ويكون هلاكك، وزوال ملكك على يديه ويقال: إنهم وجدوا ذلك فى كتب الأنبياء وقال السدى: (رأى نمرود فى منامه كأن كوكباً قد طلع، فذهب بضوء الشمس والقمر، ولم يبق لهما ضوء، ففزع من ذلك فزعاً شديداً، فدعا الكهان وسألهم عن ذلك، فقالوا: هو مولود يولد فى ناحيتك فى هذه السنة، يكون هلاكك وزوال ملكك وهلاك أهل دينك على يديه، فأمر بذبح كل غلام يولد فى تلك السنة فى ناحيته وأمر بعزل النساء عن الرجال، وجعل على كل عشرة رجال رجلاً يحفظهم، فإذا حاضت المرأة خلوا بينها وبين زوجها؛ لأنهم كانوا لا يجامعون فى الحيض، فإذا طهرت من الحيض حالوا بينهما... قالوا: فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض، فواقعها، فحملت بإبراهيم وقال محمد بن إسحاق: بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقريته

(١) الفتوحات الإلهية، المجلد الثانى، ص ٥١ - ٥٤.

فحبسها عنده، إلا ما كان من أم إبراهيم، فإنه لم يعلم بحبلها؛ لأنها كانت صغيرة، لم يعرف الحمل فى بطنها... وقال السدى : فخرج نمروذ بالرجال إلى المعسكر، وعزلهم عن النساء تخوفاً من ذلك المولود، فمكث بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة، فلم يؤمن عليها أحداً من قومه إلا آزر، فبعث إليه، وقال له : إنَّ لى إليك حاجة، أحب أن أوصيك بها، ولم أبعثك فيها إلا لثقتى بك، فأقسمت عليك أن لا تدنو من أهلك فقال آزر : أنا أشح على دينى من ذلك، فأوصاه بحاجته فدخل المدينة، وقضى حاجة الملك، ثم قال : لو دخلت على أهلى فنظرت إليهم ؟! فلما دخل على أم إبراهيم ونظر إليها فلم يتمالك حتى واقعها، فحملت من ساعتها بإبراهيم وقال ابن عباس : لما حملت أم إبراهيم قال الكهان لنمرود : إن الغلام الذى أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة، فأمر نمروذ بذبح الغلمان، فلما دنت ولادة أم إبراهيم، وأخذها الطلق، خرجت هاربة؛ مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها قالوا : فوضعت فى نهر يابس ثم لفته فى خرقة ووضعته فى حلفاء، ثم رجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت، وأن الولد فى موضع كذا، فانطلق إليه أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سرباً فى النهر، فواراه فيه، وسد بابه بصخرة مخافة السباع. وكانت أمه تختلف إليه فترضعه وقال محمد بن إسحاق : لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها، فوضعت فيها إبراهيم، وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود، ثم سدت عليه باب المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، وكانت تختلف إليه لتنظر ما فعل، فتجده حياً وهو يمص

إبهامه قال أبو روق : قالت أم إبراهيم : لأنظرن إلى أصابعه، فوجدته يمص من إصبع ماءً، ومن إصبع لبناً ومن إصبع سمناً، ومن إصبع عسلاً، ومن إصبع تمراً) .

وقال محمد بن إسحاق (فى رواية ثانية) : (كان آزر قد سأل إم إبراهيم عن حملها ما فعل ؟ فقالت : ولدت غلاماً فمات، فصدقها، وسكت عنها .. وكان إبراهيم يشب فى اليوم كالشهر، وفى الشهر كالسنة، فلم يمكث فى المغارة إلا خمسة عشر شهراً حتى قال لأمه : أخرجينى، فأخرجته عشاء، ثم رجع إلى أبيه) (فلما رجعت به أمه أخبرته أنه ابنه، وأخبرته بما صنعت به، فسر بذلك وفرح فرحاً شديداً .. وقيل إنه مكث فى السَّرب سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة. قالوا : فلما شب إبراهيم - وهو فى السرَب - قال لأمه : مَنْ ربى ؟ قالت : أنا : قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك قال : ومنْ ربُ أبى ؟ قالت : اسكت ثم رجعت إلى زوجها فقالت : أرأيت الغلام الذى كنا نُحدَّث أنه يُغَيرُ دين أهل الأرض ؟ ثم أخبرته بما قال، فأتاه، فقال له إبراهيم : يا أبتاه من ربي ؟ قال : أمك قال : فمن رب أمى ؟ قال : أنا قال : فمن ربك ؟ قال : نمرود قال : فمن رب نمرود ؟ فلطمه، وقال له : اسكت وروى : أنه لما شب إبراهيم وكبر جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها له ليبيعها، فيذهب بها، وينادى : منْ يشترى ما لا يضره ولا ينفعه ؟ فلا يشتريها أحد، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر وضرب فيه رءوسها وقال لها : اشربى - استهزاء بقومه - حتى فشا فيهم استهزاؤه جادلوه، فذلك قوله تعالى : ﴿ وحاجه قومه .... ﴾ (الآية ٨٠ من سورة الأنعام) .

هذا الحوار بين إبراهيم وأمه وأبيه يوضح أن الملك نمرود جعل من نفسه إلهاً، ودعا الناس إلى عبادته - بعد أن رأى ما عليه قومه من جهل وضلالة فى عبادة الأصنام - أما إبراهيم فقد آتاه الله الرشد منذ صغره، وبعثه رسولاً، واتخذه - فى كبره - خليلاً.

لهذا فقد اتجه إلى القضاء على عبادة الأصنام، ودعا الناس إلى عبادة الله وحده بالحجة والمنطق، والأدلة العقلية المقنعة وكان أول دعوته لأبيه، ثم لقومه، فلم يجد منهم إلا الإعراض والصد، والإصرار على غيهم وضلالهم، ولما يئس من استجابتهم إلى دعوته، وأمعنوا فى كفرهم وغيهم وإشراكهم، لم يجد أمامه من سبيل إلا أن يحطم هذه الأصنام.

ويذكر كتاب « النبوة والأنبياء »[1]: (... أن إبراهيم - عليه السلام - نشأ وسط بيئة فاسدة، يحكمها ملك طاغية مستبد برأيه، اسمه (النمروذ - بالذال - بن كنعان) قبض على زمام الملك فى (بابل) وكان أهلها ينعمون برغد العيش وظلال الأمن، غير أنهم كانوا يتخبطون فى ظلام دامس من الشرك والوثنية، ينحتون الأصنام بأيديهم، ثم يجعلونها أرباباً من دون الله... ولما رأى النمرود نفسه حاكماً تحيط به قوة الملك والسلطان، والقوم حوله يتخبطون فى الجهالات أقام من نفسه (إلهاً) ودعا الناس إلى عبادته؛ فهو أحق بالعبادة من هذه الأحجار التى عبدوها، واتخذوها آلهة من دون الله ونشأ إبراهيم عليه السلام فى هذا

---

(١) النبوة والأنبياء، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

المحيط، وآتاه الله الرشد، وهداه إلى الحق، فعرف بصائب رأيه، وثاقب فكره أن الله تعالى واحد أحد، لم يلد ولم يولد، وأنه المهيمن على الكون، مسيطر على العالم، وأدرك أن هذه الأصنام التى يعبدونها، والتماثيل التى ينحتونها لا تغنى عنهم من الله شيئاً لذلك عزم على تخليص قومه من هذا الشرك وإنقاذهم من تلك الجاهلية العمياء.

●●●

إبراهيم يحطم الأصنام

يذكر الشيخ عبد الوهاب النجار تعليلاً طريفًا لما كان سيدنا إبراهيم قد نواه - في نفسه - من الأذى لهذه الأصنام التي اتخذها أبوه وقومه آلهة من دون الله، فيقول [1] : (وهذه طريقة أراد بها - إبراهيم - أن يفهم القوم مركز آلهتهم ويقيم لهم الحجة عملاً على أنها لا يمكن أن تلحق بهم أذى إذا تركوا عبادتها، أو تكسبهم خيراً إذا عبدوها لأن البرهان العملي أوقع في النفس، وأرجى أن يحرز القبول) .

ومفهوم هذا التعليل نراه في السطور التالية من كتاب «النبوة والأنبياء» [2] : (لقد كان إبراهيم ذكياً، صائب الرأي وقد علم أن (الحجة) و (البرهان) اللفظين - وإن وضحا وضوح الصبح - لايثبتان حسنا في هذه الأرض الجُرز ما لم يقارنهما الحس والبصر لذلك فقد أراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم، وأن يقرن حواسهم مع أفئدتهم ؛ لعلهم يرجعون عن غيِّهم، ويدركون بأنفسهم تفاهة ما هم عليه من عبادة حجارة لا تنفع ولا تسمع، ولا تغني عن صاحبها شيئاً) .

لقد جهد إبراهيم في أن يوضح لأبيه وقومه أن هذه الأصنام لا تقدر على أن تدفع عن نفسها الضرر والأذى، كما أنها لا تملك الضرر أو النفع لمن يعبدونها ولكنه لم يجد منهم من يستمع إليه،

(١) قصص الأنبياء : ص ٧٩ . (٢) النبوة والأنبياء : ص ٢١٠ .

ولا من يفكر فيما يقوله لهم، أو يحاول التأكد من صحته أو خطئه فلم يجد إلا أن يقدم الدليل العملى على صحة دعواه فقام بتكسير هذه الأصنام وتحطيمها.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى قصة تكسير سيدنا إبراهيم وتحطيمه للأصنام فى قوله تعالى من سورة الأنبياء : (الآيتان ٥٨,٥٧) : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ وفى قوله تعالى من سورة الصافات : (الآيات ٨٨ إلى ٩٣) ﴿ فنظر نظرة فى النجوم * فقال إنى سقيم * فتولوا عنه مدبرين * فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾.

يقول القرطبى فى تفسيره لآيات الأنبياء [١] : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ أخبر أنه لم يكتف بالمحاجة باللسان، بل كسَّر أصنامهم فعْلَ واثق بالله تعالى موطِّنٍ نفسه على مقاساة المكروه فى الذَّبِّ عن الدين وقال ابن عباس : أى : وحرمة الله لأكيدن أصنامكم، أى : لأمكرن بها بعد أن تولوا مدبرين أى : منطلقين ذاهبين وكان لهم فى كل سنة عيد يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا - روى ذلك عن ابن مسعود - فقال إبراهيم - فى نفسه - : تالله لأكيدن أصنامكم، قال مجاهد وقتادة : إنما قال ذلك إبراهيم فى سرٍّ من قومه ولم يسمعه إلا رجل واحد، وهو الذى أفشاه عليه.. وقيل : إنما قاله بعد خروج القوم ولم يبق منهم

(١) الجامع لأحكام القرآن : المجلد السادس، الجزء الحادى عشر، ص ٢٩٧ - ٣٠٠.

إلا الضعفاء الذين سمعوه وكان إبراهيم احتال في التخلف عنهم بقوله : ﴿ إني سقيم ﴾ أي : ضعيف عن الحركة ﴿ فجعلهم جذاذا ﴾ أي : فتاتا مثل الحطام والرفات.. وهذا هو الكيد الذي أقسم به ليفعلنه بها ؛ لأن القوم اعتقدوا في أصنامهم الإلهية ﴿ إلا كبيرا لهم ﴾ أي : عظيم الآلهة في الخلق، فإنه لم يكسره وقال السدي ومجاهد : ترك الصنم الأكبر، وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ، ليحتج به عليهم ﴿ لعلهم إليه ﴾ أي : إلى إبراهيم ودينه ﴿ يرجعون ﴾ إذا قامت الحجة عليهم وقيل : ﴿ لعلهم إليه ﴾ أي : إلى الصنم الأكبر ﴿ يرجعون ﴾ في تكسيرها.

ويقول ابن كثير [1] : أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه : ليكيدن أصنامهم أي : ليحرضن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين، أي : إلى عيدهم وكان لهم عيد يخرجون إليه.. قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه - أي أبو إبراهيم - : يا بني، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه إلى الأرض، وقال: إني سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون : مه ؟ فيقول : إني سقيم فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ فسمعه أولئك.. وقال ابن إسحاق : عن عبد الله قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه، فقالوا : ياإبراهيم : ألا تخرج معنا ؟ قال: إني سقيم وقد كان بالأمس قال: ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ فسمعه أناس

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، ص ١٧٥

منهم ﴿ فجعلهم جذاذا ﴾ أى : حطاماً ، كسرها كلها ﴿ إلا كبيرا لهم ﴾ يعنى إلا الصنم الكبير عندهم ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ .

ذكروا أنه وضع القدوم فى يد كبيرهم ؛ لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غار لنفسه ، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها .

ويقول الطبرى [1] : ذكروا أن إبراهيم - صلوات الله عليه - حلف بهذه اليمين فى سر من قومه وخفاء ، وأنه لم يسمع ذلك منه إلا الذى أفشاه عليه ، حين قالوا : ﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ فقال : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم وحكى عن مجاهد قال : قول إبراهيم حين استبعه قومه إلى عيد لهم ، فأبى ، وقال : إنى سقيم ، فسمع منه وعيد أصنامهم رجل منهم استأخر ، وهو الذى يقول : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . . وروى عن قتادة قوله : فجعلهم جذاذا : أى قطعاً وروى عن السدى : أن إبراهيم قال له أبوه : يا إبراهيم إن لنا عيداً لو خرجت معنا إليه قد أعجبك ديننا .فلما كان يوم العيد فخرجوا إليه خرج معهم إبراهيم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : إنى سقيم يقول : أشتكى رجلى فتواطأوا رجليه وهو صريع ، فلما مضوا نادى فى آخرهم - وقد بقى ضَعْفَى الناس - : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ فسمعوها منه ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة فإذا هن فى بهو عظيم ، مستقبل باب البهو صنم عظيم ، إلى جنبه أصغر منه ، بعضها إلى بعض ، كل صنم يليه أصغر منه ، حتى بلغوا البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاماً ، فوضعوه بين أيدى الآلهة ، قالوا : إذا كان حين نرجع رجعنا وقد برَّكت الآلهة فى طعامنا فأكلنا

(1) جامع البيان ، المجلد التاسع ، ص ٢٨ - ٣٠ .

فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال : ألا تأكلون ؟ فلما لم تجبه قال : ما لكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضربا باليمين ، فأخذ فأس حديد ، فنقر كل صنم فى حافتيه ، ثم علق الفأس فى عنق الصنم الأكبر ثم خرج . . وقوله : ﴿ إلا كبيرا لهم ﴾ يقول : إلا عظيما للالهة ، فإن إبراهيم لم يكسره ، ولكنه - فيما ذكر - علق الفأس فى عنقه وروى عن ابن إسحاق قال : أقبل عليهن كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ضربا باليمين ﴾ ثم جعل يكسرهن بفأس فى يده ، حتى إذا بقى أعظم صنم منها ربط الفأس بيده ، ثم تركهن وقوله : ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ يقول : فعل ذلك إبراهيم بالهتهم ليعتبروا ، ويعلموا أنها إذا لم تدفع عن نفسها ما فعل بها إبراهيم فهى - من أن تدفع عن غيرها من أراده بسوء - أبعد ، فيرجعوا عما هم عليه مقيمون من عبادتها إلى ما هو عليه دينه ، وتوحيد الله والبراءة من الأوثان .

ويقول القرطبى - فى تفسيره لآيات الصافات - [1] : ﴿ فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم ﴾ قال ابن زيد عن إبيه : أرسل إليه (يعنى إلى إبراهيم) ملكهم : إن غدا عيدنا ، فاخرج معنا فنظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا يطلع مع سقمى . . وكان علم النجوم مستعملاً عندهم ، منظوراً فيه ، فأوهمهم هو من تلك الجهة ، وأراهم من معتقدهم عذراً لنفسه . . وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظرة فى النجوم . . وحكى جويبر عن الضحاك : كان علم النجوم باقياً إلى زمن عيسى - عليه السلام - حتى دخلوا عليه فى موضع لا يطلع عليه منه ، فقالت لهم مريم :

(١) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الثامن ، الجزء الخامس عشر ، ص ٩٢ إلى ٩٥ .

من أين علمتم بموضعه ؟ قالوا : من النجوم، فدعا ربه عند ذلك، فقال : اللهم لا تفهمهم في علمها فلا يعلم علم النجوم أحد فصار حكمها في الشرع محظورا، وعلمها في الناس مجهولا، قال الكلبي : وكانوا في قرية بين البصرة والكوفة يقال لها : (هرمز جرد) ذكر هذا الطبري في تاريخه وكانوا ينظرون في النجوم وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك : أشار - إبراهيم - لهم إلى مرض وسقم يعدي كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون، فلذلك ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ أي : فارين منه ؛ خوفا من العدوى وروى الترمذي الحكيم عن ابن مسعود، قال : قال أبو إبراهيم : إن لنا عيدا لو خرجت معنا لأعجبك ديننا فلما كان يوم العيد خرجوا إليها، وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه وقال : ﴿ إني سقيم ﴾ أشتكي رجلي، فوطئوا رجله وهو صريع ؛ فلما مضوا نادى في آخرهم : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ قال أبو عبدالله : وهذا ليس بمعارض لما قاله ابن عباس وابن جبير ؛ لأنه يحتمل أن يكون قد اجتمع له أمران) .

ويتابع القرطبي تفسيره فيقول : ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ قال السدي : ذهب إليهم وقال أبو مالك : جاء إليهم . . وقال قتادة : مال إليهم وقال الكلبي : أقبل عليهم . . وقيل : عدل . . والمعنى متقارب ﴿ فقال ألا تأكلون ﴾ فخاطبها كما يخاطب من يعقل ؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة، وكذا : ﴿ مالكم لا تنطقون ﴾ .

قيل : كان بين يدي الأصنام طعام تركوه ليأكلوا إذا رجعوا من العيد، وإنما تركوه لتصيبه بركة أصنامهم - بزعمهم - وقيل : تركوه للسدنة وقيل قرب هو إليهما طعاما على جهة الاستهزاء

﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ خص الضرب باليمين لأنها أقوى، والضرب بها أشدّ قاله الضحاك والربيع بن أنس وقيل: المراد باليمين اليمين التى حلفها حين قال: ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ وقال الفراء وثعلب: ضربا بالقوة واليمين: القوة وقيل: بالعدل واليمين هاهنا: العدل ومنه قوله تعالى: ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين ﴾ سورة الحاقة ٤٤، ٤٥ - أى: بالعدل الذى كان بايع الله عليه يوم الميثاق، ثم وفّى له هاهنا، فجعل تلك الأوثان جذاذا، أى: فتاتا كالجذيذة، وهى السويق، وليس من قبيل القوة قاله الترمذى الحكيم).

ويقول ابن كثير [1]: ﴿ فنظر نظرة فى النجوم فقال: إنى سقيم ﴾ إنما قال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لقومه ذلك ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيدهم، فأحب أن يختلى بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر، فهموا منه: أنه سقيم.. على مقتضى ما يعتقدون ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: ﴿ نظر فى النجوم ﴾ يعنى قتادة: أنه نظر فى السماء متفكرا فيما يلهيهم به. قال ابن المسيب: رأى نجما طالعا، فقال: ﴿ إنى سقيم ﴾ أى ضعيف وقال الحسن البصرى: خرج القوم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره، وقال: ﴿ إنى سقيم ﴾ وجعل ينظر فى السماء، فلما خرجوا أقبل على آلهتهم فكسّرها ولهذا قال تعالى: ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ أى: ذهب إليها - بعد ما خرجوا - فى

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الرابع، الجزء الثالث والعشرون، ص ١٣، ١٤.

سرعة واختفاء ﴿ فقال ألا تأكلون ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً - قرباناً - ليتبرك لهم فيه قال السدى : دخل إبراهيم - عليه السلام - إلى بيت الآلهة فإذا هو فى بهو عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً ووضعوه بين أيدى الإلهة، وقالوا : إذا كان حين نرجع - وقد بركت الآلهة طعامنا - أكلناه فلما نظر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلى ما بين أيديهم من الطعام قال : ﴿ ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون ﴾ ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ قال الفراء : معناه : مال عليهم ضربا باليمين وقال قتادة والجوهرى : فأقبل عليهم ضرباً باليمين، وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون .

ويقول الطبرى فى تفسيره [1] : ﴿ فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم ﴾ ذُكر أن قومه (إبراهيم) كانوا أهل تنجيم، فرأى نجماً قد طلع، فعصب رأسه وقال : إنى مطعون - وكان قومه يهربون من الطاعون - فأرادوا أن يتركوه فى بيت آلهتهم ويخرجوا عنه ؛ ليخالفهم إليها فيكسرها وروى عن أبى زيد قال : أرسل إليه ملكهم، فقال : إن غداً عيدنا، فاحضر معنا فنظر إلى نجم فقال : إن ذلك النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لى، فقال : إنى سقيم . . ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ يقول : فتولوا عن إبراهيم مدبرين عنه ؛ خوفاً من أن يعديهم السقم الذى ذكر أنه به ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ يقول تعالى ذكره : فمال إلى آلهتهم بعد ما خرجوا عنه وأدبروا . .

(1) جامع البيان، المجلد العاشر، الجزء الثالث والعشرون، ص ٤٥، ٤٦ .

﴿ فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون ﴾ هذا خبر من الله عن قول إبراهيم للآلهة ، وفي الكلام محذوف استغنى بدلالة الكلام عليه من ذكره ، وهو : فقرّب إليها الطعام فلم يرها تأكل ، فقال لها : ﴿ ألا تأكلون ﴾ فلما لم يرها تأكل قال لها : ما لكم لا تأكلون ؟ فلم يرها تنطق ، فقال لها : ﴿ مالكم لا تنطقون ﴾ مستهزئًا بها .. ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ فمال على آلهة قومه ضربا باليمين ، بفأس ، يكسرهن .. وكان أهل العربية يتأول ذلك بمعنى : فراغ عليهم ضربا بالقوة والقدرة ، ويقول : اليمين في هذا الموضع : القوة وبعضهم كان يتأول اليمين في هذا الموضع : الحلف ويقول : جعل يضربهن باليمين التي حلف بها بقوله : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) .

وفي الفتوحات الإلهية [1] : ﴿ ... فنظر نظرة في النجوم ﴾ أي : في علمها وفي كتبها ؛ ليتركوه ويعذروه في التخلف وفي الخازن : قال ابن عباس : كان قومه (إبراهيم) يتعاطون علم النجوم ، فعاملهم من حيث كانوا يتعاطون ويتعاملون به ؛ لئلا ينكروا عليه ذلك ، وأراد أن يباكتهم في عبادة الأصنام ، ويلزمهم الحجة على بطلانها) وفي القرطبي : فنظر - إبراهيم - إلى نجم طالع فقال : إن هذا يطلع مع إلى آخر ما ذكرنا من تفسير القرطبي .. وقال ابن عباس : (كان علم النجوم من النبوة ، فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك ، فكان نظر إبراهيم فيها علماً نبويًا وقال الحسن : المعنى أنهم لما كلفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل ، فالمعنى على هذا : أنه نظر فيما نجم له من الرأي ، أي : فيما طلع له

---

(١) الفتوحات الإلهية ، المجلد الثالث ، ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .

منه، فعلم أن كل حي سقيم. (فقال : إني سقيم) وقال الخليل والمبرد : يقال للرجل إذا فكر في نفسه : تدبر ونظر في النجوم وقيل : كانت الساعة التي دعوه فيها إلى الخروج معهم ساعة تعتاده فيها الحمى وقيل : المعنى : فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقاً ومدبراً، وأنه يتغير كتغيرها، فقال : إني سقيم وقال الضحاك : معنى سقيم : سأسقم سقم الموت ؛ لأن من كتب الله عليه الموت يسقم في الغالب، ثم يموت) (وسأسقم) جواب ما يقال : كيف جاز له - عليه السلام - أن يقول : إني سقيم، والحال أنه لم يكن سقيماً ؟ وإيضاحه أنه كقوله تعالى : «إنك ميت» أي ستموت أو سقيم القلب عليكم لعبادتكم الأصنام، وهي لا تضر ولا تنفع أو أن من يموت فهو سقيم) وفي أبي السعود : قال : إني سقيم - وكان صادقاً في ذلك - فجعله عذراً في تخلفه عن عيدهم وقيل : أراد إني سقيم القلب لكفرهم وقيل : في علمها، أو في كتبها، أو أحكامها، ولا مانع من ذلك ؛ حيث كان قصده - عليه السلام - إيهامهم، حين أرادوا أن يخرجوا به - عليه السلام - إلى معبدهم ليتركوه ؛ فإن القوم كانوا نجامين، فأوهمهم أنه قد استدل بأمارة في علم النجوم على أنه سقيم، أي : مشارف للسقم - وهو الطاعون - وكان الطاعون أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون منه العدوى، فتفرقوا عن إبراهيم خوفاً منها، فهربوا إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ - وكانت اثنين وسبعين صنماً - بعضها من حجر، وبعضها من خشب، وبعضها من ذهب، وبعضها من فضة، وبعضها من نحاس، وبعضها من حديد، وبعضها من رصاص.. وكان كبيرها من ذهب، مكللاً بالجواهر،

وكان في عينيه ياقوتتان تتقدان ناراً ؛ وكان عندها الطعام ، فقال استهزاء بها وقال بعضهم : بعابديها وعلى كل حال فهذا الاستهزاء غير ظاهر ؛ لأنه إذا كان عندها وحده ومنفرداً بها ، فلا يعقل استهزاؤه بها ولا بعابديها ولعل كان عنده من يسمع كلامه من سدنتها أو غيرهم ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ أي : مال في خفية ضارباً ، أو يضرب ضرباً ، واليمين يجوز أن يراد بها الحلف وفاء بقوله : ﴿ وتالله لأكيدن ﴾ وأن يراد بها إحدى اليدين ، وهو الظاهر وأن يراد بها القوة ، أي : ملتبساً بالقوة .

وفي صفوة التفاسير [1] : ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ﴾ لما وبخهم على عبادة غير الله أراد أن يريهم أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع ، وأراد أن يخلو بها حتى يكسرها ، فاحتال للبقاء وعدم الخروج معهم إلى العيد ، فنظر في السماء - على عادتهم ، حيث كانوا نجامين - وأوهمهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غداً ، فقال : إني سقيم ، أي : سأمرض إن خرجت معكم ، أو أراد أنه سقيم القلب من عبادتهم للأوثان ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ أي : فتركوه إعراضاً عنه ، وخرجوا إلى عيدهم ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ أي : فلما ذهبوا وتركوه توجه إلى الأصنام ، ومال إليها في خفية ﴿ فقال ألا تأكلون ﴾ ؟ أي : ألا تأكلون من هذا الطعام ؟ ﴿ مالكم لا تنطقون ﴾ أي : ما لكم لا تجيبوني على سؤالي ؟! قال أبو حيان : وعرض الأكل عليها واستفهامها عن النطق إنما هو على سبيل الهزء بها ، لأنها منحطة عن رتبة عابديها ، إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ أي : فأقبل على الأصنام

(١) صفوة التفاسير الجزء الثالث والعشرون ص ٣٨ ، ٣٩ .

مستخفياً، يحطمها بيمينه، بفأس كان معه قال البيضاوى : وتقيده باليمين للدلالة على قوته، وقوة الآلة تستدعى قوة الفعل).

وأرجو أن تلاحظ معى ـ أيها القارئ الكريم ـ أن المفسرين جميعاً أتوا بتفسير آيات الصافات :

﴿ فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم ... ﴾ إلى آخرها، عند تفسيرهم لآيات الأنبياء :

﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ... ﴾ إلى آخرها وفى تقديرنا : أن هذا التصرف نشأ من أن الآيات المذكورة فى سورة الأنبياء تكمل الآيات المذكورة فى سورة الصافات ؛ ولذا لزم التكرار.

ثم إن النمرود وقومه صعقوا مما حدث لآلهتهم من التكسير والتفتيت، وتساءلوا عمن فعل هذا بها، فحطَّمها وحقَّرها يقول الله ـ تعالى ـ فى سورة الأنبياء : (الآيات ٥٩ ـ ٦١) :

﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾.

يقول القرطبى [1] : لما رجعوا من عيدهم ورأوا ما أحدث إبراهيم بآلهتهم قالوا ـ على جهة البحث والإنكار ـ : ﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ ورد الضعفاء ـ الذين سمعوا إبراهيم، أو ردَّ الرجل الواحد الذى سمعه قائلاً ـ :

(١) الجامع لأحكام القرآن المجلد السادس الجزء الحادى عشر ص ٩٨، ٩٩.

﴿ سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ ولما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه كرهوا أن يأخذوا بغير بينة فقالوا : ائتوا به على أعين الناس أى : ائتوا به ظاهراً بمرأى من الناس حتى يروه ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ عليه بما قال : ليكون ذلك حجة عليه وقيل : لعلهم يشهدون عقاباً له، فلا يقدم أحد على فعل ما أقدم عليه أو لعل قوماً يشهدون بأنهم رأوه يكسر الأصنام أو لعلهم يشهدون طعنه على الهتهم؛ ليعلموا أنه يستحق العقاب .

وابن كثير يقول [1] : وحين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة، والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها : ﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ أى : فى صنعه . فقال من سمعه يحلف إنه ليكيدهم : ﴿ سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ أى : شاباً يذكرهم، يقال له : إبراهيم .

عن ابن عباس، قال : ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ أى: على رءوس الأشهاد، فى الملأ الأكبر، يحضره الناس كلهم وهذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم - عليه السلام - أن يبين - فى هذا المحفل العظيم - كثرة جهلهم، وقلة عقلهم، فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً ، فكيف يطلب منها شيئاً من ذلك) .

---

(1) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، ص ١٧٥ .

ويقول الطبرى [1] : يقول تعالى ذكره : قال قوم إبراهيم لما رأوا آلهتهم قد جذت إلا الذى ربط به الفأس إبراهيم : من فعل هذا بآلهتنا؟ إن الذى فعل هذا بآلهتنا لمن الظالمين أى : لمن الفاعلين بها ما لم يكن له فعله ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ يقول: قال الذين سمعوه يقول :

﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ : سمعنا فتى يذكرهم بعيب يقال له : إبراهيم. ويقول ابن إسحاق : سمعناه يسبها ويعيبها ويستهزئ بها لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره، وهو الذى نظن صنع هذا بها .

﴿ فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ يقول تعالى ذكره : قال قوم إبراهيم بعضهم لبعض : فأتوا بالذى فعل هذا بالهتنا الذى سمعتموه يذكرها بعيب ويسبها ويذمها ﴿ على أعين الناس ﴾ فقيل : معنى ذلك : على رءوس الناس وقال بعضهم : معناه : بأعين الناس، ومرأى منهم.

وقالوا : إنما أريد بذلك أظهروا الذى فعل ذلك للناس ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ .

واختلف أهل التأويل، فقال بعضهم : معناه: لعل الناس يشهدون عليه أنه الذى فعل ذلك، فتكون شهادتهم عليه حجة لنا عليه.

وقالوا : إنما فعلوا ذلك ؛ لأنهم كرهوا أن يأخذوه بغير بينة .

---

(٢) جامع البيان، المجلد التاسع، الجزء السابع عشر، ص ٢٦، ٣٠ .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : لعلهم يشهدون ما يعاقبونه به، فيعاينوه ويرونه.

قال ابن إسحاق : بلغ ما فعل إبراهيم - بآلهة قومه - نمرود، وأشراف قومه فقالوا : فأتوا به على أعين الناس؛ لعلهم يشهدون عقوبتنا إياه؛ لأنه لو أريد بذلك (ليشهدوا عليه بفعله) كان يقال : (انظروا من شهده يفعل ذلك) ولم يقل : (احضروه بجمع من الناس) .

وفي الفتوحات الإلهية [1] : ﴿ من فعل هذا ﴾ أي : التكسير وهذا الاستفهام إنكار وتوبيخ وتشنيع . . : ﴿ إنه ﴾ أي : من فعل ﴿ لمن الظالمين ﴾ في الفعل ﴿ قالوا ﴾ أي : بعضهم لبعض، وهم الضعفاء الذين سمعوا حلفه بقوله : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ وأخبروا أكابرهم : ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ ولعله الذي فعل بهم هذا الفعل ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ أي : قالوا ذلك فيما بينهم والقائل لذلك هو النمرود، أي : ائتوا به ظاهراً أو مكشوفاً للناس ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ عليه بفعله، وذلك بأن يكون أحد من الناس رآه يكسرها .

وفي صفوة التفاسير [2] : (فلما رجعوا من عيدهم، ونظروا إلى آلهتهم، ورأوا ما فُعل بها قالوا - على جهة البحث والإنكار والتشنيع والتوبيخ - : إن من حطم هذه الآلهة لشديد الظلم، عظيم الجرم؛

---

(١) الفتوحات الإلهية، المجلد الثالث، ص ١٣٣، ١٣٤ .

(٢) صفوة التفاسير، الجزء السابع عشر، ص ٢٦٧ .

لجرأته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ أى : قال من سمع إبراهيم : فلعله هو الذى حطم الآلهة ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ أى: قال نمرود وأشراف قومه: أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه والغرض أن تكون محاكمة على رءوس الأشهاد، بحضرة الناس كلهم؛ ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ أى: لعلهم يحضرون عقابه، ويرون ما يصنع به) .

وكانت محاكمة، ومحاورة.. وضح فيها انتصار الحق، وخذلان الباطل، وقوة حجة إبراهيم عليهم يقول الله تعالى - عقب الآيات السابقة - في سورة الأنبياء : الآيات من ٦٢ إلى ٦٧ :

﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ .

يقول القرطبي في تفسير هذه الآيات [(١)] : (لما لم يكن السماع عاماً، ولا ثبتت الشهادة استفهموه : هل فعل أم لا ؟ فقال لهم إبراهيم - على جهة الاحتجاج عليهم - : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ أي : أنه غار وغضب من أن يعبد هو ويعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ أي : إن كانوا ينطقون فاسألوهم فعلَّق فعلَ الكبير بنطق الآخرين؛ تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم، كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أي : رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته، المتيقن لصحة حجة خصمه ﴿ فقالوا إنكم أنتم

(١) الجامع لأحكام القرآن، المجلد السادس، الجزء الحادي عشر، ص ٢٩٩ .

الظالمون ﴾ بعبادة من لا ينطق بلفظة، ولا ملك لنفسه لحظة وكيف ينفع عابديه، ويدفع عنهم اليأس من لا يرد عن رأسه الفأس؟ ﴿ ثم نكسوا على رءوسهم ﴾ أى: رُدوا على ماكانوا عليه فى أول الأمر، وعادوا إلى جهلهم وعبادتهم، فقالوا: ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾.

فـ (قَالَ) قاطعاً لما به يهذون، ومفحماً لهم فيما يتقولون: ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أف لكم ﴾ أى: النتن لكم ﴿ ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ قال ابن عباس: أدركهم الشقاء، فعادوا إلى كفرهم.

وابن كثير يقول [1]: ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم* قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ يعنى الذي تركه ولم يكسره ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا: أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد.

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ بالملامة فى عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم ﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ فى ترككم لها مهملة لا حافظ عندها.

﴿ ثم نكسوا على رءوسهم ﴾ أطرقوا إلى الأرض قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، فقالوا: ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ وقال السدى: ﴿ ثم نكسوا على رءوسهم ﴾ فى الفتنة

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، ص ١٧٥، ١٧٦.

وقال ابن زيد : فى الرأى . . وقول قتادة : أظهر فى المعنى ؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزا، ولهذا قالوا له : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فكيف تقول لنا : سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق ؟! فعندها قال لهم إبراهيم - لما اعترفوا بذلك - : ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾ أى : إذا كانت لا تنطق، وهى لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله ؟!

﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر ؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ الآية، : وبقية الآية ﴿ نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ الأنعام ٨٣ .

ويقول الطبرى[1] : يقول تعالى ذكره ما معناه : (فأتوا بإبراهيم فلما أتوا به قالوا له : أأنت فعلت هذا بالهتنا من الكسر يا إبراهيم؟) .

فأجابهم إبراهيم : بل فعله كبيرهم هذا وعظيمهم، فاسألوا الآلهة : من فعل بها ذلك وكسرها إن كانت تنطق أو تعبر عن نفسها؟! وعن ابن إسحاق قال : لما أتى به واجتمع له قومه عند ملكهم نمرود قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا، فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؛ غضب من أن

(١) جامع البيان، المجلد التاسع، الجزء السابع عشر، ص ٣٠ - ٣٢.

يعبدوا معه هذه الصغار، وهو أكبرك منها، فكسرهن.

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ فذكروا في أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، ونظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنكم معشر القوم لظالمون هذا الرجل في مسألتكم إياه، وقولكم له: من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ وهذه آلهتكم التي فعل بها ما فعل حاضرتكم فاسألوها ﴿ ثم نكسوا على رءوسهم ﴾ ثم غلبوا في الحجة، فاحتجوا على إبراهيم بما هو حجة لإبراهيم عليهم، فقالوا: ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ حين ظهرت الحجة عليهم.. قال ابن إسحاق: عرفوا أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبطش ولا تتكلم فتخبرنا من صنع هذا بها، وما تبطش بالأيدي فنصدقك.

﴿ قال ﴾ إبراهيم لقومه: ﴿ أفتعبدون ﴾ أيها القوم ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم وأنتم علمتم أنها لم تمنع نفسها ممن أرادها بسوء، ولا هي تقدر أن تنطق إن سئلت عمن يأتيها بسوء، فتخبره، أفلا تستحيون من عبادة ما كان هكذا؟! ﴿ أف لكم ﴾ أي: قبحاً لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع، فتتركوا عبادته، وتعبدون الله الذي فطر السموات، والذي بيده النفع والضر؟!

وجاء في الفتوحات الإلهية [1]: (قالوا) له بعد إتيانه: ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ ﴿ قال ﴾ ساكتا عن فعله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ﴾ عن فاعله ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾.

---

(1) الفتوحات الإلهية، المجلد الثالث، ص ١٣٤، ١٣٥.

أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطق، وفيه تعريض لهم بأن الصنم المعلوم عجزه عن الفعل لا يكون إلهاً وإنما قال : ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ ولم يقل : يسمعون، أو يعقلون، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ؛ لما أن نتيجة السؤال الجواب، وأن عدم نطقهم أظهر في تبكيتهم.. قال الطيبي : والمعنى : بل فعله كبيرهم هذا ؛ إن كانوا ينطقون فاسألوهم إن أمكن هذا الفعل.

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ بالتفكير أي : راجعوا عقولهم، وتذكروا أن من لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه، ولا على الإضرار بمن كسره - بوجه من الوجوه - يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره، أو جلب منفعة له، فكيف يستحق أن يكون معبودا ؟ !

﴿ فقالوا ﴾ لأنفسهم : ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ بعبادتكم من لا ينطق ﴿ ثم نكسوا ﴾ من الله ﴿ على رءوسهم ﴾ أي : ردوا إلى كفرهم، واستمروا فيه أو انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، وقالوا : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟ ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ﴾ أي بدله ﴿ ما لا ينفعكم شيئا ﴾ من رزق وغيره ﴿ ولا يضركم ﴾ شيئاً إذا لم تعبدوه ﴿ أف ﴾ أي : نتناً وقبحاً ﴿ لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ أي غيره ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة، ولا تصلح لها، وإنما يستحقها الله تعالى ؟ !

وفي صفوة التفاسير [1] : ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا

(1) صفوة التفاسير، الجزء السابع عشر، ص ٢٦٧، ٢٦٨.

يا إبراهيم ﴾ أى : هل أنت الذى حطمت هذه الآلهة يا إبراهيم ؟

﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ أى : قال إبراهيم : بل حطمها الصنم الكبير ؛ لأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار، فكسرها والغرض تبكيتهم، وإقامة الحجة عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ أى : اسألوا هذه الأصنام من كسرها ؟ إن كانوا يقدرون على النطق.

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أى : رجعوا إلى عقولهم، وتفكروا بقلوبهم ﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ أى : أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق.

﴿ ثم نكسوا على رءوسهم ﴾ أى: انقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطغيان. ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ أى: قالوا ـ في لجاجهم وعنادهم ـ : لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تجيب، فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ وهذا إقرار منهم بعجز الآلهة.

وحينئذ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم، فأخذ يوبخهم ويعنفهم ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾ أى: أتعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع ؟ ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ أى : قبحاً لكم، ونتناً لكم وللأصنام التى عبدتموها من دون الله. ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أى : أفلا تعقلون قبيح صنيعكم ؟

هذه المحاكمة ـ بهذا الحوار القرآنى الذى سجلها ـ لم تكن تحتاج إلى هذا الحشد التفسيرى الذى جاء به هؤلاء المفسرون، ونسب فيه البعض منهم إلى سيدنا إبراهيم أقوالاً لا أعتقد أنه قالها في الإجابة

على سؤال النمرود وقومه : ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم ﴾ وأتساءل : من أين جاء القرطبى والطبرى بهذه الإجابة التى نسبوها إلى سيدنا إبراهيم ؟ ونصها : (إنه ـ أى كبير الأصنام ـ غضب وغار من أن تعبدوا معه هذه الصغار ـ وهو أكبر منها ـ فكسرها) إنها تزخر بالتهكم والازدراء ، ما فى ذلك شك ، ولكنها جاءت تعللاً من إبراهيم لرده على سؤالهم : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ كما جاء فى القرآن الكريم ، مع أن التعليل للكلام ، أو الحدث يكون آكد فى ثبوته ، ولم يكن هذا صحيحا ، ولا كان مراد سيدنا إبراهيم ولكن مراد سيدنا إبراهيم جاء فى هذا التعقيب الذى ترتب على رده : ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ فكان هذا التعقيب هو المطلوب لتكملة جواب إبراهيم ، وهو المقصود من هذه المخالفة للواقع التى حدثت من إبراهيم توبيخا وتهكما واستدراجا لأن يعترف النمرود وقومه بخطئهم ، وزيف معتقداتهم ، وجهالتهم فى عبادة الأصنام التى لا تنطق ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها ، ولا عن غيرها وإقناعهم بأن الله ـ الذى خلق كل شئ ، والذى بيده ملكوت كل شئ ـ هو الأحق بالعبادة .

وربما ـ لهذا ـ فإن ابن كثير ، والجلالين ، والفتوحات الإلهية لم تذكر هذا التعليل وقد يكون هناك تفاسير أخرى لم يتيسر لى أن أطلع عليها لم تذكره أيضا ويضاف إليها أن صفوة التفاسير ـ وقد ذكر هذا التعليل ـ إنما ينقل عن المفسرين ، وقد نقل فى هذا الموضوع عن القرطبى ، كذلك لم تذكر هذا التعليل كتب التاريخ التى استعنت بها فى البحث ، وهى «قصص الأنبياء» للشيخ عبد الوهاب النجار . «قصص الأنبياء» لابن كثير . و «قصص القرآن الكريم»

لمحمد جاد المولى وآخرين . «النبوة والأنبياء» للشيخ محمد على الصابونى.

وإذا كانت الآيات الكريمة من سورة الصافات:

﴿ فنظر نظرة فى النجوم * فقال إنى سقيم ﴾ جاءت تكملة للآيات الكريمة من سورة الأنبياء : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ فى حادث تكسير الأصنام، والبحث عمن كسرها، فإن آيات كريمة أعقبت آيات الصافات جاءت - كذلك - تكملة لآيات المحاكمة والحوار فى سورة الأنبياء وهى قوله تعالى فى سورة الصافات :

﴿ فأقبلوا إليه يزفون * قال أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون ﴾ .

ويكون المعنى - على هذا وكما جاء فى هذه التفاسير - أنه بعد أن أتى إبراهيم أقبل إليه القوم يسرعون . . أو يمشون بجمعهم على مهل آمنين أن يصيب أحد آلهتهم بسوء أو يتسللون تسللا بين المشى والعدو، أو يرعدون غضبا، أو يختالون فى مشيهم خيلاء أو كان بعضهم يزفون بعضا لتسارعهم إليه . . وسألوه : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ فقال محتجا : (أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم ؟ ! والله خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام وقد تكون (ما) استفهام . ومعناه : التحقير لعملهم . . وقد تكون نافية، والمعنى : وما تعملون ذلك ولكن الله خالقه .

ويضيف ابن كثير [1] : (وهذه القصة هنا مختصرة، وفى سورة

(١) تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، ص ١٤ .

الأنبياء مبسوطة ؛ فإنهم لما رجعوا (من عيدهم) ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك، حتى اكتشفوا واستعلموا فعرفوا أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - هو الذى فعل ذلك، فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبهم، فقال: أتعبدون ما تنحتون ؟! والله خلقكم وما تعملون ؟).

وجاء فى (الجلالين): (فأقبلوا إليه يسرعون المشى، فقالوا: نعبدها وأنت تكسرها ؟! والفتوحات الإلهية توضح هذا التفسير للجلالين كما يلى: قوله: (وأنت تكسرها) يدل على أن إبراهيم هو الكاسر لآلهتهم. وقوله فى الأنبياء: (قالوا من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟) هكذا جاء فى النسخة التى بأيدينا.

والصواب: (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) يدل على أنهم ما عرفوا الكاسر لها.

وأجيب: بأنه يحتمل أن بعضهم عرفه فأقبل إليه وبعضهم جهله فسأله أو أن كلهم جهلوه، وسألوا إبراهيم عنه، فلما عرفوه أقبلوا إليه).



قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ

لقد انتصر الحق فى هذه المحاكمة ووضح فيها قوة حجة سيدنا إبراهيم وزيف معتقدات النمرود وقومه وسوء جهالاتهم وجمود عقولهم.

ولكن عنادهم الشديد وإصرارهم على الشرك والوثنية، وعلى الخضوع لقوة ملكهم النمرود وسطوته واستشعارهم المهانة والإذلال لما فعله إبراهيم بآلهتهم من التكسير وإثبات عجزها عن نفعهم أو ضرهم، وعن الدفاع عن نفسها.

كل ذلك دفعهم إلى أن يحكموا عليه بالموت حرقًا.

وجاء فى قصص القرآن [1] : (أرادوا أن يعاقبوه بالإحراق، ولا ذنب له إلا أن قال : ربى الله، ولا جرم ارتكبه إلا نقمته على أصنامهم، وإنكاره عبادة أوثانهم، ولكن إعلان التوحيد والجهر بدعوة الناس إليه يقض مضاجع الطغاة، ويكدر صفو عيشهم؛ لأنه يخلص الناس من ربقة استعبادهم، وتنكشف به خبايا أراجيفهم، فيحذر الناس الوقوع فى شركهم، وينفضون من حولهم، ويهبون لرفع الحيف عنهم، وفى ذلك ذهاب سلطانهم والحد من طغيانهم)

وجاء فى قصص القرآن، والنبوة والأنبياء، معًا [2] : (جاش خاطر إحراقه فى نفوسهم ولكن كيف يحرقونه ؟ لابد أن يصلوه

(١) قصص القرآن : ص ٤٦.
(٢) قصص القرآن : ص ٤٦ . النبوة والأنبياء : ص ١١٢.

ناراً حامية، تعادل لظى الحقد المتأجج فى صدورهم من جراء انتهاك حرمة آلهتهم المزعومة، وتحطيمها دون مبالاة.

شرعوا يجمعون الحطب من هنا وهناك، وجعلوا ذلك قرباناً لآلهتهم وبراً بمعبوداتهم، حتى إن المرأة كانت إذا مرضت نذرت إن عوفيت لتجمعن حطبا لحرق إبراهيم).

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء (الآيات ٦٨ - ٧٠): ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين﴾.

وفى سورة العنكبوت (الآية: ٢٤): ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

وفى سورة الصافات (الآيات ٩٧، ٩٨): ﴿قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم * فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين﴾.

يقول القرطبى فى تفسير آيات الأنبياء [1]: ﴿قالوا حرقوه﴾ لما انقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم، وانصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة، وقالوا: حرقوه روى أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس - أى: من باديتها - قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج ويقال: اسمه (هيزر) وقيل: اسمه (هيزان) كما فى تاريخ الطبرى وتفسيره وقيل: (هيون) فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وقيل: بل قاله ملكهم نمرود ﴿وانصروا آلهتكم﴾ بتحريق إبراهيم لأنه يسبها ويعيبها وجاء فى

(١) الجامع لأحكام القرآن، المجلد السادس، الجزء الحادى عشر، ص ٣٠٣.

الخبر : أن نمرود بنى صرحاً طوله ثمانون ذراعاً ، وعرضه أربعون ذراعاً قال ابن إسحاق : وجمعوا الحطب شهراً ، ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت ، حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه فى المنجنيق مغلولاً . .
ويقال : إن إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذ فضجت السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق ضجة واحدة : (ربنا : إبراهيم ليس فى الأرض أحد يعبدك غيره ، يحرق فيك ! ! فأذن لنا فى نصرته) فقال الله تعالى : (إن استغاث بشئ منكم أو دعاه فلينصره ، فقد أذنت له فى ذلك ، وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به ، وأنا وليه) فلما أرادوا إلقاءه فى النار أتاه خَزَّان الماء - وهو فى الهواء - فقالوا : يا إبراهيم إن أردت أخمدنا النار بالماء فقال : لاحاجة لى إليكم وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت النار ، فقال : لا ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : (اللهم أنت الواحد فى السماء ، وأنا الواحد فى الأرض ، ليس أحد يعبدك غيرى ، حسبى الله ونعم الوكيل) وروى أبى بن كعب - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - : [إن إبراهيم - حين قيدوه ليلقوه فى النار - قال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ، ولك الملك لا شريك لك) قال : ثم رموا به فى المنجنيق من مضرب شاسع ، فاستقبله جبريل ، فقال : يا إبراهيم : ألك حاجة ؟ قال : (أما إليك فلا) فقال جبريل : فاسأل ربك ، فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى] فقال الله تعالى - وهو أصدق القائلين - : ﴿ يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ قال بعض العلماء : جعل الله فيها بردا يرفع حرّها ، وحرًّا يرفع بردها ، فصارت سلاماً عليه ، قال أبو العالية : ولو لم يقل

﴿ بردا وسلاما ﴾ لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل (على إبراهيم) لكان بردها باقياً على الأبد. وذكر بعض العلماء: أن الله تعالى أنزل (زربية) - الطنفسة، وقيل: البساط ذو الخمل - من الجنة فبسطها فى الجحيم وأنزل الله ملائكة: جبريل وميكائيل، وملك البرد، وملك السلامة. وقال على وابن عباس: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت، ظنت أنها تعنى.

قال السدى: وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره، ويطرح ثمرته.. وقال كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه. فأقام فى النار سبعة أيام، لم يقدر أحد أن يقرب من النار، ثم جاءوا فإذا هو قائم يصلى. وقال المنهال بن عمرو: قال إبراهيم: (ماكنت أياماً قط أنعم منى فى الأيام التى كنت فيها فى النار) وقال كعب وقتادة والزهرى: ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه؛ فلذلك أمر رسول الله - ﷺ - بقتلها، وسماها (فويسقة) وقال شعيب الحمَّانى: ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ست عشرة سنة وقال ابن جريج: ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ست وعشرين سنة، ذكر الأول: الثعلبى. والثانى: الماوردى فالله أعلم. وقال الكلبى: بردت نيران الأرض جميعاً فما أنضجت كراعاً فرآه نمرود من الصرح - وهو جالس على السرير - يؤنسه ملك الظل، فقال: (نعم الرب ربُّك، لأقربن له أربعة آلاف بقرة) وكف عنه.

ومما يلفت النظر فى هذه القصة قول الملائكة، وجميع الخلق، والسموات، والأرض: (ربنا: إبراهيم ليس فى الأرض أحد يعبدك

غيره) وقول إبراهيم : (... وأنا الواحد فى الأرض ليس أحد يعبدك غيرى) فهو يؤكد ويسجل : أن الدنيا كلها جاء عليها وقت لم يكن يعبد الله فيها أحد إلا سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأن جميع من فى الأرض ـ فى ذلك الوقت ـ كانوا يعبدون الكواكب والأصنام وأن سيدنا (لوطا) لم يكن قد آمن به فى ذلك الوقت ، وكذلك السيدة (سارة) ولم تكن زوجاً له أيضاً .. ومع أن الملك نمرود مدح الله سبحانه بقوله : (نعم الرب ربك) فإنه ظل على كفره إلى أن مات .

يقول القرطبى : « قوله تعالى : ﴿ وأرادوا به كيدا ﴾ أى : أراد نمرود وأصحابه أن يمكروا به ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ فى أعمالهم ، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقه : البعوض . فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح ، أكلت لحومهم وشربت دماءهم ، ووقعت واحدة فى منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه (وكان أكرم الناس عليه الذى يضرب رأسه بمرزبة من حديد ، فأقام بهذا نحواً من أربعمائة سنة) » .

هل هذا معقول ؟ لست أصدق أن يقول ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ هذه العبارة بين القوسين وتحتها خط . وكيف مرت هذه العبارة على القرطبى وبعض المفسرين والمؤرخين دون تكذيب أو رفض أو تشكيك أو نفى أو استنكار ومناقشة ؟! هذا إلى جانب أن فترة الأربعمائة عام هذه فيها لبس سوف نتحدث عنه فيما بعد .

ويقول القرطبى فى تفسيره لآية العنكبوت [1] : (فما كان جواب

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد السادس ، الجزء الحادى عشر ، ص ٣٠٥ وفى الهامش نبه المحقق إلى أن ابن عباس يكذب عليه بعض الرواة !.

قومه) حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿ إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ﴾ ثم اتفقوا على تحريقه (فأنجاه الله من النار) أى : من إذايتها (إن فى ذلك) أى : فى إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعدما ألقى فيها ﴿ لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

ويقول فى تفسيره لآيتى الصافات [1] : ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا ﴾ أى : تشاوروا فى أمره لما غلبهم بالحجة ، فقالوا : ابنوا له بنيانا تملأونه حطبا فتضرمونه ، ثم ألقوه فيه ، وهو الجحيم قال ابن عباس : بنوا حائطا من حجارة طوله فى السماء ثلاثون ذراعا ، وملأوه نارا وطرحوه فيها ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فلما صار فى البنيان قال : حسبى الله ونعم الوكيل [2] .

﴿ فألقوه فى الجحيم ﴾ أى : فى جحيم ذلك البنيان . وذكر الطبرى : أن قائل ذلك اسمه (الهيزان) رجل من أعراب فارس ، وهم الترك ، وهو الذى جاء فيه الحديث (بينما رجل يمضى فى حلة له يتبختر فيها فخسف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة) والله أعلم .

﴿ فأرادوا به كيدا ﴾ أى : بإبراهيم ، أى : احتالوا لإهلاكه ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها ، ولم ينفذ مكرهم ولا كيدهم .

ويقول ابن كثير فى تفسيره لآيات الأنبياء [3] : (لما دحضت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد السابع ، الجزء الثالث عشر ، ص ٣٣٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الثامن ، الجزء الخامس عشر ، ص ٩٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، المجلد الثالث ، الجزء السابع عشر ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً قال السدى: حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم).

هذا يعنى أن القوم فى جميع أنحاء بابل رجالاً ونساء قد تجمعوا لرؤية حرق إبراهيم وساهموا فى حفر حفرة عظيمة أو إقامة بنيان عظيم.. وشاركوا جميعاً فى جمع الحطب وإشعال النار فيه.. ويعنى كذلك أن جمع الحطب استمر أياماً طويلة: مرضت فيها نساء شاركن فى جمع الحطب بعد مرضهن وشفائهن فكيف يكون حجم هذه الحفرة أو هذا البنيان؟ وكيف يكون مقدار هذا الحطب الذى تم جمعه فى هذه الأيام الطويلة بأيدى كل الناس؟ وكيف يكون حجم هذه النار التى أوقد لها هذه الكميات الهائلة من الحطب والتى ألقى فيها سيدنا إبراهيم؟ بل أهم من هذا كله كيف كانت مشاعر وأحاسيس سيدنا إبراهيم وهو يرى تجمع كل الناس ضده واشتراكهم فى إحراقه بالنار؟

يقول ابن كثير عن السدى: ثم جعلوه فى جَوْبَة ـ حفرة من الأرض ـ وأضرموها ناراً فكان لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى كفة منجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد قال شعيب الجبائى: اسمه (هيزن) فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة فلما ألقوه قال: (حسبى الله ونعم الوكيل) كما رواه البخارى عن ابن عباس أنه قال: حسبى الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين

ألقى فى النار، وقالها محمد ـ عليه السلام ـ حين قالوا : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ .

وروى الحافظ أبو يعلى [1] لأبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [لما ألقى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى النار قال : (اللهم إنك فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد أعبدك) ويروى : أنه لما جعلوا يوثقونه قال : لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك] .

وقال شعيب الجبائى : كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة، فالله أعلم. وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل ـ وهو فى الهواء ـ فقال : ألك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا، وأما من الله فلى وقال سعيد بن جبير : ويروى عن ابن عباس أيضاً، قال : لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر فأرسله ؟ قال : فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله : ﴿ يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ قال : لم يبق نار فى الأرض إلا طفئت وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أحد ـ يومئذ ـ بنار، ولم تحرق من إبراهيم سوى وثاقه.. وقال الثوري عن على بن أبى طالب : ﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ قال : لا تضربه وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قال : ﴿ وسلاما ﴾ لأذى إبراهيم بردها وقال جويبر عن الضحاك : ﴿ كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ قالوا : صنعوا له حظيرة من حطب جزل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصبه منها شئ، حتى أخمدها الله

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، الجزء السابع عشر، ص ١٧٦و ١٧٧.

قال : ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق فلم يصبه منها شئ غير ذلك وقال السدى : كان معه فيها ملك الظل وقال على بن أبى حاتم عن المنهال بن عمرو قال : أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار، فكان فيها إما خمسين، وإما أربعين، قال : ما كنت أياماً وليالى قط أطيب عيشا إذ كنت فيها، وودت أن أعيش وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها . وقال أبو زرعة بن عمرو عن أبى هريرة، قال : إن أحسن شئ قال أبو إبراهيم ـ لما رفع عن الطبق وهو فى النار وجده يرشح جبينه ـ قال عند ذلك : (نعم الرّب ربك يا إبراهيم) .

(وقد مر بنا ـ فى تفسير القرطبى ـ أن الملك نمرود قال ـ أيضاً ـ هذه العبارة) .

يقول ابن كثير : وقال قتادة : لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا (الوزغ) وقال الزهرى : أمر النبى ـ ﷺ ـ بقتله، وسماه (فويسقا) وروى ابن أبى حاتم عن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومى، قالت : دخلت على عائشة فرأيت فى بيتها رمحاً، فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت : نقتل به هذه (الأوزاغ) إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : [إن إبراهيم حين ألقى فى النار لم تكن فى الأرض دابة إلا تطفئ النار غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم] فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله .

(الأوزاغ : جمع وزغ : سام أبرص، يطلق على الذكر والأنثى، أو الوزغة الأنثى والوزغ الذكر) .

﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ أى : المغلوبين

الأسفلين، لأنهم أرادوا بنبى الله كيداً، فكادهم الله، ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.. وقال عطية العوفى : لما ألقى إبراهيم فى النار جاء ملكهم لينظر إليه، فطارت شرارة فوقعت على إبهامه، فأحرقته مثل الصوفة).

وفى تفسيره لآية العنكبوت يقول ابن كثير[1]:

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم - فى كفرهم، وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل - : إنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿ إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم، وقوة ملكهم ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم * فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة (كما لاحظنا) وحوطوا حولها ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه، وألقوه فى كفة المنجنيق ثم قذفوه فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً؛ فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ما له للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

وقوله تعالى : ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ أى : سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً وهكذا تطرق ابن كثير من تفسيره لآية

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، الجزء العشرون، ص ٣٨٦.

العنكبوت إلى تفسير آيتى الصافات، وأضاف [1] فقالوا: ﴿ ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾.

وابن كثير فى كتابه «قصص الأنبياء» يذكر ما قاله فى تفسيره لآيات الأنبياء والعنكبوت والصافات مع إضافات مفيدة، ولهذا فقد آثرت أن أنقل عنه ماجاء فى قصص الأنبياء[2] يقول : ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم * فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ . عدلوا عن الجدل والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم؛ لينصروا ماهم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الرب - جل جلاله - وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، كما قال تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبا من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة (أى حفرة) فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأطلقوا فيه النار، فاضطرمت وأججت والتهبت، وعلاها شرر لم ير مثله قط.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الرابع، الجزء الثالث والعشرون، ص ١٤ .

(٢) قصص الأنبياء، ص ١٢٥ - ١٢٨ .

ثم وضعوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في كفة منجنيق (آلة ترمى بها الحجارة فى الحرب) صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له (هيزن) وكان أول من صنع المجانيق، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه، وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك (رب العالمين) لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك.

فلما وضع الخليل ـ عليه السلام ـ فى كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه منه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وروى أبو يعلى عن أبى هريرة، قال: قال ـ ﷺ ـ: [لما ألقى إبراهيم فى النار قال: اللهم إنك فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد أعبدك].

وذكر بعض السلف: أن جبريل عرض له فى الهواء، فقال: ياإبراهيم، ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

ويروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، أنه قال: جعل ملك المطر يقول: متى أومر فأرسل المطر؟ فكان أمر الله أسرع:

﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ قال على بن أبى طالب: أى لا تضر به وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله قال: ﴿ وسلاما على إبراهيم ﴾ لأذى إبراهيم بردها... وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار، ولم تحرق منه سوى وثاقه.

وقال الضحاك: يروى أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شئ غيره.

وقال السدى : كان معه أيضاً ملك الظل . . وصار إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى ميل الجوبة، حوله نار، وهو فى روضة خضراء، والناس ينظرون إليه، لا يقدرون على الوصول، ولا هو يخرج إليهم.

فعن أبى هريرة أنه قال : أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال ـ لما رأى ولده على تلك الحال ـ : نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وروى ابن عساكر عن عكرمة : أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها ـ عليه السلام ـ فنادته : يا بنى إنى أريد أن أجئ إليك، فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك، فقال : نعم. فاقبلت إليه لا يمسها شئ من حر النار، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته، ثم عادت).

ومع هذا ـ وكما أشرنا من قبل ـ فإن هذا الموقف الذى يمثل مساندة إلهية من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لسيدنا إبراهيم وتأييداً له فى دعوته إلى عبادته سبحانه فى صورة معجزة غير مسبوقة لأحد من الناس لم يبدل من اعتقاد أم إبراهيم، أو اعتقاد أبى إبراهيم فى عبادتهما للأصنام.

ورواية ابن عساكر مطولة فى تاريخه، ونصها : حكى عكرمة بلفظ : (إن نار الدنيا كلها لم ينتفع بها يومئذ أحد من أهلها. قال : فلما أخرج الله إبراهيم من النار زاد فى حسنه وجماله سبعين ضعفاً وقال : إنه لما ألقى فى النار قالت أمه : لقد كان ابنى يقول : إن له رباً يمنعه، وأراه يلقى فى النار فما ينفعه، وإنى مطلعة على هذه النار، أنظر إلى ابنى ما فعل . . . فعملت لها سلماً ثم أطلعت على السلم، حتى إذا شرفت أبصرت إبراهيم فى وسط النار، فنادته أمه :

يا إبراهيم، فلما رآها قال : يا أمه : ألا ترين ما صنع الله بي ؟ قالت : يابني : لولا أني أخاف النار لمشيت إليك فقال : يا أمه أنزلي وتعالى فقالت : يابني ادع إلهك أن يجعل لي طريقا، فدعا ربه فجعل لها طريقاً، ثم نزلت فقالت : إني أخاف، فقال : لا تخافي. هل تجدين من حر النار شيئاً ؟ قالت : لا، فسارت إليه حتى إذا دنت منه ضمته إلى صدرها، وجعلت تقبله، فقال لها يا أمه : ارجعي عما أنت عليه فالتفتت لترجع، فإذا بالنار قد التهبت، فقالت : أسألك بحق إلهك إلا ما دعوت ربك أن يبعد النار عن طريقي فدعا ربه فمرت، حتى إذا كانت على رأس الحائط وأرادت أن تنزل نادت : يا إبراهيم ابني - عليك السلام - ثم ذهبت[1].

ويتابع ابن كثير كلامه في قصص الأنبياء فيقول : وعن المنهال بن عمرو أنه قال : أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين، وإما خمسين يوما... وأنه قال : (ما كنت أياماً وليالي أطيب عيشا إذ كنت فيها، ووددت أن أعيش وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها) - صلوات الله وسلامه عليه - فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن ينتفعوا فاتضعوا وأردوا أن يَغْلبُوا فغُلبُوا قال الله تعالى :

﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ الأسفلين ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً، بل هي كما قال تعالى : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾.

(١) قصص الأنبياء، هامش ص ١٢٦.

روى البخارى عن أم شريك : أن رسول الله - ﷺ - أمر بقتل الوزغ وقال : (كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام) ورواه مسلم وأخرجه النسائى وابن ماجة .

وروى أحمد أن نافعاً - مولى ابن عمر - أخبره : أن عائشة أخبرته : أن رسول الله - ﷺ - قال : [اقتلوا الوزغ ، فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم قال : فكانت عائشة تقتلهن] .

ورواية ثانية أيضاً عن نافع : أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب ، فقالت : ما هذا الرمح ؟ فقالت : نقتل به الأوزاغ . . . ثم حدثت عن رسول الله - ﷺ - [أن إبراهيم لما ألقى فى النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ ، فإنه جعل ينفخها عليه] .

ورواية ثالثة : أن سمامة مولاة الفاكه بن المغيرة قالت : دخلت على عائشة فرأيت فى بيتها رمحاً موضوعاً ، فقلت : يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت : هذا لهذه الأوزاغ ، نقتلهم به ، فإن رسول الله - ﷺ - حدثنا : أن إبراهيم حين ألقى فى النار لم يكن فى الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ ، كان ينفخ عليه ، فأمرنا رسول الله - ﷺ - بقتله .

ويضيف ابن كثير [1] : قال زيد بن أسلم [2] : وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله ، فأبى عليه . ثم دعا الثانية ، فأبى عليه . ثم دعا الثالثة ، فأبى عليه وقال : اجمع جموعك ، وأجمع جموعى (فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت

---

(١) قصص الأنبياء ، ص ١٢٩ .
(٢) قصص الأنبياء ، ص ١٢٩ وهى رواية عبد الرزاق عن معمر ، عن زيد بن أسلم .

طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظاما بادية، ودخلت واحدة منهم فى منخر الملك) فمكثت فى منخره أربعمائة سنة عذبه الله تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله عز وجل بها.

وما يزال السؤال قائماً فى هذه الرواية لزيد بن أسلم، ومن قبله رواية ابن عباس : كيف مرت هذه العبارة ـ بين القوسين وتحتها خط ـ على ابن كثير كما مرت على القرطبى دون تكذيب أو مناقشة أو تصحيح ؟ أما إنَّ عذاب الله لمن حاول إحراق نبيه وخليله يتعاظم بمقدار الجريمة فى هذه المحاولة ؟ ولكنه لا يتجاوز المعقول المقبول إلى الإغراق فى الاستحالة والخيال... وكما قلنا سوف يأتى الحديث عنه.

أما الطبرى فيقول عند تفسيره لآيات الأنبياء [1] : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ يقول تعالى ذكره : قال بعض قوم إبراهيم لبعض : حرقوا إبراهيم بالنار، وانصروا آلهتكم إن كنتم ناصريها، ولم تريدوا ترك عبادتها وقيل : إن الذى قال ذلك رجل من أكراد فارس وروى عن شعيب الجبائى : أن الذى قال حرقوه (هيزن) فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وعن ابن إسحاق قال : (اجتمع نمرود وقومه فى إبراهيم فقالوا : ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ أى : لا تنصروها منه إلا بالتحريق بالنار إن كنتم

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن، المجلد التاسع، ص ٣٢ - ٣٤.

ناصريها وحدث عن مجاهد قال : تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر، فقال : أتدرى يا مجاهد من الذى أشار بتحريق إبراهيم بالنار؟ قال : قلت : لا ، قال : رجل من أعراب فارس، قلت : يا أبا عبد الرحمن : أو هل للفرس أعراب ؟ قال : نعم الكرد هم أعراب فارس فرجل منهم هو الذى أشار بتحريق إبراهيم بالنار) .

وقوله : ﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ فى الكلام متروك اجتزئ بدلالة ما ذكره عليه منه ، وهو :فأوقدوا له نارًا ليحرقوه، ثم ألقوه فيها، فقلنا للنار : يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم وذكر : أنهم لما أرادوا إحراقه بنوا له بنيانا ، ويتطرق الطبرى - بهذه العبارة الأخيرة - إلى آيات الصافات فيقول - : وعن السدى قال : قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم قال : فحبسوه فى بيت وجمعوا له حطبا ، حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول : لئن عافانى الله لأجمعن حطبا لإبراهيم فلما جمعوا له وأكثروا من الحطب (أشعلوه) حتى إن الطير لتمر بها فتحترق من شدة وهجها ، فعمدوا إليه، فرفعوه على رأس البنيان، فرفع إبراهيم ﷺ - رأسه إلى السماء فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة : ربنا إبراهيم يحرق فيك ، فقال : أنا أعلم به، وإن دعاكم فأغيثوه. وقال إبراهيم حين رفع رأسه إلى السماء : اللهم أنت الواحد فى السماء، وأنا الواحد فى الأرض ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى، حسبى الله ونعم الوكيل. فقذفوه فى النار، فناداها فقال : ﴿ يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ فكان جبريل - عليه السلام - هو الذى ناداها . . . وقال ابن عباس : لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من شدة بردها ، فلم يبق يومئذ نار فى الأرض إلا طفئت ؛ ظنت أنها

هي تُعْنَى، فلما طفئت النار نظروا إلى إبراهيم فإذا هو ورجل آخر معه، وإذا رأس إبراهيم في حجره يمسح عن وجهه العرق وذكروا أن ذلك الرجل هو ملك الظل، وأنزل الله ناراً فانتفع بها بنو آدم وأخرجوا إبراهيم، فأدخلوه على الملك، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه وحدث عن كعب، قال : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه وعن على بن أبي طالب قال : بردت عليه حتى كادت تقتله، حتى قيل وسلاما، قال : لا تضربه وحدث عن المنهال بن عمرو قال : قال إبراهيم خليل الله : ما كنت أياماً قط أنعم مني من الأيام التي كنت فيها في النار وحدث عن سعيد قال : لما ألقى إبراهيم خليل الله - ﷺ - في النار، قال الملك خازن المطر : رب : خليلك إبراهيم، رجاء أن يؤذن له فيرسل المطر قال : فكان أمر الله أسرع من ذلك فقال : ﴿يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾ فلم يبق في الأرض نار إلا طفئت، وحدث عن أبي هريرة قال : (إن أحسن شئ قاله أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار . . وجده يرشح جبينه، فقال عند ذلك : نعم الرب ربك يا إبراهيم) . قال ابن جريج : (قال كعب الأحبار : ما أحرقت النار من إبراهيم شيئاً غير وثاقه الذي أوثقوه به) . وحدث عن معتمر بن سليمان التيمي، عن بعض أصحابه قال : (جاء جبريل إلى إبراهيم - عليهما السلام - وهو يوثق أو يقمط ليلقى في الأرض، قال يا إبراهيم : ألك حاجة؟ قال : أما إليك فلا) .

وحدث معتمر عن ابن كعب عن أرقم : أن إبراهيم قال - حين جعلوا يوثقونه ليلقوه في النار - : (لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك) .

وحدّث عن أبى العالية ـ فى قوله : قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ـ قال : (السلام : لا يؤذيه بردها ولولا أنه قال : وسلاما لكان البرد أشد عليه من الحر) .

حدث عن قتادة قال : لم تأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ .

وقال الزهرى أمر النبى ـ ﷺ ـ بقتله (أى قتل الوزغ وسماه فويسقا) وقوله : ﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الآخسرين ﴾ يعنى : الهالكين .

ويقول فى تفسيره لآية العنكبوت [1] : (يقول تعالى ذكره : فلم يكن جواب قوم إبراهيم له إذ قال لهم : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ إلا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه أو حرقوه بالنار، ففعلوا، فأرادوا إحراقه بالنار، فأضرموا له النار، فألقوه فيها، فأنجاه الله منها، ولم يسلطها عليه، بل جعلها عليه برداً وسلاما) . وقال كعب : ما حرقت منه إلا وثاقه . ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ يقول تعالى ذكره : إن فى إنجائنا لإبراهيم من النار وقد ألقى فيها وهى تسعر ، وتصييرنا لها عليه بردا وسلاما ، لأدلة وحجج لقوم يصدقون بالأدلة والحجج إذا عاينوا ورأوا .

وننقل من «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان» بهامش جامع البيان للنيسابورى [2] عن تفسير هذه الآية ، ثم حكى أن جواب

---

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن، المجلد العاشر، الجزء العشرون، ص ٩١ .
(٢) جامع البيان، المجلد العاشر، الجزء العشرون، هامش ص ٨٩، ٩٠ .

قوم إبراهيم لم يكن إلا أن قالوا فيما بينهم أو قال واحد منهم، ورضى به الباقون: ﴿ اقتلوه ﴾ بالسيف ونحوه ﴿ أو حرقوه ﴾ بالنار وهذا ليس جوابا فى الحقيقة، ولكن كقولهم: عقابك السيف. وفيه بيان جهالتهم أنهم وضعوا الوعيد موضع الإئتمار للنصيحة والإذعان للحق.. ثم بين أنهم اتفقوا على تحريقه، فأنجاه الله من النار، والقصة مذكورة فى سورة الأنبياء ﴿ إن فى ذلك ﴾ الإنجاء ﴿ لآيات ﴾ جمع الآية لعظم تلك الحالة، كقوله: عن إبراهيم (كان أمة) أو لأنها مشتملة على أحوال عجيبة كالرمى من المنجنيق من غير أن لحق به ضرر كما يروى: أن النار صارت عليه روحا وريحانا، إلى غير ذلك وإنما قال فى قصة نوح - عليه السلام - ﴿ وجعلناها آية ﴾ ولم يذكر الجعل ههنا؛ لأن الخلاص من تلك النار آية فى نفسه، وأما السفينة فقد جعلها الله آية بأن أحدث الطوفان، وصانها عن الغرق ويمكن أن يقال: إن الصون عن النار أعجب من الصون عن الماء، فلذلك وحد الآية هناك وجمعها ههنا.. وإنما قال هناك: آية للعالمين وههنا لآيات لقوم يؤمنون؛ لأن السفينة بقيت أعواماً حتى مر عليها الناس ورأوها، فحصل العلم بها لكل أحد، أو نقول: جنس السفينة حصلت بعد ذلك فيما بين الناس، فكانت آية للعالمين، وأما تبريد النار فلم يبق من ذلك أثر، فلم يظهر لمن بعده إلا بطريق الإيمان به. وههنا لطيفة، وهى: أن الله تعالى جعل النار برداً وسلاما على إبراهيم؛ لسبب اهتدائه فى نفسه، وهدايته لغيره. وقال: قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله سيجعل النار على المؤمن المهتدى برداً وسلاماً.

ومن الفتوحات الإلهية فى تفسير آيات الأنبياء ننقل ما يلى

بتصرف [1] : ﴿قالوا حرقوه﴾ أى : قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المجادلة، وضاقت عليهم الحيل، وعيت بهم العلل ـ وهكذا ديدن المبطل المحجوج إذا فزعت شبهته بالحجة القاطعة، وافتضح لا يبقى له مفزع إلا المناصبة ـ والقائل هو النمرود بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام وقيل : القائل رجل من أكراد فارس، اسمه (هينون) خسف الله به الأرض فجمعوا له الحطب الكثير وأضرموا النار فى جميعه، وأوثقوا إبراهيم، وجعلوه فى منجنيق ورموه فى النار، وكانت مدة جمع الحطب شهرا ومدة الإيقاد سبعة أيام ومدة مكث إبراهيم فى النار سبعة أيام وكان عنده عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس، فصارت تلك النار فى حقه روضة، وبعث الله جبريل بقميص من حرير، وطنفسة، فألبسه القميص أولاً.. وفى الرازى : أن مدة مكثه فى النار كانت أربعين يوماً أو خمسين، ومثله فى أبى السعود.. وقال المنهال بن عمرو : قال إبراهيم : ما كنت قط أياماً أنعم منى فى الأيام التى كنت فيها فى النار. وكان فى تلك الأيام مشغولاً بالصلاة، فأشرف عليه النمرود من الصرح، فرآه جالساً على سرير، يؤنسه ملك الظل، فقال : نعم الرَّبُ ربُّك !! لأقربن له أربعة آلاف بقرة وكف عنه وكان إبراهيم وقت إلقائه فى النار ابن ست عشرة سنة، وقيل : كان ابن ست وعشرين سنة ـ كما قال الماوردى ـ ولما ألقى فيها جاء الوزغ ـ وهو سام أبرص ـ وجعل ينفخ على النار، فصم بسبب ذلك، وأمر النبى ـ ﷺ ـ بقتل الوزغ وقال : لأنه كان ينفخ النار على إبراهيم، ومن قتل وزغة فى أول ضربة كتب له حسنة، وفى الثانية

---

(١) الفتوحات الإلهية، المجلد الثالث، ص ١٣٥ .

دون ذلك ، وفى الثالثة دون ذلك ، وذكر بعض الحكماء أن الوزغ لا يدخل بيتا فيه زعفران ، وأنه يبيض قال تعالى : ﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ أى : ذات برد وسلام فلم تحرق منه غير وثاقه ، وذهبت حرارتها وبقيت إضاءتها وسلم من الموت ببردها ولو لم يقل ﴿ على إبراهيم ﴾ لما أحرقت نار ولا اتقدت ، وذلك لأنه طفئت جميع النيران فى ذلك اليوم ﴿ وأرادوا به كيدا ﴾ وهو التحريق ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ فى مرادهم ؛ لأنهم خسروا السعى والنفقة ، فلم يحصل لهم مرادهم أو الأخسرين بمعنى الهالكين ، بإرسال البعوض على النمروذ وقومه فأكلت لحومهم ، وشربت دماءهم ، ودخلت فى دماغه بعوضة فأهلكته . وعبارة الكرخى : قوله (الأخسرين) فى مرادهم ؛ لأنه صار سعيهم برهانا على بطلانهم وقال فى الصافات بلفظ (الأسفلين) لما تقدم على كل منهما ، فتمت المناسبة فى الموضعين.

ويقول فى تفسيره لآية العنكبوت [1] : فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ﴿ اقتلوه أو حرقوه ﴾ لما أمرهم بعبادة الله تعالى ، وبين سفههم فى عبادة الأوثان ، وظهرت حجته عليهم رجعوا إلى الغلبة ، فجعلوا القائم مقام جوابه فيما أمرهم به - قولهم : اقتلوه بسيف أو نحوه ، أو حرقوه ، والآمر بذلك إما بعضهم لبعض ، أو كبراؤهم قالوا لأتباعهم : اقتلوه فتستريحوا منه عاجلاً أو حرقوه بالنار ، فإما أن يرجع إلى دينكم إذا أوجعته النار ، وإما أن يموت بها إذا أصر على قوله ودينه . وفى الكلام حذف ، تقديره : فقذفوه فى النار فأنجاه الله من النار بأن جعلها عليه بردًا وسلامًا وفى ذلك إشارة إلى

(١) الفتوحات الإلهية ، المجلد الثالث ، ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

خلوصه من النار بعد إلقائه. وجاء هنا الترديد بين قتله وإحراقه، فقد يكون ذلك من قَـائِلِين: ناس أشـاروا بالقـتـل، وناس أشـاروا بالإحراق.

وفي الأنبياء: ﴿حرقوه﴾ اقتصروا على أحد الأمرين، وهو الذي فعلوه، فرموه في النار ولم يقتلوه وعبارة الرازي: (إلا أن قالوا اقتلوه. أي: قال رؤساء القوم لأتباعهم؛ لأن الجواب لا يصدر إلا من الأكابر، والقتل لا يباشره إلا الأتباع) وقولهم: ﴿اقتلوه﴾: أي: لا تجيبوا عن براهينه الثلاثة الدالة على الأصول، وهي: التوحيد، والنبوة، والحشر.

واقتلوه... الخ وإنما أجابوا بذلك لعدم قدرتهم على الجواب الصحيح ﴿فأنجاه الله من النار﴾ التي قذفوه فيها روى: أنه في ذلك اليوم لم ينتفع أحد بنار ﴿إن في ذلك﴾ أي: إنجائه من النار ﴿لآيات﴾ هي: الأولى: عدم تأثيرها فيه والثانية: إخمادها والثالثة: إنشاء روض ـ أي بستان ـ مكانها أي: في مكانها، أي: وسطها، في زمن يسير، أي: مقدار طرفة عين، بحيث إنها لم تؤذه، ولكن أحرقت وثاقه لينحلّ وهذا راجع إلى الاعتماد والإنشاء.

ويقول في تفسيره لآيات الصافات [1]: ﴿قالوا﴾ بينهم: ﴿ابنوا له بنيانا﴾ فملأوه حطباً، وأضرموه بالنار، فإذا التهب ﴿فألقوه في الجحيم﴾ النار الشديدة قيل: بنوا له حائطاً من الحجر، طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً،

(١) الفتوحات الإلهية، الجزء الثالث، ص ٥٤٥.

وملأوه من الحطب وأوقدوا عليه النار وطرحوه فيها ﴿ فأرادوا به كيدا ﴾ أي : شراً بإلقائه في النار لتهلكه.

﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ المقهورين، فخرج من النار سالمًا وعبارة البيضاوي (الأسفلين) : الأذلين بإبطال كيدهم، وجعله برهانا نيرا على علو شأنه ؛ حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً.

أما صفوة التفاسير فقد استعان ببعض ما جاء عن القرطبي في تفسيره لآيات الأنبياء ولم يضف جديداً عند تفسيره لآية العنكبوت وآيتي الصافات فليست هنالك فائدة في أن ننقل عنه في هذا الموضوع.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار [1] : (تشعرنا قصة إبراهيم ـ المحكية فى القرآن ـ أن هؤلاء القوم كانوا يعبدون ملوكهم مع آلهتهم يدل على ذلك المحاجة التى كانت بين إبراهيم وبين الملك، فأحب الملك أن يرجع إبراهيم عن نحلته الجديدة المخالفة لنحلة قومه، وأن يعبده وآلهته) .

وقد مر بنا أن الملك نمروذ ملك بابل جعل من نفسه إلهاً ودعا الناس إلى عبادته بعد أن رأى ما يتقلب فيه من نعيم وما يتمتع به من سطوة الملك، وما أطبق على الناس من جهل، فعبدوا الأصنام والتماثيل التى لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع، وقد سجل القرآن الكريم فى سورة البقرة الآية ٢٥٨ قصة المحاجة، فقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذى حآج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وقد قيل : (إن إبراهيم لما حآج النمرود كان ابن سبع عشرة سنة) [2] .

يقول القرطبى فى تفسيره لهذه الآية الكريمة [3] : ﴿ ألم تر ﴾

---

(١) قصص الأنبياء، ص ٨١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، المجلد الرابع، الجزء السابع، ص ٢٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن، المجلد الثانى، الجزء الثالث، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٦ .

بمعنى : هل رأيت ، أي : هل رأيت الذى حاج إبراهيم - وهو النمرود بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح ، ملك زمانه وصاحب النار والبعوضة . . هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسدى ، وابن إسحاق ، وزيد بن أسلم ، وغيرهم - وكان إهلاكه لما قصد المحاربة مع الله تعالى بأن فتح الله تعالى عليه باباً من البعوض ، فستروا عين الشمس ، وأكلوا عسكره ، ولم يتركوا إلا العظام ، ودخلت واحدة منها فى دماغه فأكلته حتى صارت مثل الفأرة ، فكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عتيدة لذلك ، فبقى فى البلاء أربعين يوما) مع أن القرطبى ذكر قصة إهلاك النمرود وقومه بالبعوض عند تفسيره - كما مر بنا - لقوله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ ولكنه ذكر أن النمرود (أقام بهذا البلاء نحواً من أربعمائة سنة) ؟!

وابن كثير ذكر هذه القصة - كما مر بنا - فى كتابه «قصص الأنبياء» وذكرها عند تفسيره لآية البقرة - كما سيأتى - واتفق مع القرطبى - كما جاء فى تفسير آيات الأنبياء - على أن النمرود بقى فى البلاء أربعمائة عام والطبرى ذكر هذه القصة - كما سيأتى - عند تفسيره لآية البقرة ، وأكد أن مدة بلاء النمرود بالبعوضة أربعمائة عام ؟! والفتوحات الإلهية ذكرت هذه القصة - كما مر بنا فى تفسير الأنبياء - ولكن لم يحدد مدة البلاء ولا مَنْ قالها .

ويظل اعتراضنا قائماً - كما أشرنا من قبل - على أن (أعز الناس عند النمرود ظلوا يضربون دماغه أربعمائة عام بمطرقة عتيدة من حديد) فأى دماغ إنسان هذه التى تتحمل الضرب بالمطرقة العتيدة

دون أن تتفتت من أول ضربة ؟ وتفتت دماغ النمرود من أول ضربة بالمطرقة العتيدة يعجل بموته، وينهى عذابه، فلا تتحقق الحكمة من دخول البعوضة دماغه وبقائها حية ـ بإرادة الله ـ تنهش فيها لمضاعفة تعذيبه، ولهذا فإن ضرب دماغ النمرود طوال مدة تعذيبه لا معنى له، ولا فائدة منه، ولا يحقق القصد من مضاعفة تعذيب من حاول إحراق نبى الله.. إلا أن يكون المراد به مجرد تمثيل لتجسيم وتضعيف صورة العذاب الذى يعانى منه النمرود بدخول البعوضة دماغه وبقائها حية تنهش فيه وتثير آلامه... كما أن هذا التفاوت الكبير جداً والمبالغ فيه بين مدة تعذيب الملك نمرود ـ كما جاء عند هؤلاء المفسرين، وما جاء فى موضوع آخر عند القرطبى، هو ـ فى تقديرنا ـ نتيجة للبس والاشتباه بين مدة التعذيب، ومدة عمر الملك نمرود التى قضاها حيا؛ لأن بعض كتب التفسير والتاريخ قدرت أن هذا الملك عمر فى الدنيا أربعمائة عام، كما سيأتى.

ويتابع القرطبى تفسيره، فيقول: قال ابن جريج: هو أول ملك فى الأرض.. قال ابن عطية: وهذا مردود... وقال قتادة: هو أول من تجبر، وهو صاحب الصرح ببابل.. وقيل: إنه ملك الدنيا بأجمعها، وهو أحد الكافرين والآخر بختنصر (فى البحر لأبى حيان: قال مجاهد: ملك الأرض مؤمنان: سليمان، وذو القرنين، وكافران: نمرود، وبخْتنصر) وقيل: إن الذى حاج إبراهيم نمرود ابن فالح بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام. حكى جميعه بن عطية وحكى السهيلى: أنه النمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح. وكان ملكاً على السودان، وكان ملكه الضحاك الذى يعرف

بالازدهاق، واسمه بيوراسب بن أندراست. وكان ملك الأقاليم كلها، وهو الذى قتله أفريدون بن أثغيان وكان الضحاك طاغياً جباراً، ودام ملكه ألف عام - فيما ذكروا - وهو أول من صلب، وأول من قطع الأيدى والأرجل وللنمرود ابن لصلبه اسمه (كوشا) أو نحو هذا الاسم وله ابن يسمى نمرود الأصغر وكان مُلْك نمرود الأصغر عاماً واحداً، وكان مُلك نمرود الأكبر أربعمائه عام، فيما ذكروا.

وفى قصص هذه المحاجة روايتان، إحداهما : أنهم خرجوا إلى عيد لهم فدخل إبراهيم على أصنامهم فكسرها، فلما رجعوا قال لهم : أتعبدون ما تنحتون؟ فقالوا : فمن تعبد؟ قال : أعبد الذى يحيى ويميت وقال بعضهم : إن نمرود كان يحتكر الطعام : وكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام يشترونه منه فإذا دخلوا عليه سجدوا له، فدخل إبراهيم فلم يسجد له، فقال : مالك لا تسجد لى؟ فقال : أنا لا أسجد إلا لربى فقال له نمرود : من ربك؟ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت وذكر زيد بن أسلم أن النمرود قعد يأمر الناس بالميرة (الطعام.. الميرة : جلب الطعام) فكلما جاء قوم يقول : من ربكم؟ فيقولون : أنت فيقول : ميروهم وجاء إبراهيم - عليه السلام - يمتار، فقال له : من ربك وإلهك؟ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت فلما سمعها نمرود قال : أنا أحيى وأميت، فعارضه إبراهيم بأمر الشمس، فبهت الذى كفر، وقال : لا تميروه فرجع إبراهيم إلى أهله دون شئ، فمر على كثيب رمل كالدقيق، فقال فى نفسه : لو ملأت غرارتى من هذا، فإذا دخلت فرح به (الصِّبْيَان) حتى أنظر لهما، فذهب بذلك، فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا

يلعبون فوق الغرارتين، ونام هو من الإعياء، فقالت امرأته : لو صنعت له طعاماً يجده حاضراً إذا أتيته، ففتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الحوارى (بضم الحاء وتشديد الواو وفتح الراء : الدقيق الأبيض، وهو لب الدقيق وأجوده وأخلصه) فخبزته فلما قام وضعته بين يديه فقال : من أين هذا؟ فقالت : من الدقيق الذى سقت فعلم إبراهيم أن الله تعالى يسَّر لهم ذلك.

قلت : وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن أبى صالح، قال : انطلق إبراهيم النبى ـ عليه السلام ـ يمتار فلم يقدر على الطعام، فمر بسهلة (رمل خشن) حمراء فأخذ منها، ثم رجع إلى أهله فقالوا : ما هذا؟ فقال : حنطة حمراء، ففتحوها فوجدوها حنطة حمراء. قال : وكان إذا زرع منها شيئاً جاء سنبله من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً.

وقال الربيع وغيره فى هذه القصص : إن النمرود لما قال : أنا أحيي وأميت، أحضر رجلين، فقتل أحدهما وأرسل الآخر، فقال : قد أحييت هذا، وأمت هذا، فلما رد عليه بأمر الشمس بهت. .

وروى فى الخبر : أن الله تعالى قال : وعزتى وجلالى، لا تقوم الساعة حتى آتى بالشمس من المغرب ليعلم أنى أنا القادر على ذلك ثم أمر نمرود بإبراهيم فألقى فى النار وهكذا عادة الجبابرة أنهم إذا عورضوا بشئ وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة، فأنجاه الله من النار.

وقال السدى : إنه لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك ـ ولم يكن قبل ذلك دخل عليه ـ فكلمه وقال له : من ربك؟ فقال : ربى الذى يحيى ويميت. قال النمرود : أنا أحيي وأميت، أنا آخذ

أربعة نفر فأدخلهم بيتاً ولا يطعمون شيئاً ولا يسقون حتى إذا جاءوا أخرجتهم فأطعمت اثنين فحييا، وتركت اثنين فماتا فعارضه إبراهيم بالشمس فبهت).

ومع أن رد النمرود غير سليم ولا معنى له ولا يقنع أى إنسان فقد سلم به سيدنا إبراهيم مجاراة له واستدراجا إلى الأمر الذى بهت له.. يقول القرطبى : وذكر الأصوليون فى هذه الآية أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة لكنه أمر له حقيقة ومجاز، قصد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الحقيقة، وفزع نمرود إلى المجاز وموه على قومه، فسلم له إبراهيم تسليم الجدل، وانتقل معه من المثال، وجاءه بأمر لا مجاز فيه ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ أى : انقطعت حجته ولم يمكنه أن يقول أنا الآتى بها من المشرق ؛ لأن ذوى الألباب يكذبونه.

وابن كثير يقول فى تفسير هذه الآية [1] : ﴿ ألم تر إلى الذى حآج إبراهيم فى ربه ﴾ وهو فى قوة قوله : هل رأيت مثل الذى حاج إبراهيم فى ربه ؟ أى : فى وجود ربه. وذلك أنه أنكر أن يكون إله غيره. كما قال بعده فرعون لملئه : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ وما حمله على هذا الطغيان، والكفر الغليظ، والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته فى الملك، وذلك أنه يقال : إنه مكث أربعمائة سنة فى ملكه، ولهذا قال : ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ وهو ملك بابل نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح... ويقال : نمرود بن فالح بن عابدين بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح والأول قول مجاهد وغيره.. قال مجاهد : وملك الدنيا

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الأول، الجزء الثالث، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران . فالمؤمنان : سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران : نمرود وبختنصر، والله أعلم. وكان (النمرود) طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرب الذى يدعو إليه، فقال إبراهيم : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ أى : إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلابد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له فعند ذلك قال المحاج وهو النمرود : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدى وغير واحد : وذلك أنى آتى بالرجلين قد استحقا القتل، فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة... والظاهر - والله أعلم - أنه ما أراد هذا لأنه ليس جوابا لما قال إبراهيم، ولا فى معناه؛ لأنه مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عنادا أو مكابرة، ويوهم أنه الفاعل على ذلك، وأنه هو الذى يحيى ويميت، ولهذا قال له إبراهيم - لما ادعى هذه المكابرة - : ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ أى : إذا كنت تدعى أنك تحيى وتميت فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود فى خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلها - كما ادعيت - تحيى وتميت فأت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام بهت أى : اخرس فلا يتكلم؛ وقامت عليه الحجة. قال تعالى : ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ أى : لا يلهمهم حجة

ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه. ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه، وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى. ويبين بطلان ما ادعاه نمرود فى الأول والثانى - ولله الحمد والمنة - وقد ذكر السدى أن هذه المناظرات كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا فى ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة..

وروى عبد الرازق عن معمر عن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شئ من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه، وقال: أشغل أهلى عنى إذا قدمت عليهم، فلما وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً، فعملت طعاماً، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه، فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذى جئت به. فعلم أنه رزق رزقهم الله عز وجل.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى،

وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم بابا من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظاما بادية ودخلت واحدة منها في منخرى الملك، فمكثت فى منخرى الملك أربعمائة سنة عذبه الله بها، فكان يضرب برأسه بالمرازب فى هذه المدة، حتى أهلكه الله بها.

ونقل من الطبرى بتصرف فى تفسيره لهذه الآية الكريمة [1]:

﴿ ألم تر إلى الذى حآج إبراهيم فى ربه ﴾ يعنى: ألم تر يا محمد إلى الذى خاصم إبراهيم فى ربه، لأن الله آتاه الملك، أى: هل رأيت مثل هذا؟ وقيل: إن الذى حاج إبراهيم فى ربه جبار كان ببابل، يقال له: نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح.. وقيل: إنه نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح.. وهو أول جبار تجبر فى الأرض، وهو صاحب الصرح ببابل.. قال ابن جريج: وهو نمرود، ويقال إنه أول ملك فى الأرض، حين قال له إبراهيم: ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ يعنى بذلك: ربى الذى بيده الحياة والموت.. يحيى من يشاء، ويميت من أراد بعد الإحياء قال: أنا أفعل ذلك فأحيى وأميت، أستحيى من أردت قتله فلا أقتله، فيكون ذلك منى إحياء له.. وذلك عند العرب يسمى إحياء كما قال تعالى: ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾. وأقتل آخر فيكون ذلك منى إماتة له.. قال إبراهيم - ﷺ -: فإن الله الذى هو ربى يأتى بالشمس من مشرقها، فأت بها - إن كنت صادقًا أنك إله - من مغربها ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ يعنى: انقطع وبطلت حجته.

(١) جامع البيان، المجلد الثالث، الجزء الثالث، ص ١٦-١٩.

وحدث عن قتادة : أنه دعا برجلين، فقتل أحدهما، واستحيا الآخر، فقال : أنا أحيي هذا، أنا أستحيي من شئت وأقتل من شئت قال إبراهيم عند ذلك : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾.

وحدث عن مجاهد، قال : أنا أحيي وأميت ؛ أقتل من شئت وأستحيي من شئت أدعه حيًا فلا أقتله، وقال : ملك الأرض مشرقها ومغربها أربعة نفر : مؤمنان، وكافران، فالمؤمنان : سليمان ابن داود، وذو القرنين والكافران : بختنصر ونمرود بن كنعان لم يملكها غيرهم.

وحدث عن السدى قال : لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك ـ ولم يكن قبل ذلك دخل عليه ـ فكلمه، وقال له : من ربك ؟ قال : ربى الذى يحيي ويميت، قال : نمرود : أنا أحيي وأميت، أنا أدخل أربعة نفر بيتا فلا يطعمون ولا يسقون، حتى إذا هلكوا من الجوع أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا، وتركت اثنين فماتا، فعرف إبراهيم أن له قدرة بسلطانه وملكه على أن يفعل ذلك، قال له إبراهيم : فإن ربى الذى يأتى بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبهت الذى كفر، وقال : إن هذا إنسان مجنون، فأخرجوه؛ ألا ترون أنه من جنونه اجترأ على آلهتكم فكسرها ؟ ! وأن النار لم تأكله ؟ !

وخشى أن يفتضح فى قومه ـ أعنى نمرود ـ وهو قول الله تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ فكان يزعم أنه ربٌ، وأمر بإخراج إبراهيم.

وحدث عن محمد بن إسحاق، قال : ذكر لنا - والله أعلم - أن نمرود قال لإبراهيم فيما يقول : أرأيت إلهك هذا الذى تعبده وتدعو إلى عبادته، تذكر من قدرته التى تعظمه بها على غيره ماهو ؟ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت، قال نمرود : فأنا أحيى وأميت فقال إبراهيم كيف تحيى وتميت ؟ قال : آخذ رجلين قد استوجبا القتل فى حكمى، فأقتل أحدهما، فأكون قد أمته، وأعفو عن الآخر فأتركه، وأكون قد أحييته فقال له إبراهيم عند ذلك : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت عند ذلك نمرود ولم يرجع إليه شيئا، وعرف أنه لا يطيق ذلك والله لايهدى أهل الكفر إلى حجة يدحضون بها حجة أهل الحق عند المحاجة والمخاصمة ؛ لأن أهل الباطل حججهم داحضة، ولا يهديهم الله فى الحجة عند الخصومة لما هم عليه من الضلالة.

وحدث الطبرى عن (زيد بن أسلم)[1] : أن أول جبار كان فى الأرض نمرود : فكان الناس يخرجون فيمتارون من عنده الطعام، فخرج إبراهيم يمتار مع من يمتار، فإذا مر به الناس قال : من ربكم ؟ قالوا : أنت حتى إذا مر إبراهيم قال : من ربك ؟ قال : الذى يحيى ويميت، قال : أنا أحيى وأميت، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذى كفر. قال : فرده بغير طعام، قال : فرجع إبراهيم على أهله، فمر على كثيب من رمل أعفر، فقال : ألا آخذ من هذا فآتى به أهلى فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم ؟ ! فأخذ منه، فأتى أهله، قال : فوضع متاعه ثم

(١) رواية الطبرى هكذا : حدثنا الحسن بن يحيى قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم ... الخ.

نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هى بأجود طعام رأته، فصنعت منه، فقربته إليه، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام، فقال من أين هذا ؟ فقالت : من الطعام الذى جئت به فعلم أن الله رزقه، فحمد الله.. ثم بعث الله إلى الجبار ملكاً : أن آمن بى وأتركك على ملكك، قال : وهل رب غيرى ؟ فجاءه الثانية، فقال له ذلك، فأبى عليه، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه، فقال له الملك : اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام، فجمع الجبار جموعه، فأمر الله الملك ففتح عليه باباً من البعوض، فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها، فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم، فلم يبق إلا العظام، والملك كما هو لم يصبه من ذلك شئ، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه وضرب بها رأسه - وكان جباراً - أربعمائه عام، فعذبه الله أربعمائه سنة كملكه، ثم أماته الله، وهو الذى بنى صرحاً إلى السماء، فأتى الله بنيانه من القواعد، وهو الذى قال الله : (فأتى الله بنيانهم من القواعد).

ويحدث الطبرى برواية أخرى عن (عبد الرحمن بن زيد بن أسلم) قال : هو نمرود، كان بالموصل، والناس يأتونه، فإذا دخلوا عليه قال : من ربكم ؟ فيقولون : أنت، فيقول :ميروهم. حتى عرض إبراهيم مرتين، فقال : من ربك ؟ قال : ربى الذى يحيى ويميت. قال أنا أحيى وأميت، إن شئت قتلتك وإن شئت استحييتك. قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين قال : أخرجوا هذا عنى، فلا تميروه شيئاً. فخرج القوم كلهم قد امتاروا.

وجوالقا إبراهيم يصطفقان، حتى إذا نظر إلى سواد جبال أهله قال: ليحزنني صبيتي: إسماعيل وإسحاق!! لو أني ملأت هذين الجوالقين من هذه البطحاء فذهبت بهما قرت عينا صبيتي، حتى إذا كان الليل أهرقته قال: فملأهما ثم خاطهما ثم جاء بهما فترامى عليهما الصبيان فرحاً، وألقى رأسه في حجر سارة ساعة، ثم قالت: ما يجلسني؟! قد جاء إبراهيم تعباً لغباً، لو قمت فصنعت طعاماً إلى أن يقوم قال: فأخذت وسادة فأدخلتها مكانها، وانسلت قليلاً لئلا توقظه قال: فجاءت إلى إحدى الغرارتين ففتقتها، فإذا حوارى من النقى لم يروا مثله عند أحد قط، فأخذت منه فطحنته وعجنته، فلما أتت توقظ إبراهيم جاءته حتى وضعته بين يديه، فقال: أى شئ هذا يا سارة؟ قالت: من جوالقك، لقد جئت وما عندنا قليل ولا كثير، قال: فذهب ينظر إلى الجوالق الآخر فإذا هو مثله، فعرف من أين ذاك..)

ومن الفتوحات الإلهية فى تفسير هذه الآية [1]: ﴿ألم تر﴾: اعجب يا محمد من هذه القصة أو: لم ينته علمك إلى هذا الطاغوت كيف تصدى لإضلال الناس وإخراجهم من النور إلى الظلمات؟ ﴿إلى الذى حاج﴾ جادل إبراهيم فى ربه ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أى: حمله بطره بنعمة الله على ذلك، على عكس العادة؛ إذ كان مقتضاه أن إيتاء الله الملك يتسبب عنه الشكر والانقياد، ولكنه قد وضع المجادلة - التى هى أقبح أنواع الكفر - موضع ما يجب عليه من الشكر.. وهو نمرود بن كنعان وكان ابن زنا، وهو أول

(1) الفتوحات الإلهية، المجلد الأول، ص ٢١٠، ٢١١.

من وضع التاج على رأسه، وتجبر في الأرض، وادعى الربوبيه، وملك الأرض كلها وجملة من ملكها كلها أربعة، اثنان مؤمنان، واثنان كافران، فالمؤمنان : سليمان، وذو القرنين والكافران : نمرود، وبختنصر ... ﴿ إذ قال إبراهيم ﴾ - لما قال له : من ربك الذى تدعونا إليه؟ - : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ أى : يخلق الحياة والموت فى الأجساد (قال) هو : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ بالقتل والعفو عنه، ودعا برجلين، فقتل أحدهما، وترك الآخر فلما رآه غبياً ؛ حيث لم يفهم معنى الكلام؛ لأن معنى (يحيى ويميت) يخلق الحياة والموت، وما أجاب به اللعين ليس فيه خلق لهما (قال إبراهيم) منتقلاً إلى حجة أوضح منها، أى : لما تمكن اللعين فى المثال الأول من التمويه والتلبيس على العوام، أتى له بمثال لا يمكنه فيه ذلك .. وعبارة الشهاب : لما كان العفو عن القتل ليس بإحياء، وكونه كذلك غنى عن البيان أعرض إبراهيم عن إبطاله، وأتى بدليل آخر هو أظهر من الشمس، فلا يرد على من جعلهما دليلين أن الانتقال من دليل - قبل تمامه، ودفع معارضة الخصم - إلى دليل آخر غير لائق بالجدل، حتى يحتاج أن يقال : إنه ليس بدليل، بل مثال، والانتقال من مثال إلى آخر لزيادة الإيضاح لا ضير فيه ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ والمعنى : إذا ادعيت الإحياء والإماتة ولم تفهم فالحجة أن الله يأتى هذا ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ أى: تحير ودهش ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ بالكفر إلى محجة الاحتجاج، أى: إلى طريق ومنهج وسبيل الاستدلال، أى لا يرشدهم إلى حجة يدحضون بها حجة أهل الحق عند المحاجاة والمخاصمة.

وصفوة التفاسير لم يأت بجديد يمكن أن نضيفه إلى تفسير هذه الآية الكريمة، ولكنه مثل الفتوحات الإلهية لم يذكر قصة الميرة، ولا قصة البعوض في هذا الموضع..

أما ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء» (١) فقد أضاف إلى تفسيره لمحات جديدة مفيدة، ولهذا فقد رأيت أن أنقل عنه ما ذكره في موضوع هذه المحاجة، كما يلي:

(ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الجليل في إزار العظمة ورداء الكبرياء، فادعى الربوبية، وهو أحد العبيد الضعفاء)

قال الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين﴾.

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد، الذى ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه دليله، وبين كثرة جهله وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قاله مجاهد وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه ملك الدنيا - فيما ذكروا - أربعة: مؤمنان، وكافران. فالمؤمنان: ذو القرنين،

---

(١) قصص الأنبياء، ص ١٢٨، ١٢٩.

وسليمان، والكافران: النمرود وبختنصر. وذكروا أن نمرود هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة، وكان طغى وبغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا.

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل: ﴿ ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ﴾.

قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق: يعنى أنه إذا أوتى بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر، وهذا ليس بمعارضة الخليل بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة بل تشغيب محض، وهو انقطاع فى الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع - بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها - على وجود فاعل ذلك الذى لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة، ثم إماتتها ولهذا قال إبراهيم: ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ فقول هذا الملك الجاهل: ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل، إذ لم يمنع مقدمة، ولا عارض الدليل ولما كان انقطاع معارضة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلا آخر بيَّن وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة.

قال : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ أي : هذه الشمس مسخرة، كل يوم تطلع من المشرق، كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الذى لا إله إلا هو خالق كل شئ فإن كنت - كما زعمت من أنك الذى تحيى وتميت - فأت بهذه الشمس من المغرب، فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شئ ودان له كل شئ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا فإن لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم - وكل أحد - أنك لا تقدر على شئ من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضه أو تنتصر منها، فَبَيَّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل انقطع وسكت، ولهذا قال : ﴿ فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وقد ذكر السدى : أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم أن خرج من النار، ولم يكن اجتمع به يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وقد روى عبد الرزاق عن محمد عن زيد بن أسلم : أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى للناس، بل خرج وليس معه شئ من الطعام فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال : أشغل أهلى إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين، فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا، فعملت منه طعاما، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه، فقال : أنى لكم هذا ؟

قالت : من الذى جئت به فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل قال زيد بن أسلم : وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكًا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعا الثانية فأبى عليه، ثم دعا الثالثة فأبى عليه، وقال : اجمع جموعك، وأجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذبابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظاما بادية، ودخلت واحدة منهم فى منخر الملك فمكثت فى منخره أربعمائة سنة، عذبه الله تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله عز وجل بها.

من هذا العرض لتفسير آية المحاجة نجد أمامنا ثلاثة أقوال فى توقيت ونتيجة هذه المحاجة :

(الأول) : أنها كانت بعد تكسير إبراهيم للأصنام، وقبل إلقائه فى النار، فاستدعاه النمرود ليتعرف منه على إلهه، فكانت بينهما هذه المحاجة وأن عجز النمرود وافتضاح جهله فيها - بالإضافة إلى تكسير إبراهيم للأصنام - كانتا السبب فى محاولة إحراقه وإلقائه فى النار.

(الثانى) أنها كانت بعد تكسير إبراهيم للأصنام، ومحاكمته على ذلك، وقرار النمرود ومن معه إحراق سيدنا إبراهيم، وبعد خروج إبراهيم سالما من النار فاستدعاه النمرود؛ ليتعرف عليه وليعلم منه: كيف نجا من النار، فكانت بينهما هذه المحاجة، ولما ظهر جهله، ودحضت حجته وبهته منطق إبراهيم لم يشأ أن يتخلص منه، ولكنه

أبقى عليه، ورصد عيونه وجواسيسه للتضييق عليه، وليحول بينه وبين دعوته للناس، مما اضطر إبراهيم إلى أن يهاجر إلى الأرض المباركة.

(الثالث) أنها كانت بعد تكسير إبراهيم للأصنام، وبعد خروجه سالما من النار، ولكن إبراهيم هو الذى ذهب إلى النمرود يطلب الميرة مع الناس ـ كما هى عادة القوم فى طلب الطعام من النمرود ـ حيث كان يحتكر بيع الطعام وأن النمرود غضب على إبراهيم ولم يعطه شيئا من الطعام وأمر بإخراجه.

كذلك فقد تضمنت هذه التفسيرات لقصة هذه المحاجة ثلاثة أمور تحتاج إلى تأمل ومناقشة لاستجلاء الغموض فيها، والغرابة فى بعض تفاصيلها.

(الأمر الأول) : هلاك النمرود وقومه بالبعوض

وقد ذكرنا ـ في مواضعه السابقة ـ رفضنا لأن تدخل بعوضة في دماغ النمرود وتظل حية أربعمائة عام تنهش فيه ، وتثير عذابه ، وتشعل آلامه ، وأنه بسبب هذا العذاب والألم الرهيب الذي تحدثه البعوضة في دماغ النمرود فإن أرحم الناس به ظلوا يضربون دماغه بمطرقة عتيدة طوال أربعمائة عام ، حتى أهلكه الله بها فأي دماغ إنسان تتحمل الضرب بمطرقة عتيدة دون أن تتفتت من أول ضربة ؟! وأنه ربما بسبب هذه المبالغة غير المقبولة فإن رواية للقرطبي ذكرت أن (مدة التعذيب بالبعوضة للنمرود كانت أربعين يوما) .
ورواية للطبري تذكر أن (أرحم الناس بالنمرود من جمع يديه وضرب بها رأسه) ومثل هذا جاء في كتاب (التبصرة) للإمام الجوزي ، المجلد الأول ، ص ١١١ . يقول : (قال زيد بن أسلم : بعث الله تعالى إلى نمرود ملكـا فقال له : آمن بي وأتركك على ملكك فقال : وهل رب غيري ؟ فأتاه ثانيا وثالثا ، فأبى ، ففتح عليه بابا من البعوض فأكلت لحوم قومه ، وشربت دماءهم ، وبعث الله عز وجل عليه بعوضة فدخلت في منخره ـ أنفه ـ فمكث أربعمائة عام يضرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من يجمع يديه ثم يضرب بهما رأسه ، فعذب بذلك إلى أن مات) وقال مقاتل : (عذب بالبعوضة أربعين يوما ثم مات) .

ونضيف إلى هذا أننا نسلم بهذين الأمرين تسليماً كاملاً إذا كان

فيهما حديث نبوى صحيح، أو نزل فيها قرآن كريم، فلا شئ يعجز الله القادر الخالق - سبحانه وتعالى - والله قادر على أن يفعل هذا إذا أراد، وهو وحده القادر على كل شئ، وإذا قال للشئ: (كن فيكون).

ولكننا لم نجد حديثا نبويًا صحيحًا في هذين الأمرين عن رسول الله - ﷺ - فالقرطبى ذكر هذه القصة فى تفسيره لآية الأنبياء، هكذا قال ابن عباس وفى الهامش نبه محقق الكتاب إلى أن: ابن عباس يكذب عليه بعض الرواة وعند تفسيره لآية البقرة ذكر القصة هكذا: (هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والربيع، والسدى، وابن إسحاق، وزيد بن أسلم، وابن جريج، وابن عطية، والسهيلى، وغيرهم).

وابن كثير فى تفسيره لآية البقرة، وفى كتابه (قصص الأنبياء) ذكر هذه القصة هكذا: (روى عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد ابن أسلم) والطبرى ذكر هذه القصة عند تفسيره لآية البقرة هكذا: (حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم) أما الفتوحات الإلهية فقد ذكرت هذه القصة فى تفسير آية الأنبياء دون ذكر لمن قالها.

وهكذا وردت هذه القصة في أقوال هؤلاء المفسرين والمؤرخين دون إسناد أو رفع إلى رسول الله - ﷺ - ولم يأت فى القرآن الكريم تفصيل هذا العذاب بالبعوضة للنمرود، ولم يأت فى القرآن الكريم سوى إشارة مجملة فى قوله تعالى فى ختام آية المحاجة فى سورة

البقرة : ﴿ ... والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وفى قوله تعالى فى ختام آيات المحاكمة فى سورة الأنبياء : ﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ وفى قوله تعالى فى ختام آيات الصافات : ﴿ ... فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ ومن هنا كان توقفنا أمام تصديق هذين الأمرين ، والتسليم بحدوثها ، وكان اعتراضنا على حدوثهما بهذه الصورة المبالغ فيها . والله أعلم .

(الأمر الثانى) رفض النمرود أن يمير إبراهيم

وقد قيل فى سبب هذا الرفض :

١ ـ إنه نتيجة لهزيمة النمرود وإظهار جهله أمام قومه من حجة إبراهيم، وحنق النمرود وغيظه، وإبطال كيده بإحراق إبراهيم، وقضاء الله عليه بأن يكون من الأسفلين ومن الأخسرين فلم يعطه من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شئ من الطعام.

٢ ـ إن إبراهيم رفض أن يسجد للملك النمرود، كما يسجد له الناس، فقال النمرود : لا تميروه فرجع إبراهيم إلى أهله دون شئ.

٣ ـ إن ذلك لأن إبراهيم كسر الأصنام، فأهان آلهتهم، وسفه أحلامهم، وإن كان ذلك الرفض ـ كما ذكرنا ـ ليس مناسباً ولا مماثلا لما فعله إبراهيم بالأصنام، وأن محاولة الإحراق كانت العقاب الذى اختاروه كما هى إشارة القرآن الكريم.

وقد قيل أيضا إن إبراهيم لما خرج من عند الملك دون أن يميره.

أ ـ عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه (عدليه) وقال : أشغل أهلى عنى إذا قدمت عليهم.

ب ـ أو مرَّ على كثيب رمل كالدقيق، فقال فى نفسه : لو ملأت (غرارتى) من هذا، فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر إليهما فذهب بذلك.

جـ ـ أو مرَّ بسهلة حمراء فأخذ منها، ثم رجع إلى أهله.

د ـ أو أن القوم كلهم قد امتاروا و(جوالقا) إبراهيم يصطفقان لخلوهما من الطعام حتى إذا نظر إلى سواد جبال أهله قال : ليحزنني صبيتي : إسماعيل وإسحاق .. لو أني ملأت هذين الجوالقين من هذه البطحاء فذهبت بهما قرت عين صبيتي، حتى إذا جاء الليل أهرقته، فملأهما ثم خاطهما، ثم جاء بهما، فترامى عليهما الصبيان، وألقى رأسه في حجر (سارة) ساعة.

والله القادر على كل شيء بدّل التراب في العدلين إلى طعام طيب، فعملت منه امرأته سارة طعاماً أو بدّل الرمل في الغرارتين إلى أحسن ما يكون من الحوارى فخبزته أو بدّل السهلة الحمراء إلى حنطة حمراء إذا زرع منها شيئاً جاء سنبله من أصلها إلى فرعها حبا متراكباً أو بدّل تربة البطحاء إلى (حوارى) من النقى لم يروا مثله عند أحد قط.

ولكن ما نسبته هذه الروايات الأربع لسيدنا إبراهيم بحمل التراب أو الرمل إلى أهله لا يخرج عن أن يكون خديعة من خليل الرحمن لأهله والصبيين لا تليق بمقام سيدنا إبراهيم نبي الله، ولن يعجز إبراهيم عن الحصول على الطعام بطريق معقول، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لإبراهيم وأهله والصبيين أحلى طعام لرزقه به وساقه إليه، ومن حيث لا يحتسب إبراهيم، وفي صورة كريمة تليق بقدرة الله، وبمقام النبوة، أو أنبت الحب في تربة الرمل أو السهلة أو البطحاء في اللحظة التي نظر فيها إبراهيم إلى الكثيب أو إلى السهلة أو إلى البطحاء، فيأخذ منه إبراهيم حاجته بدلاً من أن يأخذ من الرمل أو التراب أو غير ذلك مما لا نتصوره، ومما لا يخطر على بال بشر من عظيم قدرة الله.

ولكل هذا فإننا نعتقد أن هذه الخديعة لم تحدث من سيدنا إبراهيم، مادام لم يحدث بها حديث صحيح عن رسول الله - ﷺ - ولم ينزل فيها قرآن كريم؛ ولهذا فإن القصة التي جاءت في كتاب (التبصرة) للإمام الجوزي، المجلد الأول، ص ١٠٩ أقرب إلى المعقول من تلك القصة التي ذكرها المفسرون، يقول: ثم إن الله تعالى اتخذه - يعني سيدنا إبراهيم عليه السلام - خليلاً وفي سبب ذلك ثلاثة أقوال، أحدها: لإطعامه الطعام، وكان لا يأكل إلا مع ضيف؛ روى عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي - ﷺ - أنه قال: يا جبريل، لم اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ قال: لإطعامه الطعام.

والثاني: أن الناس أصابتهم سنة (الشدة والجدب) فأقبلوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكان له (ميرة) - جلب الطعام - من صديق له بمصر في كل سنة، فبعث غلمانه بالإبل إلى صديقه فلم يعطهم شيئاً فقالوا: لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بميرة؟ فملأوا الغرائر رملاً، ثم أتوا إلى إبراهيم فأعلموه، فاهتم لأجل الخلق فقام، وجاءت سارة - وهي لا تعلم ما كان - ففتحت الغرائر فإذا دقيق حواري - الدقيق الأبيض وهو لب الدقيق - فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس، فاستيقظ إبراهيم فقال: من أين هذا الطعام؟ فقالت: من عند خليلك المصري فقال: لا بل من عند خليلي (الله) فحينئذ اتخذه الله خليلاً) رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: اتخذه الله خليلاً لكسره الأصنام وجداله قومه، قاله مقاتل.

وللراوية سلسلة طويلة من الرواة توقفت عند ابن عباس دون أن ترفع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جانب أنها برأت سيدنا إبراهيم من محاولة الخداع والتمويه.

وكذلك فقد وردت هذه القصة في هذه التفاسير بذات الطريقة التى رويت بها قصة البعوض، مجرد أقوال أو روايات دون إسناد أو رفع إلى سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ.

غير أن أكثر مشاهد هذه القصة غرابة ما رواه القرطبى، والطبرى، وابن كثير : عن وجود الصبيين اللذين أوضح الطبرى أنهما إسماعيل وإسحاق ـ يوم الميرة فى منزله ينتظران عودته من عند النمرود بالطعام ـ ومنشأ العجب والغرابة هنا أن قصة الميرة هذه ـ كما سجلتها كتب التفسير والتاريخ ـ كانت بعد نجاة إبراهيم من النار مباشرة، وفى بعض الروايات أنها كانت فى نفس اليوم الذى خرج فيه من النار، ولم يكن سيدنا إبراهيم قد تزوج فى هذا الوقت، لا من السيدة سارة ولا من السيدة هاجر، وبالتالى لم يكن سيدنا إبراهيم قد أنجب فى هذا الوقت : إسماعيل من هاجر، ولا إسحاق من سارة، بل إن أول أبنائه وبكره (إسماعيل) لم ينجبه من هاجر إلا بعد محاولة إحراقه بإلقائه فى النار ونجاته منها، وهجرته إلى الأرض المباركة، ورحلته فترة طويلة إلى مصر، وعودته من مصر ومعه هاجر، ثم دخل بها وأنجب إسماعيل أما سارة فقد كانت عقيماً لم تلد حتى وقت ميلاد هاجر لإسماعيل، ثم منّ الله عليها فولدت إسحاق بعد ميلاد إسماعيل بأربع عشرة سنة ـ كما سيأتى توضيح كل ذلك ـ فكيف أقحم اسم إسماعيل واسم إسحاق فى قصة الميرة هذه دون أن يلاحظ القرطبى وابن كثير والطبرى

هذا التزييف والتلفيق ولم ينتبهوا إليه ؟! مما يجعلنا نشك فى صحة هذه الرواية، وفى روايات قصة الميرة كلها فإذا استبعدنا وجودهما على ظهر الأرض فى ذلك الوقت الذى حدثت فيه قصة الميرة هذه فإن التزييف فيها والتلفيق لكثير من مشاهدها يكون ثابتا لا شك فيه، وربما ـ من أجل هذا ـ كانت رواية القرطبى عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن أبى صالح التى مرت بنا أقرب إلى المعقول والله أعلم.

(الأمر الثالث) : زواج إبراهيم من سارة

ظاهر ألفاظ روايات قصة الميرة هذه يوضح أن إبراهيم تزوج سارة قبل إلقائه فى النار وكلمة الصبيين أو صبيتى التى أقحمت ودست فى هذه الروايات، وفسرتها رواية الطبرى بأنهما : إسماعيل وإسحاق وكلمة (أهله) فى رواية، و (امرأته) فى رواية ثانية و (زوجه سارة) فى رواية ثالثة تؤكد أن إبراهيم تزوج سارة قبل إلقائه فى النار بوقت حملت فيه سارة بإسحاق، ثم ولدته، فكان صبياً يوم المحاجة والميرة.

كما تفيد أن إبراهيم تزوج أيضاً هاجر فى نفس الوقت الذى تزوج فيه سارة، وأن إسماعيل ابنها كان مثل إسحاق - صبياً - فى يوم المحاجة والميرة وإذا كنا قد استبعدنا هذا كله بما ثبت فى كتب التفسير والتاريخ، وكما سوف يتضح فيما يأتى فإننا نرجئ الحديث عن زواج سيدنا إبراهيم من هاجر إلى موضعه القادم، ونناقش هنا ما جاء فى تلك الروايات عن زواجه سارة ذلك أن روايات قصة الميرة - التى سقناها - تذكر أن (أهل إبراهيم .. أو امرأته .. أو زوجه سارة) كانت تنتظر عودته من عند الملك نمرود بالميرة، وهذا يعنى : أن إبراهيم - عليه السلام - تزوج سارة فى بابل بالعراق قبل أن يهاجر إلى الأرض المباركة وهذه الروايات تترك احتمال أن يكون إبراهيم قد تزوج سارة قبل إلقائه فى النار، أو تزوجها بعد خروجه من النار سالما، ونحن نستبعد الاحتمال الأول؛ لأن سارة

تزوجت سيدنا إبراهيم بعد أن آمنت به، بينما لم يكن على وجه الأرض - حين ألقى إبراهيم فى النار أى إنسان مؤمن بالله ويعبده سبحانه فى الأرض غير إبراهيم، كما جاء على لسان سيدنا إبراهيم حين ألقوه فى النار : (اللهم أنت الواحد فى السماء، وأنا الواحد فى الأرض، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى، حسبى الله ونعم الوكيل) - وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ولأنه لو كان سيدنا إبراهيم قد تزوج سارة قبل إلقائه فى النار لكان لها حديث وموقف وحضور كما كان لأمه وأبيه وهو ملقى فى النار، ولم تسجل الروايات شيئاً من هذا لسارة.

ويتبقى الاحتمال الثانى : وهو أن إبراهيم تزوج سارة بعد خروجه من النار، وقبل أن يهاجر إلى الأرض المباركة، وهذا الاحتمال - على فرض حدوثه - يمنع وجود صبيين لإبراهيم يوم الميرة ويقطع باستحالة وجود ولديه إسماعيل وإسحاق فى هذا اليوم، مما يثبت التلفيق والدس والتزييف.

وإذا كانت بعض الروايات قد ذكرت أن طلب الميرة، والمحاجة التى حدثت فيها كانت يوم خروج إبراهيم من النار - كما مر بنا - وأن سارة كانت زوجته فى ذلك الوقت فإنه يكون قد اجتمع لإبراهيم سبعة أحداث فى يوم واحد :

الأول : خروجه من النار سالماً بعد أن نجاه الله منها.

الثانى : زواجه من سارة عقب خروجه من النار.

الثالث : ذهابه إلى النمرود من تلقاء نفسه للميرة أو ذهابه إليه بعد أن استدعاه.

الرابع : مناظرته للنمرود.

الخامس : طلبه الميرة من النمرود ورفض النمرود أن يميره كما يمير الناس.

السادس : عودته إلى أهله بدون طعام وقيامه بخديعة أهله ـ بفرض حدوث هذه الخديعة ـ بملء الغرارتين أو العدلين أو الجوالقين ترابا أو رملا أو تربة حمراء؛ ليوهمهم بأنه طعام.

السابع : تدخل القدرة الإلهية ـ على فرض حدوث ذلك ـ بتحويل الرمل أو التراب أو السهلة الحمراء إلى أفخر أنواع الدقيق، صنعت منه زوجته سارة ـ على فرض أنه كان قد تزوجها ـ أطيب الطعام.

ووقوع هذه الأحداث فى يوم واحد عجيبة غريبة من الأعاجيب والغرائب، يصعب حدوثها أو تصديقها.

ولهذا فإننا نرجح أن تكون قصة الميرة هذه دخلها التزييف والتلفيق ،حيث دست فيها الإشارة إلى زواج إبراهيم من سارة، ودس فيها مشهد الخديعة التى نسبوها إلى سيدنا إبراهيم كما دست فيها كلمة (الصبيين أو صبيتى) التى فسرها الطبرى ـ من كلام سيدنا إبراهيم ـ بأنهما إسماعيل وإسحاق.

ويبقى السؤال فى موضوع زواج إبراهيم من سارة، هل كان فى (بابل) بالعراق بعد يوم خروجه من النار؟ وكانت سارة ابنة عمه (هاران)؟ أم كان فى (حران) التى هاجر إليها فى الأرض المباركة وكانت سارة ابنة ملك حران ؟ وإن كنا نميل إلى ترجيح الرأى الأخير كما سنوضحه فى موضوع هجرة إبراهيم ورحلاته ـ فيما يلى ـ والله أعلم.

هجرة إبراهيم إلى الأرض المباركة
وزواجه من سارة

ما حدث بين سيدنا إبراهيم والنمرود ، وما حدث من كيد النمرود لإبراهيم بمحاولة إحراقه وإلقائه في النار ، ودعوة إبراهيم لأبيه وقومه لعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، وعدم استجابة أحد إليه إلا قليلا وامتناع النمرود عن أن يميره كما يمير الناس ، مع الترصد لكل خطواته ، والحيلولة بينه وبين قيامه بدعوته ، كل ذلك دفع إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى أن يترك هذا البلد ، ويهاجر إلى مكان آخر يتمكن فيه من الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، فكان قراره بالهجرة الأولى إلى الأرض المباركة ، وكان معه «لوط» الذى آمن به ، ويروى أنه كان معه أيضا أبوه كما يروى أنه اصطحب معه زوجته سارة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الهجرة فى ثلاثة مواضع :

الأول : فى قوله تعالى : من سورة الأنبياء (الآية ٧١) : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ .

الثانى : فى قوله تعالى من سورة العنكبوت (الآية ٢٦) : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ﴾ .

الثالث : فى قوله تعالى من سورة الصافات (الآية ٩٩) : ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ .

يقول القرطبى فى تفسير آية الأنبياء [1] : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ يريد : نجينا إبراهيم ولوطا إلى أرض الشام، وكانوا بالعراق، وكان إبراهيم - عليه السلام - عمه (أى عم لوط) قاله ابن عباس، وقيل : مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها، ولأنها معادن الأنبياء، والبركة ثبوت الخير، وقال ابن عباس : الأرض المباركة : مكة، وقيل : بيت المقدس، لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء، وهى أيضاً كثيرة الخصب والنمو، عذبة الماء، ومنها يتفرق فى الأرض، قال أبو العالية : ليس ماء عذب إلا يهبط من السماء إلى الصخرة التى فى بيت المقدس، ثم يتفرق إلى الأرض، ونحوه عن كعب الأحبار وقيل : الأرض المباركة مصر.

ويقول القرطبى فى تفسير آية العنكبوت [2] : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ﴾.

قوله : ﴿ فآمن له لوط ﴾ لوط : أول من صدق إبراهيم حين رأى النار عليه برداً وسلاماً، قال ابن إسحاق : آمن لوط بإبراهيم، وكان ابن أخته، وآمنت به سارة، وكانت بنت عمه ﴿ وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾ قال النخعى وقتادة : الذى قال : ﴿ إنى مهاجر إلى ربى ﴾ هو إبراهيم - عليه السلام - قال قتادة : هاجر من (كوثا) وهى قرية من سواد الكوفة إلى (حران) ثم إلى (الشام) ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ.

(١) الجامع لأحكام القرآن، المجلد السادس، الجزء الحادى عشر، ص ٣٠٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، المجلد السابع، الجزء الثالث عشر، ص ٣٣٩، ٣٤٠.

وامرأته سارة، قال الكلبي : هاجر من أرض (حران) إلى (فلسطين) وهو أول من هاجر من أرض الكفر، قال مقاتل : هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة.

وقد مر بنا للقرطبي وابن كثير والفتوحات الإلهية : أن سيدنا إبراهيم ألقى في النار وهو ابن ست عشرة سنة، وقيل : ست وعشرون سنة، كما مر بنا أيضاً أنه مكث في النار سبعة أيام، وقيل : أربعون، وقيل : خمسون، ومعنى هذا : أن سيدنا إبراهيم مكث في بابل بالعراق بعد خروجه من النار إما تسعاً وخمسين، أو تسعاً وأربعين سنة، يدعو إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، ثم لما لم يجد من يستجيب له سوى ابن أخيه لوط وابنة عمه سارة هاجر معهما إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، وكان قد بلغ من العمر خمساً وسبعين سنة، وهذه ملاحظة سوف نستأنس بها في موضوع زواجه من سارة، ودخوله بهاجر وإنجابه إسماعيل وإسحاق كما سيأتي.

ويتابع القرطبي تفسيره فيقول : وقيل الذى قال ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ لوط عليه السلام (إلى ربي) أي : إلى رضا ربي، وإلى حيث أمرني.

ولم يرجح القرطبي أيهما - إبراهيم أو لوط - هو الذى قال ذلك ربما لأنه من الواضح الجلي أن الذى قال ذلك هو سيدنا إبراهيم - كما هو صريح ألفاظ القرآن الكريم في آيتي الأنبياء والصافات - كذلك لم ينتبه القرطبي إلى الاختلاف بين قوله عند تفسيره لآية الأنبياء ﴿ ونجيناه ولوطا ﴾ وقوله عند تفسيره لآية العنكبوت

﴿ فآمن له لوط ﴾ فقد قال فى الأولى : (وكان إبراهيم عليه السلام عمه) وقال فى الثانية : (آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته) .

ويقول القرطبى فى تفسير آية الصافات [1] : ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ وذلك حين خلصه الله من النار ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى ﴾ أى : مهاجر من بلد قومى ومولدى إلى حيث أتمكن من عبادة ربى، فإنه ﴿ سيهدين ﴾ فيما نويت إلى الصواب، قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق ـ مع لوط وسارة ـ إلى الأرض المقدسة، وهى أرض الشام وقيل : خرج إلى (حران) فأقام بها مدة، ثم قيل : قال ذلك لمن فارقه من قومه، فيكون ذلك توبيخاً لهم، وقيل : قاله لمن هاجر معه من أهله، فيكون ذلك منه ترغيباً، وقيل : قال هذا قبل إلقائه فى النار، وفيه على هذا القول تأويلان، أحدهما : إنى ذاهب إلى ما قضاه علىَّ ربى .. الثانى : إنى ميت ـ كما يقال لمن مات : قد ذهب إلى الله تعالى ـ لأنه عليه السلام تصور أنه يموت بإلقائه فى النار على المعهود من حالها فى تلف ما يلقى فيها وفى قوله ﴿ سيهدين ﴾ على هذا القول تأويلان، أحدهما : سيهدين إلى الخلاص منها، والثانى : إلى الجنة.

وابن كثير يقول فى تفسير آية الأنبياء [2] : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، المجلد السابع، الجزء الثالث عشر، ص ٣٣٩، ٣٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، الجزء السابع عشر، ص ١٧٧.

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم : أنه سلّمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، قال الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب فى قوله : (إلى الأرض المقدسة التى باركنا فيها للعالمين) .

قال : الشام وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة، وقال قتادة : كان بأرض العراق، فأنجاه الله إلى الشام، وكان يقال للشام : أعقار دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد فى الشام، وما نقص من الشام، زيد فى فلسطين وكان يقال : هى أرض الحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وبها يهلك المسيح الدجال وقال كعب الأحبار : إلى (حران) وقال السدى : انطلق إبراهيم ولوط قِبَل الشام، فلقى إبراهيم سارة، وهى ابنة ملك (حران) وقد طعنت على قومها فى دينهم، فتزوجها على أن (يفر بها) !! رواه ابن جرير وهو غريب، والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجرا من بلاده وقال العوفى عن ابن عباس : إلى مكة، ألا تسمع إلى قوله : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا ﴾ .

ويقول فى تفسير آية العنكبوت[1] : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾ يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم : أنه آمن له لوط يقال : إنه ابن أخى إبراهيم، يقولون : هو لوط بن هاران بن آزر يعنى : ولم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل، لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد فى الصحيح : أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار (يقصد ملك مصر

---

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، الجزء العشرون، ص ٣٨٧ .

حين رحل إبراهيم ومعه سارة، وابن أخيه لوط إليها من الشام كما سيأتى) فسأل إبراهيم عن سارة ما هى منه ؟ فقال : أختى، ثم جاء إليها، فقال لها : إنى قد قلت له : إنك أختى، فلا تكذبينى، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك فأنت أختى فى الدين (وسوف يأتى تفصيل الكلام عن هذه الحادثة) وكأن المراد من هذا ـ والله أعلم ـ : أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيرى وغيرك، فإن لوطاً ـ عليه السلام ـ آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أُرسل فى حياة الخليل إلى أهل سدوم وأقام بها.

ويقول فى تفسير آية الصافات[1] : ﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ : إنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين.

أما الطبرى فيقول[2] : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ يقول تعالى ذكره : ونجينا إبراهيم ولوطاً من أعدائهما : نمرود وقومه، من أرض العراق إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين، وهى أرض الشام، فارق ـ صلوات الله عليه ـ قومه ودينهم وهاجر إلى الشام، وقد اختلف أهل التأويل فى الأرض التى ذكر الله أنه نجى إبراهيم ولوطاً إليها، ووصفه أنه بارك فيها للعالمين وحدّث عن أُبى بن كعب، قال : الشام، وما من ماء عذب إلا خرج

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، الجزء العشرون، ص ١٥.
(٢) جامع البيان، المجلد التاسع، الجزء السابع عشر، ص ٣٥، ٣٦.

من تلك الصخرة التى ببيت المقدس، وحدّث عن قتادة قوله : كانا بأرض العراق، فأنجيا إلى أرض الشام، وكان يقال للشام : عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد فى الشام، وما نقص فى الشام زيد فى فلسطين، وكان يقال : هى أرض المحشر والمنشر، وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال، ورواية ثانية عن قتادة قال : هاجرا جميعًا من (كوثى) إلى الشام، وعن السدى قال : انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقى إبراهيم (سارة) وهى بنت ملك حران، وقد طعنت على قومها فى دينهم، فتزوجها على ألا يغيرها (م فى تفسير ابن كثير فتزوجها على أن يفر بها) وعن ابن إسحاق قال : خرج إبراهيم مهاجرًا إلى ربه، وخرج معه لوط مهاجرًا، وتزوج سارة ابنة عمه، فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه، والأمان على عبادة ربه، حتى نزل (حران) فمكث فيها ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج منها مهاجرًا حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام فنزل (السبع) من أرض فلسطين، وهى برية الشام، ونزل لوطا بالمؤتفكة، وهى من السبع على مسيرة يوم وليلة، أو أقرب من ذلك، فبعثه الله نبيًا (يعنى لوطا) صلى الله عليه وسلم وعن أبى العالية أنه قال فى هذه الآية : ﴿ باركنا فيها للعالمين ﴾ قال : ليس ماء عذب إلا يهبط إلى الصخرة التى ببيت المقدس، قال : ثم يفترق فى الأرض. وقال آخرون : بل يعنى مكة، وهى الأرض التى قال الله تعالى : ﴿ التى باركنا فيها للعالمين ﴾ وعن ابن عباس قال : ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين، يعنى مكة ونزول إسماعيل البيت، ألا ترى أنه يقول : ﴿ إن أول بيت وضع للناس

للذى ببكة مباركًا وهدى للعالمين﴾ قال أبو جعفر : لا خلاف بين أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة وبنى بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يقم بها، ولم يتخذها وطنًا لنفسه، ولا لوط والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين.

ويقول فى تفسير قوله تعالى [1] : ﴿فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم﴾ يقول تعالى ذكره : فصدّق إبراهيم خليل الله لوط، وقال : إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم، وقال إبراهيم : إنى مهاجر دار قومى إلى ربى إلى الشام، وحدّث عن قتادة قال : هاجرا جميعًا من (كوثى) وهى من سواد الكوفة إلى الشام، وعن ابن جريج قال : إلى (حران) ثم أمر بعدُ بالشام، وحدّث عن الحسين قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : ﴿فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم﴾ إبراهيم القائل : إنى مهاجر إلى ربى وقوله : إنه هو العزيز الحكيم يقول : إن ربى هو العزيز الذى لا يذل من نصره، ولكنه يمنعه ممن أراده بسوء، وإليه هجرته (الحكيم) فى تدبيره خلقه، وتصريفه إياهم فيما صرفهم فيه.

ويقول فى تفسير قوله تعالى [2] : ﴿وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين﴾ يقول : وقال إبراهيم ـ لما أفلجه الله على قومه، ونجاه من

---

(١) جامع البيان، المجلد العاشر، الجزء العشرون، ص ٩٢.

(٢) جامع البيان، المجلد العاشر، الجزء الثالث والعشرون، ص ٤٨.

كيدهم - : ﴿إني ذاهب إلى ربى سيهدين﴾ يقول : إنى مهاجر من بلدة قومي إلى الله، أى إلى الأرض المقدسة، ومفارقهم فمعتزلهم لعبادة الله، وكان قتادة يقول فى ذلك : ﴿وقال إني ذاهب إلى ربى سيهدين﴾ ذاهب بعمله وقلبه ونيته، وحدَث عن إسحاق قال : سمعت سليمان بن صرد يقول : لما أرادوا أن يلقوا إبراهيم فى النار قال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين، يقول الطبرى : وإنما اخترت القول الذى قلت فى ذلك (يعني أن هجرة إبراهيم كانت من بلدة قومه إلى الأرض المقدسة) لأن الله - تبارك وتعالى - ذكر خبره وخبر قومه في موضع آخر، فأخبر أنه لما نجا مما حاول قومه من إحراقه قال: ﴿إنى مهاجر إلى ربى﴾ ففسر أهل التأويل ذلك أن معناه : إنى مهاجر إلى أرض الشام، فكذلك قوله : ﴿إني ذاهب إلى ربى سيهدين﴾ لأنه كقوله : ﴿إنى مهاجر إلى ربى﴾ وقوله : ﴿سيهدين﴾ يقول : سيثبتنى على الهدى الذى أبصرته ويعيننى عليه.

ومن الفتوحات الإلهية نقل - بتصرف - في تفسير قوله تعالى [1] : ﴿ونجيناه ولوطا﴾ ابن أخيه (هاران) الأصغر، وأما (هاران) الأكبر فكان عما لإبراهيم، وكانت سارة بنت عم إبراهيم الذى هو (هاران) الأكبر، وكانت آمنت بإبراهيم، وخرج إبراهيم من (كوثا) من أرض العراق ومعه لوط وسارة، فخرج يلتمس الفرار بدينه، والأمان على عبادة ربه، حتى نزل (حران) فمكث بها ما شاء الله، ثم خرج من حران حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر ورجع إلى الشام فنزل (السبع) من أرض فلسطين، وترك لوطا

(١) الفتوحات الإلهية، المجلد الثالث، ص ١٣٥، ١٣٦.

بالمؤتفكة - وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع - فبعثه الله نبياً إلى أهلها وما قرب منها.

والمؤتفكة : قرى قوم لوط، أسقطها الله تعالى بعد رفعها إلى السماء مقلوبة إلى الأرض بأمره لجبريل بذلك، و ﴿ الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ بكثرة الأنهار والأشجار : هي الشام.

ومن تفسيره لقوله تعالى[1] : ﴿ فآمن له لوط ﴾ : بعد أن صدق بنبوة إبراهيم - وإن كان مؤمناً قبل ذلك - وقال إبراهيم : ﴿ إني مهاجر ﴾ من قومي ﴿ إلى ربي ﴾ أي : إلى حيث أمرني ربي، إلى مكان أمرني ربي بالتوجه إليه، وهجر قومه، وهاجر من سواد العراق إلى الشام مع زوجته سارة ابنة عمه، ومع لوط ابن أخيه، فنزل بحران، ثم منها إلى الشام، فنزل فلسطين، ونزل لوط بسدوم وكان عمر إبراهيم إذ ذاك خمساً وسبعين سنة.

ومن تفسيره لقوله تعالى[2] : ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ مهاجراً إليه من دار الكفر، وهذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم - عليه السلام - وذلك حين خلصه الله من النار، قال : إني ذاهب إلى ربي أي : مهاجر من بلد قومي ومولدي إلى حيث أتمكن من عبادة ربي، فإنه سيهدين فيما نويت إلى الصواب، قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة زوجته، إلى الأرض المقدسة، وهي أرض الشام وقيل : ذاهب بعملي وعبادتي وقلبي ونيتي، فعلى هذا ذهابه بالعمل

---

(١) الفتوحات الإلهية، المجلد الثالث، ص ٣٧٤.
(٢) الفتوحات الإلهية، المجلد الثالث، ص ٥٤٥.

لا بالبدن، وقيل : خرج إلى حران، فأقام بها مدة، ثم قيل : قال ذلك لمن فارقه من قومه، فيكون ذلك توبيخا لهم، وقيل : قاله لمن هاجر معه من أهله، فيكون ذلك ترغيبا، وقيل : قال ذلك قبل إلقائه في النار، وفيه على هذا الوجه تأويلان، أحدهما : إني ذاهب إلى ماقضاه علىَّ ربى . الثانى : إنى ميت كما يقال لمن مات : قد ذهب إلى الله تعالى؛ لأنه - عليه السلام - تصور أنه يموت بإلقائه فى النار، على المعهود من حال النار فى تلف ما يلقى فيها وفى قوله : ﴿ سيهدين ﴾ على هذا القول تأويلان، أحدهما : سيهدين إلى الخلاص منها، والثانى : سيهدين إلى الجنة .

أما ابن حجر العسقلانى - شارح صحيح البخارى - فيقول [1] : (... وأخرج الطبرى عن طريق السدى قال : انطلق إبراهيم من بلاد قومه قبل الشام، فلقى سارة، وهى بنت ملك حران، فآمنت به، فتزوجها) .

ويقول ابن كثير فى قصص الأنبياء [2] - بعد أن تحدث عن المكان الذى ولد فيه إبراهيم - قالوا : وانطلق (تارح) بابنه إبراهيم وامرأته سارة، وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين (أرض بابل وما والاها) إلى أرض الكنعانيين، وهى بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران - وكان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام - وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته سارة، وابن أخيه لوط - عليه السلام -

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى، المجلد الثانى عشر، ص ٣٧٩ .
(٢) قصص الأنبياء، ص ١١٧، ١١٨، ١٣٠، ١٣١ .

ويقول في موضع آخر: هجر إبراهيم قومه في الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته سارة عاقرا لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل كان معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل، ودعوة الخلق إليه والأرض التي قصدها بالهجرة: أرض الشام.

وهي التي قال الله عز وجل:

﴿ الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ وروى عن ابن عباس أنها (مكة) وزعم كعب الأحبار أنها (حران).

ثم يذكر ابن كثير رأياً آخر في رواية السدي يقول: «انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقي إبراهيم (سارة) - وهي ابنة ملك حران - وقد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها، على ألا يغيرها» رواه ابن جرير وهو غريب، والمشهور أنها ابنة عمه هاران، الذي تنسب إليه حران، ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران: أخت لوط - كما حكاه السهيلي عن القتبي والنقاش - فقد أبعد النجعة، وقال بلا علم، ومن قال: إن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعا فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت - كما هو منقول عن الربانيين من اليهود - فإن الأنبياء لا تتعاطاه والله أعلم، ثم المشهور أن إبراهيم - عليه السلام - لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم والله أعلم.

وجاء في كتاب النبوة والأنبياء[1]: (وقد تزوج إبراهيم عليه السلام - حين شب وكبر بامرأة تدعى (سارة) وكانت سارة عاقرا

(١) النبوة والأنبياء، ص ٢٠٦.

لا تلد، وهاجر إبراهيم عليه السلام مع والده وزوجته فخرجوا من أرض الكلدانيين (أرض العراق) إلى أرض الكنعانيين وهى (بلاد المقدس) فأقاموا فى (حران) وهى بلد قريبة من الشام ...).

وتحديد الزمن الذى تزوج فيه سيدنا إبراهيم من السيدة سارة بأنه (حين شب وكبر) فى هذه الرواية من كتاب النبوة والأنبياء لايضيف فائدة ما، لأن الرجل لا يتزوج إلا حين يشب ويكبر، وكذلك لا يحسم الخلاف حول ما إذا كان إبراهيم قد تزوج سارة قبل إلقائه فى النار أو فى يوم خروجه من النار، وفى نفس الوقت يفتح الباب أمام احتمال أن يكون قد تزوج بعد نجاته من النار بفترة مناسبة.

أما عبارة: (تزوج بامرأة تدعى سارة) فهو تجاهل غريب، لا يليق بما ينبغى لمكانة زوج نبى الله سيدنا إبراهيم.

كذلك فإنه مما يسترعى النظر فى كل روايات المفسرين والمحدثين والمؤرخين - التى ذكرناها - فى موضوع هذه الهجرة الأولى لسيدنا إبراهيم ما يلى:

أولاً: قيل إن إبراهيم قد تزوج سارة فى (بابل) جنوب العراق، قبل إلقائه فى النار، وأنها كانت ابنة عمه (هاران) وقيل: إنه تزوجها فى حران بالشام بعد هجرته، وأنها كانت ابنة ملك حران.

وإذا كنا نميل إلى الرأى الثانى، بعد أن استبعدنا أن يكون إبراهيم قد تزوج سارة قبل إلقائه فى النار - لا فى نفس اليوم والذى خرج فيه من النار - كما رفضنا ذلك الدس والإقحام لكلمات (الصبيين، وصبيتى، وإسماعيل وإسحاق) فى رواية المسيرة السابقة فإننا

لانستبعد ذلك الاحتمال الذى ألح إليه كتاب النبوة والأنبياء : بأن يكون إبراهيم قد تزوج سارة فى الفترة التى قضاها ببابل جنوب العراق، بعد نجاته من النار، وقبل هجرته إلى (حران) بالشام، وهى فترة قدرنا - فيما سبق - أنها بلغت تسعاً وأربعين أو تسعاً وخمسين سنة والله أعلم.

ثانياً : مع تعدد الآراء حول الأرض التى هاجر إليها سيدنا إبراهيم - بعد نجاته من النار - وتعدد انتقالاته بين بلدان هذه الأرض فإن (حران) فى الأرض المباركة تحظى بالترجيح وغالبية الآراء.

ثالثاً : إذا كان سيدنا إبراهيم قد هاجر من بلاد قومه فى (بابل) جنوب العراق إلى (حران) شمال سوريا فى الشام، حين ضاق ذرعا بعناد أبيه وقومه، وإصرارهم على عبادة الأصنام، فإنه من العجيب الغريب وغير المنطقى أن يهاجر معه أبوه آزر الذى ظل على دين قومه، ولم يكن له أدنى دفاع عن ابنه إبراهيم وهو يلقى فى النار وعبارة ابن كثير فى قصص الأنبياء [1] :

قالوا : « وانطلق (تارح) بابنه إبراهيم وامرأته سارة، وابن أخيه لوط، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين » تضاعف من شدة الغرابة والعجب ؛ لأن معناها : أن آزر - تارح - خاف على ابنه إبراهيم من قومه، ورفض أن يبقى إبراهيم بينهم، فانطلق به وبامرأته سارة، وابن أخيه لوط إلى (حران) وكان مقتضى هذا التصرف أن يترك آزر دين قومه تضامناً مع ابنه

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ص ١١٧.

إبراهيم، ويستجيب إلى دعوته ولكنه ظل على عناده وإصراره على عبادة الأصنام، حتى بعد أن انتقل إلى حران.

وهذه ملاحظة لا نرفض بها هجرة آزر مع ابنه إبراهيم بعد أن سجلت معظم الروايات أنه انتقل إلى حران، وظل بها حتى توفى، وعمره مائتان وخمسون سنة [1].

رابعاً: لم يفرق الطبرى، وصفوة التفاسير بين كلمة (الهجرة) وكلمة (الاعتزال) فجاءت الكلمتان عندهما فى وصف انتقال إبراهيم مع أبيه وابن أخيه لوط، وزوجه سارة - على قول - من بابل فى العراق، إلى حران فى الشام، بعد أن نجاه الله من النار، وبعد أن ضاق ذرعاً بعناد أبيه وقومه، ومن سوء معاملة النمرود له مع أن الهجرة كانت شيئاً، والاعتزال كان شيئاً آخر، وكانت الهجرة فى وقت، وكان الاعتزال فى وقت آخر.

فالهجرة كانت مفارقة سيدنا إبراهيم لبلده وقومه فى بابل جنوب العراق أما الاعتزال فكان ابتعاد سيدنا إبراهيم عن أبيه وقومه فى البلد الذى هاجر إليه، وهو حران فى الشام، وكانت الهجرة قبل أن يدخل إبراهيم بهاجر وينجب منها أول أولاده: إسماعيل.

أما الاعتزال فقد كان بعد أن دخل إبراهيم بهاجر وأنجب إسماعيل منها، وكان أيضاً موعد هبة الله وبشارة الملائكة بميلاد إسحاق من سارة كما سنوضح فيما بعد.

---

(1) قصص الأنبياء لابن كثير، ص ١١٧.



وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض

وإذا كان الناس فى (بابل) بالعراق وبقية بلاد الكلدانيين ـ فى ذلك الوقت ـ يعبدون الأصنام من دون الله، فقد وجد إبراهيم الناس فى (حران) وبقية بلاد الشام، وبلاد بيت المقدس ـ المسماة فى ذلك الوقت بأرض الكنعانيين ـ يعبدون الكواكب من دون الله، وانتشرت بينهم الوثنية وعبادة الأفلاك.

يقول ابن كثير: (وكانوا ـ يعنى أهل حران ـ يعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعيادا وقرابين، وكل من كان على وجه الأرض ـ فى ذلك الوقت ـ كانوا كفارا سوى إبراهيم الخليل، وامرأته سارة، وابن أخيه لوط ـ عليهم السلام ـ) [1].

وهذه الكواكب السبعة ـ كما جاء فى تفسيره [2] ـ: (القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل).

وجاء فى الفتوحات الإلهية [3]: (... وكان أهل تلك البلاد ـ وهم الكنعانيون ـ يعتقدون إلهية النجوم فى السماء، والأصنام فى الأرض، فيجعلون لكل نجم صنماً، فإذا أرادوا التقرب إلى ذلك

---

(١) قصص الأنبياء، ص ١١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثانى، الجزء السابع، ص ١٤٥.

(٣) الفتوحات الإلهية، المجلد الثانى، ص ٤٨.

النجم عبدوا ذلك الصنم ؛ ليتشفع لهم عند ذلك النجم) وقد حاول سيدنا إبراهيم أن يثنيهم عن عبادة هذه الكواكب ، كما حاول من قبل أن يثنى أهل (بابل) فى العراق عن عبادة الأصنام ، واتخذ نفس الطريق الذى اتخذه فى الإقناع ، وهو طريق الحوار والبراهين العقلية ، والحجج الدامغة ، مستعيناً بما منحه الله من معارف عن ملكوت السماوات والأرض ، ليزداد يقينه ، وتقوى حجته فكانت عوناً له ، وأدلة حاسمة فى جداله وتحاوره مع أهل (حران) ووصل أمر إبراهيم معهم إلى درجة أن جاراهم فى زعمهم ، وحاكاهم فى ادعائهم أن الكواكب السبعة آلهة فقال عن كل من كوكب الزهرة ، والقمر ، والشمس : « هذا ربى » .

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام : (الآيات من ٧٥ إلى ٧٩) : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رءا القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضآلين * فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ .

يقول ابن كثير فى تفسيره [1] : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، المجلد الثانى ، الجزء السابع ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

أي : نبين له وجه الدلالة ـ في نظره إلى خلقهما ـ على وحدانية الله ـ عز وجل ـ في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، وأما ما حكاه ابن جرير وغيره عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم : قالوا ـ واللفظ لمجاهد ـ فرجت له السموات فنظر إلى ما فيهن، حتى انتهى بصره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع، فنظر إلى ما فيهن، وزاد غيره : فجعل ينظر إلى العباد على المعاصي، ويدعو عليهم، فقال الله له : إني أرحم بعبادي منك، لعلهم أن يتوبوا أو يرجعوا، وروى ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين عن معاذ وعلي، ولكن لا يصح إسنادهما والله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم عن طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ فإنه ـ تعالى ـ جلّى له الأمر سره وعلانيته، فلم يخف عليه شئ من أعمال الخلائق، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله : إنك لا تستطيع هذا، فرده الله كما كان قبل ذلك، فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده، وتحققه وعرفه، وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه : عن معاذ بن جبل في حديث المنام : « أتاني ربي في أحسن صورة، فقال : يامحمد : فيم يختصم الملأ الأعلى يامحمد ؟ فقلت : لا أدري يا رب، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شئ، وعرفت ذلك » وذكر الحديث.

وقوله : ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ أى : تغشاه وستره ﴿ رأى كوكبا ﴾ أى : نجماً ﴿ قال هذا ربى فلما أفل ﴾ أى : غاب .

قال محمد بن إسحاق بن يسار : الأفول : الذهاب ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول ﴿ فلما رأى القمر بازغا ﴾ أى : طالعاً ﴿ قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ أى : هذا المنير الطالع ربى ﴿ هذا أكبر ﴾ أى : جرماً من النجم ومن القمر ، وأكثر إضاءة ﴿ فلما أفلت ﴾ أى : غابت ﴿ قال ياقوم إنى برئ مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ أى : أخلصت دينى وأفردت عبادتى ﴿ للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً ﴾ أى : خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿ حنيفا ﴾ أى : فى حال كونى حنيفاً ، أى : مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ .

قال محمد بن إسحاق : (قال إبراهيم ذلك حين خرج من السَّرب الذى ولدته فيه أمه حين تخوفت عليه من نمرود بن كنعان لما قد أُخْبِر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ ، فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد ، فولدت فيه إبراهيم ، وتركته هناك وذكر أشياء من خوارق العادات كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف) وقد مرَّ بنا ذكر هذا فى موضعه .

ويقول القرطبي [1] : قوله تعالى : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ﴾ بمعنى : أريناه ﴿ ملكوت ﴾ أى : ملك (السماوات والأرض) فقيل : أراد به ما في السماوات من عبادة الملائكة والعجائب، وما في الأرض من عصيان بنى آدم، فكان يدعو على مَنْ يراه يَعْصى، فيُهلكه الله فأوحى الله إليه : يا إبراهيم، أمسك عن عبادى، أما علمت أن من أسمائى : الصَّبور، روى معناه علىّ عن النبى - ﷺ -

وقيل : كشف الله له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين، وروى ابن جريج، عن القاسم، عن إبراهيم النخعى، قال : فرجت له السماوات السبع، فنظر إليهن، ورأى مكانه فى الجنة، فذلك قوله تعالى : ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ الآية ٢٧ من سورة العنكبوت - عن السُّدى.

وقال الضحاك : أراه من ملكوت السماء ما قصَّه من الكواكب، ومن ملكوت الأرض : البحار، والجبال، والأشجار، ونحو ذلك مما استدل به، وقال بنحوه ابن عباس قوله - تعالى - : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ أى : وليكون من الموقنين أريناه الملكوت.

وقوله - تعالى - : ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ أى : ستره بظلمته، وكان هذا فى آخر الشهر ﴿ رأى كوكبا ﴾ المشترى، أو الزهرة ﴿ قال هذا ربى فلما أفل ﴾ أى : غاب، وعلم أنه ليس بربه ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ وهذه قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه، فقيل : رأى ذلك من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب،

(١) الجامع لأحكام القرآن، المجلد الرابع، الجزء السابع، ص ٢٣ - ٢٨.

وقيل : لما أخرجه أبوه من السّرب - وكان وقت غيبوبة الشمس - فرأى الإبل، والخيل، والغنم، فقال : لا بدّ لها من رب، ورأى المشترى أو الزهرة ثم القمر، ثم الشمس ﴿ فلما رأى القمر بازغا ﴾ أى : طالعا ﴿ قال هذا ربى فلما أفل ﴾ أى : غاب، ﴿قال لئن لم يهدنى ربى ﴾ أى : لئن لم يثبتنى على الهداية ﴿ لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ﴾ أى : قصدت بعبادتى وتوحيدى لله - عزوجل - وحده ﴿ حنيفا ﴾ أى : مائلاً إلى الحق ﴿ وما أنا من المشركين ﴾.

يقول الطبرى [1] : يعنى تعالى ذكره بقوله : ﴿ وكذلك ﴾ : وكما أريناه البصيرة فى دينه، والحق فى خلاف ما كانوا عليه من الضلال، نريه ملكوت السماوات والأرض يعنى : ملكه، واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله تعالى : ﴿ نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ فقال بعضهم : معنى ذلك : نريه خلق السموات والأرض، وقال آخرون : معنى الملكوت : الملك، وقال آخرون : معنى ذلك أخرون آيات السماوات والأرض، وحدّث عن مجاهد : ﴿ نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ فقال : تفرّجت لإبراهيم السماوات السبع حتى العرش، فنظر فيهن، وتفرجت له الأرضون السبع، فنظر فيهن، وحدّث عن السدى قال : أقيم على صخرة، وفتحت له السماوات فنظر إلى مُلك الله فيها حتى نظر إلى مكانه فى الجنة، وفتحت له الأرضون حتى نظر إلى أسفل الأرض، فذلك قوله : ﴿ وآتيناه أجره فى الدنيا ﴾.

---

(1) جامع البيان، المجلد الخامس، الجزء السابع، ص ١٦٠ - ١٦٥.

يقول : آتيناه مكانه في الجنة ، ويقال أجره : الثناء الحسن ، وحدّث عن سعيد بن جبير ، قال : كشف له عن أديم السماوات والأرض حتى نظر إليهن على صخرة ، والصخرة على حوت ، والحوت على خاتم رب العزة لا إله إلا الله [1] وحدّث عن سلمان قال : لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض رأى عبداً على فاحشة ، فدعا عليه ، فهلك ثم رأى آخر على فاحشة ، فدعا عليه ، فهلك ، ثم رأى آخر على فاحشة ، فدعا عليه ، فهلك فقال (الله) : أنزلوا عبدى لايهلك عبادى.

وحدث عن عطاء قال : لما رفع الله إبراهيم فى الملكوت ، فى السماوات أشرف فرأى عبداً يزنى ، فدعا عليه ، فهلك ثم رفع فأشرف ، فرأى عبداً يزنى ، فدعا عليه فهلك ثم رفع فأشرف ، فرأى عبداً يزنى ، فدعا عليه فهلك ، ثم رفع فأشرف فرأى عبداً يزنى فدعا عليه فنودى : على رسلك يا إبراهيم ، فإنك عبد مستجاب لك ، وإنى من عبدى على ثلاث ، إما أن يتوب إلىّ ، فأتوب عليه وإما أن أخرج منه ذرية طيبة وإما أن يتمادى فيما هو فيه ، فأنا من ورائه. وحدث عن أسامة : أن إبراهيم - خليل الرحمن - حدث نفسه أنه أرحم الخلق ، وأن الله رفعه حتى أشرف على أهل الأرض ، وأبصر أعمالهم ، فلما رآهم يعملون بالمعاصى قال : اللهم دمّر عليهم ، فقال له ربه : أنا أرحم بعبادى منك ، اهبط ، فلعلهم أن يتوبوا إلىّ ويرجعوا ، وقال آخرون : بل معنى ذلك ما أخبر تعالى أنه أراه من النجوم والقمر والشمس.

---

(١) هكذا فى جامع البيان ، المجلد الخامس ، الجزء السابع ، ص ١٦٠ .

وحدث عن قتادة قال : خُبئ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من جبار من الجبابرة ، فجعل له رزقه فى أصابعه ، فإذا مَصَّ أصبعاً من أصابعه وجد فيها رزقاً ، فلما خرج (من السَّرَب) أراه الله ملكوت السماوات والأرض ، فكان ملكوت السماوات : الشمس والقمر والنجوم ، وملكوت الأرض : الجبال والشجر ، وحدث عن قتادة : ذكر لنا أن نبى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فُرَّ به من جبار مترف ، فجعل فى سَرب ، وجعل رزقه فى أطرافه ، فجعل لايمص إصبعاً من أصابعه إلا وجد فيها رزقاً ، فلما خرج من ذلك السَّرب أراه الله ملكوت السماوات ، فأراه شمساً وقمراً ونجوماً وسحاباً وخلقاً عظيماً ، وأراه ملكوت الأرض : فأراه جبالاً وبحوراً وأنهاراً وشجراً ، ومن كل الدواب ، وخلقاً عظيماً ، وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب قول من قال : عنى الله تعالى بقوله : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ أنه ملك السماوات والأرض ، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما ، وجلّى له بواطن الأمور وظواهرها .

وأما قوله تعالى : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ فإنه يعنى : أنه أراه ملكوت السماوات والأرض ليكون ممن يتوحد بتوحيد الله ، ويعلم حقيقة ما هداه له ، وبصره إياه ، من معرفة وحدانيته وما عليه قومه من الضلالة من عبادتهم الأصنام ، واتخاذهم إياها آلهة دون الله تعالى وكان ابن عباس يقول فى تأويل ذلك قوله : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ : أنه جلّى له الأمر : سرّه وعلانيته ، فلم يُخف عليه شئ

من أعمال الخلائق، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله : إنك لا تستطيع هذا، فرده الله كما كان قبل ذلك، فتأويل ذلك على هذا التأويل : أريناه ملكوت السماوات والأرض ليكون ممن يوقن علم كل شئ حالاً خبراً، وحدث عن عبد الرحمن بن عياش يقول : صلى بنا رسول الله - ﷺ - ذات غداة، فقال له قائل : ما رأيت أسعد منك الغداة، فقال : ومالي وقد أتاني ربي في أحسن صورة، فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد ؟ قلت : [أنت أعلم] فوضع يده بين كتفي فعلمت ما في السماوات والأرض، ثم تلا هذه الآية ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ يقول تعالى : فلما وراه الليل أبصر كوكبا حين طلع، قال : هذا ربي، فروى عن ابن عباس في ذلك : فعبده حتى غاب، فلما غاب قال : لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي، فعبده حتى غاب، فلما غاب قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي، هذا أكبر، فعبدها حتى غابت، فلما غابت قال : ياقوم إني بريء مما تشركون وحدث عن قتادة : ﴿ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ علم أن ربه دائم لا يزول، فقرأ حتى بلغ ﴿ هذا ربي هذا أكبر ﴾ وأى خلق هو أكبر من الخلقين الأولين وأنور ؟ !

يقول الطبرى : وكان سبب قيل إبراهيم ذلك ما حدث عن محمد ابن إسحاق - والله أعلم - (أن إبراهيم لما مكث في السرب خمسة عشر شهراً) قال لأمه : أخرجيني أنظر فأخرجته عشاء، فنظر

وتفكر في خلق السموات والأرض، وقال: إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربّى، مالى إله غيره ثم نظر فى السماء فرأى كوكباً، قال: هذا ربى، ثم اتبعه ينظر إليه ببصره حتى غاب، فلما أفل قال: لا أحب الآفلين، ثم طلع القمر فرآه بازغاً، قال: هذا ربى، ثم أتبعه بصره حتى غاب، فلما أفل قال: لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما دخل عليه النهار وطلعت الشمس، أعْظم الشمس، ورأى شيئاً هو أعظم نوراً من كل شئ رآه قبل ذلك، فقال: هذا ربى هذا أكبر، فلما أفلت قال: ياقوم إنى برئ مما تشركون، إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ثم رجع إبراهيم إلى أبيه آزر، وقد استقامت وجهته، وعرف ربه، وبرئ من دين قومه، وقال لقومه: ﴿إنى برئ مما تشركون﴾ أى: من عبادة الآلهة والأصنام ودعائه لهما مع الله تعالى ﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ وهذا خبر من الله تعالى عن خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه لما تبين له الحق وعرفه شهد شهادة الحق، وأظهر خلاف قومه ـ أهل الباطل، وأهل الشرك بالله ـ ولم يأخذه فى الله لومة لائم، ولم يستوحش من قيل الحق، والثبات عليه، مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إياه عليه وقال لهم: يا قوم إنى برئ مما تشركون مع الله الذى خلقنى وخلقكم فى عبادته من آلهتكم وأصنامكم، إنى وجهت وجهى ـ فى عبادتى ـ إلى الذى خلق السماوات والأرض، الدائم الذى يبقى ولا يفنى، ويحيى ويميت، لا إلى الذى يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر

ولا ينفع، ولست ممن يدين دينكم، ويتبع ملتكم أيها المشركون.

وننقل من الفتوحات الإلهية ما يلي[1]: قوله تعالى: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾ أي: كما أريناه ضلالة أبيه وقومه، أي: بعين البصيرة؛ لأنه تعالى أراه بعين البصيرة: أن أباه وقومه على غير الحق، فخالفهم، فجازاه الله بأن أراه بعين البصر ملكوت السماوات والأرض، قال ابن عباس: يعني خلق السماوات والأرض وقال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني آيات السماوات والأرض، وذلك أنه أقيم على صخرة، وكشف له عن السماوات حتى رأى العرش والكرسي، وما في السموات من العجائب، وحتى رأى مكانه في الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ يعني: أريناه مكانه في الجنة وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين، ورأى ما فيها من العجائب، قال البعض: وروى عن سليمان - ورفعه بعضهم عن عليّ - قال: لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض أبصر رجلاً على الفاحشة، فدعا عليه، فهلك ثم أبصر آخر، فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر، فأراد أن يدعو عليه، فقال له - تبارك وتعالى -: يا إبراهيم أنت رجل مجاب الدعوة، فلا تَدْعُوَنَّ على عبادي، فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال: إما أن يتوب إليّ فأتوب عليه، وإما أن أخرج منه نسمة تعبدني، وإما أن يبعث إليّ، فإن شئت عفوت، وإن شئت عاقبت وفي رواية: وإن تولى فإن جهنم من ورائه، قال قتادة: ملكوت السموات: الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار.

---

(1) الفتوحات الإلهية، المجلد الثاني، ص ٤٩ إلى ٥٤.

وقال محمد بن إسحاق (بعد أن مكث في السَّرب خمسة عشر شهراً) قال لأمه : أخرجيني فأخرجته عشاء، فنظر وتفكر في خلق السماوات والأرض، وقال : إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لَرَبِّي الذي مالي إله غيره ونظر في السماء فرأى كوكباً قال : هذا ربي ، ثم أتبعه ببصره ينظر إليه حتى غاب فلما أفل قال : لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي، وأتبعه ببصره ينظر إليه حتى غاب ثم طلعت الشمس، قال هكذا . . . الخ ثم رجع إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته، وعرف ربه، وعرف دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك وقيل : إن إبراهيم لما جَنَّ عليه الليل دنا من السَّرب فنظر في خلال الصخرة، فأبصر كوكباً، فقال : هذا ربي، ويقال : إنه قال لأبويه : أخرجاني فأخرجاه من السَّرب حين غابت الشمس، فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم، فسأل أباه : ما هذه ؟ قال : إبل وخيل وغنم، فقال إبراهيم : لابد لهذه من إله هو ربها وخالقها ثم نظر فإذا (المشترى) قد طلع، ويقال : إنها (الزهرة) وكانت تلك الليلة من آخر الشهر، آخر طلوع القمر، فرأى الكوكب قبل القمر فذلك قوله عز وجل : ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ يعني اسود بظلامه ﴿ رأى كوكبا قال هذا ربي ﴾ وكانوا نجامين ﴿ فلما أفل ﴾ غاب ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ أي : أتخذهم أرباباً لأن الرب لا يجوز عليه التغيير والانتقال، لأنها من شأن الحوادث ﴿ فلما رأى القمر بازغا ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثاني، الجزء السابع، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

طالعاً ﴿ قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى ﴾ يثبتنى على الهدى ﴿ لأكونن من القوم الضالين ﴾ تعريض لقومه بأنهم على ضلال، وأنهم على شرك ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ﴾ من الكوكب والقمر - أى : جرماً، وضوءاً، ونفعاً - فسعة جرم الشمس : مائة وعشرون سنة كما قال الغزالى ﴿ فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ﴾ بالله من الأصنام والأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدث ﴿ إنى وجهت وجهى ﴾ قصدت بعبادتى ﴿ للذى فطر ﴾ خلق ﴿ السماوات والأرض حنيفا ﴾ مائلاً إلى الدين القيم ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ به.

ثم اختلف العلماء فى وقت هذه الرؤية، وفى وقت هذا القول، هل كان قبل البلوغ ؟ أو بعده ؟ على قولين، أحدهما : أنه كان قبل البلوغ فى حال طفوليته، والقول الثانى : الذى عليه جمهور المحققين : أن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم، وحين شرفه الله بالنبوة، وأكرمه بالرسالة.

وروايات هؤلاء المفسرين - كما ذكرناها نقلاً عنهم - تشير إلى مايلى :

أولاً : إذا كانت هذه الرؤية وهذه الموعظة بالكواكب قبل بلوغ إبراهيم، فإنه يعنى أن الموعظة بالكواكب كانت لأهل (بابل) فى العراق قبل هجرته، لأنه مكث فى (بابل) بالعراق إلى أن بلغ، وهاجر من (بابل) إلى حران فى الشام وهو فى سن الخامسة والسبعين كما مر بنا، أما إذا كانت هذه الرؤية وهذه الموعظة بعد

بلوغ إبراهيم فإنها تحتمل أن تكون الموعظة بالكواكب لأهل (بابل) فى العراق قبل هجرته أو لأهل (حران) فى الشام بعد هجرته، فإذا لاحظنا أن هذه الرؤية التى أرادها الله لسيدنا إبراهيم، وما تبعها من موعظته بالكواكب مناسبة لأهل (حران) فى الشام، لأنهم كانوا يعبدون الكواكب من دون الله، بينما موعظته فى سفاهة عبادة الأصنام ومحاجاته فى الله لأبيه وقومه، كانت مناسبة لأهل (بابل) فى العراق، حيث كانوا يعبدون الأصنام من دون الله، إذا لاحظنا هذا فإن القول بأن هذه الرؤية وهذا القول فى النجوم والكواكب كانت قبل بلوغ إبراهيم لا سند له ولا يعتد به، وكذلك الاحتمال - مع القول بأنها كانت بعد البلوغ - بأنها كانت لأهل بابل فى العراق، مما يقوى الاحتمال الثانى بأنها كانت لأهل (حران) فى الشام، والالتباس الذى وقع فيه بعض المفسرين والمؤرخين حين قالوا: إن أهل (حران) فى الشام كانوا يعبدون الأصنام إنما جاء من أن أهل (حران) كانوا يجعلون لكل نجم وكوكب صنما، فإذا أرادوا التقرب إلى النجم أو الكوكب عبدوا ذلك الصنم؛ ليشفع لهم عند ذلك النجم أو الكوكب كما ذكر ابن كثير[1] والفتوحات الإلهية[2]، مع اتفاق الجميع على أن أهل (بابل) كانوا يعبدون الأصنام فقط، ولم تكن لهم مواقف عبادة تجاه النجوم والكواكب.

---

(١) قصص الأنبياء، ص ١١٨، تفسير القرآن العظيم، المجلد الثانى، الجزء السابع ص ٤٨.

(٢) الفتوحات الإلهية، المجلد الثانى، ص ٤٨.

ثانياً : بعض المفسرين فرّق بين رؤية إبراهيم لملكوت السماوات والأرض وبين قول إبراهيم فى الكواكب، كما ذهب القرطبى، وترتب على هذا أن يكون كل منهما وقع فى زمن غير زمن الآخر سواء فى بابل أو فى حران، وبعضهم لم يفرق بينهما، مما ترتب عليه أن يكونا قد حدثا فى زمن واحد، إما فى بابل، وإما فى حران.

ثالثاً : لم يذكر أىّ من المفسرين - فى تفسيراتهم - رأياً خاصاً به فى زمن حدوث هذه الرؤية، وهذا القول فى الكواكب، ولكنهم ذكروا - لغيرهم - أقوالاً تقرر أن ذلك حدث لإبراهيم وهو فى السَّرب الذى وضعته فيه أمه خوفاً عليه من أن يقتله النمرود، وأقوالاً أخرى تقرر أن ذلك حدث لإبراهيم عقب خروجه من السَّرب، ورواية محمد بن إسحاق كما جاءت فى تفسيرات هؤلاء المفسرين تقرر : أن هذه الرؤية لملكوت السماوات والأرض وما تبعها من قوله فى الكواكب إنما كانت لأهل (بابل) فى العراق قبل إلقائه فى النار، بل كانت وهو صغير، حين خرج به أبواه من السَّرب مباشرة، وإذا كنا لا نستبعد أن يكون الله - عز وجل - القادر على كل شئ، قد منح إبراهيم الرشد وآتاه الحكمة، وأعطاه القدرة على النظر فى ملكوت السماوات والأرض، والعظة بالكواكب والقمر والشمس، وهو فى هذه السن الصغيرة إلا أن تتابع الأحداث وتسلسل الوقائع، ومناسبة العظة - فى سفاهة عبادة الأصنام - لعبدة الأصنام، ومناسبة العظة بالكواكب لعبدة الكواكب

يميل بنا - كما أسلفنا - إلى ترجيح أن تكون تلك الرؤية وتلك العظة بالكواكب إنما كانت لأهل (حران) بعد أن هاجر إلى الأرض المباركة.

وابن كثير - في قصص الأنبياء - يؤيد ما نميل إليه، فيقول [1]: «والظاهر أن موعظته - يعني سيدنا إبراهيم - هذه في الكواكب لأهل (حران)؛ فإنهم كانوا يعبدونها، وهذا يرد قول من زعم: أنه قال هذا حين خرج من السرب، لما كان صغيرًا كما ذكره ابن إسحاق وغيره وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولاسيما إذا خالفت الحق، وأما أهل (بابل) فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتها، وكسرها عليهم، وأهانها، وبين بطلانها».

وما ذهب إليه ابن كثير له ثقله ووجاهته - كما رجحنا - فقد جاءت روايات ابن إسحاق - كما ذكرها ابن كثير والقرطبي والطبري. والفتوحات الإلهية - مثل كل الروايات المستندة إلى أخبار إسرائيلية في موضوعات سبق الحديث عنها في هذا البحث وكما سيأتي في موضوعات أخرى مليئة بالتناقض والاضطراب، فقد تناقض حين ذكر أن عُمْرَ إبراهيم - حين خرج من السَّرب -: خمسة عشر شهرا!

ومرة ثانية: ذكر أن عمره كان ثلاث سنوات!

ومرة ثالثة: قرر أنه كان ابن سبع سنوات!

(١) قصص الأنبياء، ص ١٢١.

ومرة رابعة : ذهب إلى أن عمره في ذلك الوقت : ثلاث عشرة سنة !

ومرة خامسة قال : كان عمره خمسة عشر عاماً !

ثم كان أكثر تناقضاً واضطراباً حين قال - كما ذكرنا عن ابن كثير - : (فلما حملت أم إبراهيم وجاء وضعها ذهبت إلى سرب ظاهر البلد ، فولدت فيه إبراهيم ، وتركته هناك) .

ثم يقول - كما ذكرنا عن القرطبي - (بعد أن حملت أم إبراهيم وحان وضعها) : (فحملها زوجها آزر إلى بعض الشعاب ، حتى ولدت إبراهيم ، وحفر لإبراهيم سرباً في الأرض ، ووضع على بابه صخرة ؛ لئلا تفترسه السباع وكانت أمه تختلف إليه فترضعه . . .) .

ثم يقول - كما ذكرنا عن الطبرى - : (فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريباً منها ، فولدت فيها إبراهيم ، وأصلحت من شأنه ما يصنع مع المولود ، ثم سدت عليه المغارة ، ثم رجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه في المغارة فتنظر ما فعل) .

ويضيف : (وكان آزر - فيما يزعمون - سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل ؟ قالت : ولدت غلاماً ، فمات ! فصدقها وسكت عنها) .

ثم يضيف مرة ثانية : (فلم يلبث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر شهراً حتى قال لأمه : أخرجيني ، فأخرجته عشاء ، ثم رجع

إلى أبيه آزر وأخبره أنه ابنه، وأخبرته أم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت من شأنه، فسر بذلك آزر، وفرح فرحاً شديداً).

ويقول - كما نقلنا عن الفتوحات الإلهية -: (لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريباً منها، فوضعت فيها إبراهيم، وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود.. ثم سدت عليه باب المغارة.. ثم رجعت إلى بيتها.. وكانت تختلف إليه.. لتنظر ما فعل..).

ويضيف - في رواية ثانية -: (كان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل؟ فقالت: ولدت غلاماً فمات، فصدقها وسكت عنها، فلم يمكث (إبراهيم) في المغارة إلا خمسة عشر شهراً حتى قال لأمه: أخرجيني فأخرجته عشاء، ثم رجع إلى أبيه فلما رجعت به أمه أخبرته أنه ابنه، وأخبرته بما صنعت به، فسر بذلك وفرح فرحاً شديداً) ويضيف: (فلما شب إبراهيم وهو في السرب قال لأمه: من ربي؟ قالت: أنا، قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك، قال: ومن رب أبي؟ قالت: اسكت (وفي رواية أخرى: فلطمته).

ثم رجعت إلى زوجها، فقالت: أرأيت الغلام الذي كنا نحدث: أنه يغير دين أهل الأرض؟ ثم أخبرته بما قال، فأتاه، فقال له إبراهيم: يا أبتاه: من ربي؟ إلى آخر الرواية التي ذكرناها عن الفتوحات الإلهية.

وقد ذكرت الفتوحات الإلهية - في نفس القصة، وخلال روايات

ابن إسحاق - رواية أخرى لابن عباس تقول : (لما حملت أم إبراهيم قال الكهان لنمرود : إن الغلام الذى أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة فأمر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها الطلق خرجت هاربة؛ مخافة أن يطلع عليها، فيقتل ولدها .

قالوا : فوضعت فى نهر يابس، ثم لفته فى خرقة ووضعته فى حلفاء، ثم رجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت، وأن الولد فى موضع كذا فانطلق إليه أبوه، فأخذه من ذلك المكان وحفر له سربا فى النهر، فواراه فيه، وسد بابه بصخرة، مخافة السباع وكانت أمه تختلف إليه فترضعه) .

فأين الحقيقة فى كل هذه الروايات ؟

وأيها الصحيح السليم الذى يقبل التصديق؟

أم إبراهيم - حين أتاها الطلق - ذهبت إلى سرب قريب منها، فوضعت إبراهيم، وتركته هناك ؟

أو أن أم إبراهيم - حين أتاها الطلق - خرجت ليلا إلى مغارة قريبة منها، فوضعت فيها إبراهيم، ثم أصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود، ثم سدت عليه باب المغارة؟

أم أن أبا إبراهيم حمل أم إبراهيم - لما حان وضعها - إلى بعض الشعاب حتى ولدت إبراهيم، وحفر لإبراهيم سربا فى الأرض، ووضع على بابه صخرة لئلا تفترسه السباع ؟

أم أن أبا إبراهيم سأل أم إبراهيم عن حملها فأخبرته أنها ولدت غلاماً ، فمات ، فصدقها وسكت عنها ؟

أم أن أبا إبراهيم لم يسأل أم إبراهيم عن حملها ، وأنها ولدت إبراهيم ؟ ولم تخبر أباه بذلك إلا بعد أن أخرجت إبراهيم من السَّرب ؟ وأى منهما - الأم أو الأب - هو الذى أخرجه من المغارة أو السَّرب ؟

وكيف يتركانه فى المغارة أو فى السَّرب بعد أن يغلقا عليه الباب أو يضعا على باب السَّرب صخرة ، وهما يعلمان أنه طفل صغير يحتاج إلى رضاعة ورعاية ؟ ! ولم تكن أم إبراهيم ، ولم يكن أبوه ، يعلمان أن الله سوف يتكفل برعايته وإرضاعه ، فقد فوجئت بذلك أمه حين ذهبت إليه لتنظر ما فعل ، فوجدته يمص أصابعه !

إن هذا التناقض والاضطراب وتعدد الروايات المتناقضة المضطربة لابن إسحاق يلقى بظلال الشك فى صحة الروايات ، ويرجح الأمر الذى رجحناه ، والذى لم تتعدد فيه الآراء ، ولم يكن به تناقض أو اضطراب ، وهو : أن موعظة إبراهيم بالكواكب إنما كانت لأهل (حران) فى الشام لمرحلة جديدة من مراحل جهاده فى سبيل هداية القوم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والله أعلم .

رحلة إبراهيم إلى مصر وما حدث فيها لسارة

فى الوقت الذى يئس فيه إبراهيم من عناد كثير من الناس فى (حران) بالشام، وإصرارهم على عبادة الكواكب من دون الله حدث جدب فى الأرض وشدة وغلاء، وعم القحط وشمل الجدب بلاد الشام وفلسطين كلها [1] وضاقت سبل العيش أمام كل الناس، فقرر سيدنا إبراهيم أن يرحل عن الشام، وارتحل ومعه زوجه (سارة) وابن أخيه (لوط) وذلك فى عهد ملوك الرعاة، وهم (العماليق) ويسميهم الرومان (هكسوس) [2] وفى (مصر) وقعت لسارة حادثة مع ملك ـ أو فرعون ـ مصر بسبب ما كانت تتمتع به من جمال باهر.

وذكر بعض أهل التاريخ ـ كما يقول ابن كثير فى قصص الأنبياء[3] ـ : أن فرعون مصر ـ هذا ـ كان أخًا للضحاك : الملك المشهور بالظلم ـ وكان عاملاً لأخيه على مصر ـ ويقال : كان اسمه (سنان بن علوان بن عويج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح) وذكر ابن هشام ـ فى التيجان ـ أن الذى أراد سارة عمرو بن امرئ القيس بن مايلون بن سبأ، وكان على مصر، نقله السهيلى والله أعلم.

---

(١) النبوة والأنبياء، ص ٢١٧.

(٢) قصص الأنبياء، لعبد الوهاب النجار، ص ٨٤.

(٣) قصص الأنبياء، لابن كثير، ص ١٣٣.

والحادثة التي وقعت لسارة مع هذا الملك أو الفرعون ـ أياً كان اسمه ـ بسبب ما كانت تتمتع به من حسن وجمال باهر، ذكرتها كتب الحديث والتفسير والتاريخ، وبعض الروايات بالغت في تصوير هذه الحادثة، وبالغت في الاتهام بها، والدفاع فيها، مع أخطاء في بعضها، وخلط في بعض آخر، ولهذه كان الاحتكام إلى ما جاء في حديث رسول الله ـ ﷺ ـ مدعماً بما ذكره المفسرون لكتاب الله، وبعض المؤرخين الذين أخذوا عن رسول الله ـ ﷺ ـ هو أصدق وأصح وأسلم توضيح وتفسير لوقائع هذه الحادثة والله المستعان.

أولا: في «فتح الباري شرح صحيح البخاري» [1]:

يقول البخاري: (حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما هو (يعني إبراهيم عليه السلام) ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه، فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي فأتى سارة، قال: ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله، فأطلق، ثم تناولها الثانية، فأُخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت فأطلق، فدعا

(١) فتح الباري: شرح صحيح البخاري، المجلد السادس، ص ٣٨٨ إلى ٣٩٦.

بعض حجيته، فقال : إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان. فأخدمها (هاجر) فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده : مهيم ؟ قالت : ردّ الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره، وأخدم (هاجر) قال أبو هريرة : تلك أمكم يابني ماء السماء).

يقول ابن حجر في شرح هذه الرواية عن أبي هريرة : (بينا هو ذات يوم وسارة) : فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، واسم الجبار المذكور : عمرو بن امرئ القيس بن سبأ، وأنه كان على مصر، ذكره السهيلى، وهو قول ابن هشام فى «التيجان» وقيل : اسمه صادوق وحكاه ابن قتيبة وكان على الأردن وقيل : سنان بن علوان بن عبيد بن عريج (أو عويج) بن عملاق بن لاوذ ابن سام بن نوح حكاه الطبرى ويقال : إنه أخو الضحاك الذى ملك الأقاليم (فقيل له : إن هذا رجل) - فى رواية المستملى «إن هاهنا رجلا» - وفى كتاب التيجان : إن قائل ذلك رجل كان إبراهيم يشترى منه الفحم، فنَمَّ عليه عند الملك، وذكر أن من جملة ما قاله للملك : إنى رأيتها تطحن، وهذا هو السبب فى إعطاء الملك لها (هاجر) فى آخر الأمروقال : إن هذه لا تصلح أن تخدم نفسها. قوله : (من أحسن الناس) فى صحيح مسلم، فى حديث الإسراء الطويل، من رواية ثابت عن أنس، فى ذكر (يوسف أعطى شطر الحسن) - زاد أبو يعلى من هذا الوجه : (أعطى يوسف وأمه شطر الحسن يعنى سارة وفى رواية الأعرج الماضية فى أواخر البيوع)[1] وسوف نذكرها بعد هذه الرواية : هاجر إبراهيم بسارة، فدخل بها

(١) فتح البارى، المجلد الرابع، ص ٤١٠.

قرية فيها ملك أو جبار، فقيل : دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء قوله : (فأرسل إليه فسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختي، فأتى سارة فقال : ياسارة ليس على وجه الأرض ... الخ) .

هذا ظاهر في أنه سأله عنها أولاً، ثم أعلمها بذلك لئلا تكذبه عنده، وفي رواية هشام بن حسان : أنه قال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه : أنك أختي، وإنك أختي في الإسلام، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، فأتاه فقال : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلا لك، فأرسل إليها .. الحديث. فيمكن أن يجمع بينهما : بأن إبراهيم أحسّ بأن الملك سيطلبها منه فأوصاها بما أوصاها، فلما وقع ما حسبه أعاد عليها الوصية قوله : (ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك) يشكل عليه : كون (لوط) كان معه كما قال تعالى : ﴿فآمن له لوط﴾ ويمكن أن يجاب بأن مراده بالأرض التي وقع فيها ما وقع ولم يكن معه لوط إذ ذاك قوله : (فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ) كذا في أكثر الروايات، وفي بعضها (ذهب يناولها يده) وفي رواية مسلم : فقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما دخلت عليه - أي: على الملك - لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، وفي رواية أبي الزناد عن الأعرج من الزيادة فقام إليها، فقامت تتوضأ وتصلي، فغُطّ حتى ركض برجله ، فدعت يعني: أنه اختنق حتى صار كأنه مصروع، ويمكن الجمع بأنه عوقب تارة بقبض اليد، وتارة بانصراعه وقوله : ﴿فدعت﴾ من الدعاء في رواية الأعرج المذكورة، ولفظه : فقالت اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك ،وأحصنت فرجي إلا على زوجي ،فلا تسلط عليّ الكافر .

ويجاب عن قولها : (إن كنت) مع كونها قاطعة بأنه - سبحانه وتعالى - يعلم ذلك بأنها ذكرته على سبيل الفرض؛ هضما لنفسها (فقال : ادعى الله لى ولا أضرك) فى رواية مسلم : (فقال لها : ادعى الله لى أن يطلق يدى ففعلت) فى رواية أبى الزناد المذكورة : (قال أبو سلمة : قال أبو هريرة : قالت : اللهم إن يمت يقولوا : هى التى قتلته قال : فأرسل) قوله : (ثم تناولها الثانية) فى رواية الأعرج (ثم قام إليها، فقامت تتوضأ وتصلى).

قوله : (فأخذ مثلها أو أشد) فى رواية مسلم : فقبضت أشد من القبضة الأولى، قوله : (فدعا بعض حجبته) فى رواية مسلم : ودعا الذى جاء بها ولم أقف على اسمه قوله :(إنك لم تأتنى بإنسان إنما أتيتنى بشيطان) فى رواية الأعرج: وما أرسل إلىّ إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وهذا يناسب ما وقع له من الصرع والمراد بالشيطان : المتمرد من الجن، وكانوا قبل الإسلام يعظمون أمر الجن ويرون كل ما وقع من الخوارق من فعلهم وتصرفهم قوله: (فأخدمها هاجر) أى: وهبها لها لتخدمها؛ لأنه أعظمها أن تخدم نفسها. وفى رواية الأعرج : ويقال إن أباها كان من ملوك القبط، وإنها من (حفن) قرية بمصر قال اليعقوبى : كانت مدينة وهى الآن كفر من عمل (أنصنا) بالبر الشرقى من الصعيد، فى مقابلة (الأشمونين) وفيها آثار عظيمة باقية، قوله : (فأتته) فى رواية الأعرج (فأقبلت تمشى، فلما رآها إبراهيم) قوله : (مهيم) ويقال: إن الخليل أول من قال هذه الكلمة، ومعناها : ما الخبر ؟ قوله : (رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - فى نحره) هذا مثل تقوله العرب لمن أراد أمراً باطلاً فلم يصل إليه، ووقع فى رواية الأعرج :

(أشعرت أن الله كبت الكافر، وأخدم وليدة) أى : جارية للخدمة قوله : (قال أبو هريرة : تلك أمكم يابنى السماء) كأنه خاطب بذلك العرب؛ لكثرة ملازمتهم الفلوات التى بها مواقع القطر، لأجل رعى دوابهم ففيه تمسك لمن زعم أن العرب كلهم من ولد إسماعيل وقيل : أراد بماء السماء : زمزم لأن الله أنبعها لهاجر، فعاش ولدها بها، فصاروا كأنهم أولادها قال ابن حبان فى صحيحه : كل من كان من ولد إسماعيل يقال له : ماء السماء؛ لأن إسماعيل ولد هاجر، وقد ربى بماء زمزم، وهى من ماء السماء وقيل : سموا بذلك لخلوص نسبهم وصفائه، فأشبه ماء السماء ويقال : إن الله كشف لإبراهيم حتى رأى حال الملك مع سارة معاينة، وأنه لم يصل إلى شئ، ذكر ذلك فى (التيجان) ولفظة : فأمر بإدخال إبراهيم وسارة عليه، ثم نحى إبراهيم إلى خارج القصر، وقام إلى سارة، فجعل الله القصر لإبراهيم كالقارورة الصافية، فصار إبراهيم يراهما ويسمع كلامهما.

ويلاحظ أن رواية البخارى هذه عن أبى هريرة لم ينسب الحديث فيها إلى رسول الله - ﷺ - على العكس من رواية البخارى عن الأعرج عن أبى هريرة، ونصها كما يلى[1] :

(حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال النبى - ﷺ - هاجر إبراهيم - عليه السلام - بسارة، فدخل بها قرية فيها ملك من

(١) فتح البارى، المجلد الرابع، ص ٤١٠، ٤١١.

الملوك ـ أو جبَّار من الجبابرة ـ فقيل : دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء فأرسل إليه : أن يا أبراهيم من هذه التي معك ؟ قال : أختي، ثم رجع إليها، فقال : لا تكذّبي حديثي، فإني أخبرتهم : أنك أختي، والله إنْ على الأرض من مؤمن غيري وغيرك، فأرسل بها إليه، فقام إليها، فقامت توضأ وتُصلي، فقالت : اللهم إن كنتُ آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر فغُطَّ حتى ركض برجله، قال الأعرج : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : إن أبا هريرة قال : قالت : اللهم إن يمتْ يقال : هي قتلته فأُرسل، ثم قام إليها، فقامت توضأ وتصلي، وتقول : اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تُسلّط عليّ هذا الكافر فغُط حتى ركض برجله، قال عبدالرحمن : قال أبوسلمة : قال أبو هريرة : قالت : اللهم إن يمت يقال : هي قتلته فأرسل في الثانية، أو في الثالثة، فقال : والله ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها (آجر)[1] فرجعت إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقالت : أشعرتَ أن الله كبَتَ الكافر ؟! وأخدم وليدة ؟!

ثانياً : في صحيح مسلم بشرح النووي ـ وهو قريب مما ذكره البخاري ـ في لفظه ومعناه : إضافة إلى أنه نُسب إلى رسول الله ﷺ ـ مثل رواية الأعرج عن أبي هريرة التي ذكرها البخاري[2] يقول : (حدثني أبو الطاهر، أخبرنا عبد الله بن وهب، أخبرني

(١) يقصد هاجر لغتان. (٢) صحيح مسلم (٤٣ / ١٥٤).

ابن حازم، عن أيوب السَّخْتياني، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة: أن رسول الله - ﷺ - قال: فإنه يعني سيدنا إبراهيم قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه: أنك أختي فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، آتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأتى بها، فقام إبراهيم - عليه السلام - إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقُبضت يدُه قبضة شديدة فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت فعاد، فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأولين فقال: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ففعلت، وأطلقت يده ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخْرِجْها من أرضي، وأعطها هاجر قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم - عليه السلام - انصرف، فقال لها: (مهيم) قالت: خيراً، كفَّ الله يد الفاجر، وأخدم خادماً، قال أبو هريرة: فتلك أمكم يابني ماء (السماء).

يقول النووي - شارح الحديث -: قوله (فلك الله) أي شاهداً أو ضامناً أن لا أضُرك، وقوله: (مَهْيَم) - بفتح الميم والياء، وإسكان الهاء بينهما - أي: ماشأنك؟ وما خبرك؟ وقوله: (وأخدم خادماً) أي: وهبني خادماً، وهي هاجر ويقال: آجر.

ثالثاً: وابن كثير ذكر هذه القصة كاملة في تفسيره، وفي كتابه

«قصص الأنبياء» على العكس من القرطبى، والطبرى، والفتوحات الإلهية - أخذاً من رواية أبى هريرة عن رسول الله ﷺ - .

يقول فى تفسيره [1] : (. . . وفى الصحيحين من حديث هشام ابن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ - قال : [وبينا هو - يعنى إبراهيم - يسير فى أرض جبار من الجبابرة - ومعه سارة - إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل، فقال : إنه نزل ههنا رجل بأرضك، معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختى قال : فاذهب فأرسل بها إلىَّ، فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألنى عنك، فأخبرته أنك أختى، فلا تكذبينى عنده، فإنك أختى فى كتاب الله، وإنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك، فانطلق بها إبراهيم، ثم قام يصلى، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها، فتناولها، فأُخذ أخذاً شديداً فقال : ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت له، فأرسل فأهوى إليها، فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ، فذكر مثل المرتين الأولين فقال : ادعى لله، فلا أضرك، فدعت له، فأرسل ثم دعا أدنى حجابه، فقال : إنك لم تأتنى بإنسان، ولكنك أتيتنى بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، وقال : مَهْيَم قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخدمنى هاجر قال محمد بن سيرين : فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يابنى ماء السماء] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، ص ١٧٥ الجزء السابع عشر.

ويقول في قصص الأنبياء [1] : « بعد أن قال إن أهل الكتاب ذكروا قصة سارة مع ملكها، وأن إبراهيم قال لها : قولي أنا أخته، وذكروا إخدام الملك إياها هاجر » . . .

وقال البخاري : « حدثنا محمد بن محجوب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة، قال : بينا هو - يعني سيدنا إبراهيم - ذات يوم وسارة إذ أتى إلى جبار من الجبارة، فقيل له : إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها، فقال : من هذه ؟ قال : أختي، فأتى سارة، فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ، فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله، فأطلق، ثم تناولها الثانية، فأُخذ مثلها أو أشد، فقال : إنكم لم تأتوني بإنسان وإنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده : مهيم ؟ أي : ما الخبر ؟ فقالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر. وفي رواية : وأخدم جارية » . قال أبو هريرة : تلك أمكم يابني ماء السماء .

تفرد به من هذا الوجه موقوفاً وفي ذيل الصفحة للمحقق : (الحديث رواه البخاري في صحيحه (٦٠ / ٨ / ٣٣٥٨ / فتح) ورواه الترمذي في سننه (٤٤ / ٧ / ٩) ورواه أحمد في مسنده (١ / ٢٨١، ٢٩٥)، (٢ / ٤٠٣) ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢٧١١) .

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ص ١٣١ - ١٣٤ .

ويقول ابن كثير : (وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار ، عن عمرو ابن على الفلاس ، عن عبد الوهاب الثقفى ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - قال : [. . . وبينا هو - يعني سيدنا إبراهيم - يسير فى أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلاً ، فأتى الجبار ، فقيل له : إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه ، فسأله عنها ، فقال : إنها أختى فلما رجع إليها قال : إن هذا سألنى عنك فقلت إنك أختى ، وإنه ليس اليوم مسلم غيرى وغيرك ، وإنك أختى فلا تكذبينى عنده . فانطلق بها ، فلما ذهب يتناولها أُخذ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت له فأرسل فذهب يتناولها ، فأخذ مثلها أو أشد منها ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت ، فأرسل ، ثلاث مرات ، فدعا أدنى حشمه فقال : إنك لم تأتنى بإنسان ولكن أتيتنى بشيطان ، أخرجها ، وأعطها هاجر فجاءت وإبراهيم قائم يصلى ، فلما أحس بها انصرف فقال : مهيم ؟ فقالت : كف الله كيد الظالم ، وأخدمنى هاجر] فى الهامش روى نحوه ابن عساكر فى تاريخه (٢ / ١٤٣) ويقول ابن كثير : (وأخرجاه من حديث هشام ثم قال البزار : لا يعلم سنده عن محمد عن أبى هريرة إلا هشام ، ورواه غيره موقوفاً .

وقال الإمام أحمد : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، فقيل : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار : من هذه معك ؟

قال : أختى ، قال : فأرسل بها إليه ، وقال : لا تكذبى قولى ، فإنى قد أخبرته : أنك أختى ، إنْ ما على الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت فرجى إلا على زوجى ، فلا تسلط علىَّ الكافر ، قال : فغط حتى ركض برجله قال أبوالزناد : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : عن أبى هريرة : أنها قالت : اللهم إن يمت يقال هى قتلته ، قال : فأرسل قال : ثم قام إليها ، قال : فقامت تتوضأ وتصلى وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت فرجى إلا على زوجى ، فلا تسلط علىَّ الكافر قال : فَغُطَّ حتى ركض برجله قال أبو الزناد : وقال أبوسلمة عن أبى هريرة أنها قالت : اللهم إن يمت يقال هى قتلته ، قال : فأرسل ، قال : فقال فى الثالثة أو الرابعة : ما أرسلتم إلىَّ إلا شيطاناً ، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر قال : فرجعت ، فقالت لإبراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافر وأخدم وليدة ؟ !

يقول ابن كثير : تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهو على شرط الصحيح ، وقد رواه البخارى عن أبى اليمان ، عن شعيب بن أبى حمزة ، عن أبى الزناد ، عن أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - مختصراً وقوله فى الحديث : [هى أختى أى فى دين الله] وقوله لها : (إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك) يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك . ويتعين حمله على هذا ؛ لأن لوطاً كان معهم وهو نبى (عليه السلام) .

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ص ١٣١ - ١٣٤.

وقد مر بنا ما أجاب به (ابن جرير) شارح حديث البخارى على الإشكال الذى قيل على هذه العبارة (ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك) حيث كان معه لوط كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط ﴾ فقال ابن جرير : (ويمكن أن يجاب بأن مراده يعنى مراد سيدنا إبراهيم بالأرض التى وقع فيها ما وقع ، ولم يكن معه لوط إذ ذاك ، أى : عند الملك . يقول ابن كثير : وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلى لله عز وجل ، ويسأله أن يرفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء ، وهكذا فعلت هى أيضا ، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمرا قامت إلى وضوئها وصلاتها ، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ فعصمها الله ، وأصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة : سارة ، وأم موسى ، ومريم ـ عليهن السلام ـ والذى عليه الجمهور : أنهن صدّيقات ـ رضى الله عنهن وأرضاهن ـ ورأيت فى بعض الآثار : أن الله ـ عز وجل ـ كشف الحجاب فيما بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبينهما ، فلم يرها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه ، وكان مشاهداً لها وهى عند الملك ، وكيف عصمها الله منه ؛ ليكون ذلك أطيب لقلبه ، وأقر لعينه ، وأشد لطمأنينته ، فإنه كان يحبها حبًا شديداً لدينها ، وقرابتها منه ، وحسنها الباهر ، فإنه قيل : إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها ـ رضى الله عنها ـ ولله الحمد والمنة .

وذكر بعض أهل التواريخ : أن فرعون مصر هذا كان أخاً للضحاك : الملك المشهور بالظلم ، وكان عاملاً لأخيه على مصر ويقال : كان اسمه (سنان بن علوان بن عويج بن عملاق بن لاوذ ابن سام بن نوح) .

وذكر ابن هشام في التيجان : أن الذى أرادها (عمرو بن امرئ القيس بن مايلون بن سبأ) وكان على مصر ، نقله السهيلي . والله أعلم .

من هذا العرض لأحداث قصة السيدة سارة مع ملك مصر يتضح لنا أن المصدر الأساسي لها هو روايات أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعة أحياناً إلى رسول الله - ﷺ - وتارة غير مرفوعة كما جاءت في صحيح مسلم وغيره من الكتب الصحاح التي أشرنا إليها .

ولم يأت في القرآن الكريم أى إشارة إلى أحداث القصة .

أقوال سيدنا إبراهيم المخالفة للواقع فى الظاهر

مرت بنا (فى أحداث تحطيم إبراهيم للأصنام ومحاكمته ثم هجرته إلى (حران) ورحلته إلى مصر مجموعة من أقوال سيدنا إبراهيم، جاءت فى ظاهرها مخالفة للواقع.

الأول: كما جاء فى سورة الصافات حين طلب منه أبوه وقومه أن يخرج معهم للاحتفال بعيدهم فقال لهم: ﴿إنى سقيم﴾.

الثانى: كما جاء فى سورة الأنبياء حين كسر الأصنام وسألوه ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ فقال لهم: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾.

الثالث: كما جاء فى سورة الأنعام لما جَنَّ عليه الليل ورأى كوكب الزهرة، ثم رأى القمر فقال: هذا ربى، ذلك عند القرطبى، بناء على ما رواه مسلم فى حديث الشفاعة.

الرابع: قوله عن زوجه سارة: إنها أختى حين سأله عنها ملك مصر وأوصاها أن تقول للملك إذا سألها: إنى أخته.

وقد جاء وصف لهذه الأقوال وحصرها فى صحيح البخارى، كمايلى [1]:

١ - رواية مجملة لأبى هريرة مسندة إلى رسول الله - ﷺ - تقول: حدثنا سعيد بن تليد الرُعينى أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنى جرير

(١) فتح البارى، المجلد السادس، ص ٣٨٨/ ٣٣٥٧، ٣٣٥٨.

ابن حازم، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : [لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات].

٢ - مقدمة الرواية التي ذكرناها في الموضوع السابق، وتقول [(١)]: (حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله - عز وجل - قوله: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى عليه جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه، فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك فأخبرته: أنك أختي، فلا تكذبيني... الخ. وقد نبهنا إلى أن هذه الرواية لم تسند إلى رسول الله - ﷺ - ونضيف بأن هذه المقدمة وصفت أقوال سيدنا إبراهيم هذه بأنها (كذبات).

٣ - الرواية التي مرت بنا في الموضوع السابق، ورواها البخاري عن الأعرج عن أبي هريرة، وأسند فيها الحديث إلى رسول الله - ﷺ - ليس بها إلا قول إبراهيم لملك مصر عن سارة: (إنها أختي) دون ذكر لذلك الوصف بالكذبات [(٢)].

---

(١) فتح الباري، المجلد السادس، ص ٣٨٨ / ٣٣٥٧، ٣٣٥٨.

(٢) فتح الباري، المجلد الرابع، ص ٤١٠ / ٢٢١٧.

٤ ـ وفي صحيح مسلم جاء في وصف وحصر هذه الأقوال في مقدمة الرواية التي ذكرناها في الموضوع السابق، وأسند فيها الحديث إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فيما رواه أبو هريرة أيضاً تقول [١]: حدثني أبو الطاهر، أخبرنا عبد الله بن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن أيوب السَّخْتِياني، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: [لم يكذب إبراهيم النبي ـ عليه السلام ـ قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله: قوله ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وواحدة في شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك ....] إلى آخر الرواية.

٥ ـ ثم جاءت هذه الأقوال في حديث الشفاعة ـ كما رواه البخاري ومسلم ـ وسوف نذكره فيما بعد.

فكيف كانت مواقف المحدثين والمفسرين والمؤرخين من هذه الأقوال؟

---

(١) صحيح مسلم (٤٣ / ١٥٤).

أولاً : موقف المحدِّثين من هذه الأقوال

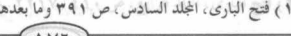
١ - يقول ابن حجر شارح صحيح البخارى [١] : (فى الروايتين التاليتين) .

أ - ٣٣٥٧ - حدثنا سعيد بن تليد الرُّعَيْنِىّ، أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنى جرير بن حازم، عن أيوب، عن محمد، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : [لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات] .

ب - ٣٣٥٨ - حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب، عن محمد، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : (لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات ثنتين منهن فى ذات الله - عز وجل -: قوله : ﴿إنى سقيم﴾ وقوله : ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ . وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له : إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها، فقال : من هذه ؟ قال : أختى، فأتى سارة قال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك، وإن هذا سألنى عنك، فأجبته : أنك أختى، فلا تكذبينى . . . إلى آخر الرواية) .

يقول : قوله : حدثنا سعيد بن تلبيد الرعينى : مصرى مشهور و(أيوب) هو (السختيانى) و (محمد) هو : (ابن سيرين) ولم يقع التصريح برفعه فى روايته .

(١) فتح البارى، المجلد السادس، ص ٣٩١ وما بعدها .



ورواه عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد فصرح برفعه، وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر غير مرفوع.

والحديث في الأصل مرفوع كما في رواية جرير بن حازم وكما في رواية هشام بن حسان عن ابن سيرين ورواية الأعرج عن أبي هريرة ولكن ابن سيرين كان - غالبا - لا يصرح برفع كثير من حديثه.

وهذه العبارة الأخيرة لابن حجر عن ابن سيرين نرد بها على ما نبهنا إليه من أن رواية ابن سيرين هذه لم تسند إلى رسول الله ﷺ. ثم يتابع ابن حجر تفسيره للروايتين فيقول: قوله: [لم يكذب إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلا ثلاث كذبات].

قال أبو البقاء: الجيد أن يقال بفتح الذال في الجمع (كذَبات) لأنه جمع كذْبة بسكون الذال، وهو اسم لا صفة «جاءت هذه الكلمة في متن الرواية في صحيح البخاري بكسر الذال (كذِبات) دون تعليل».

وقد أورد على هذا الحصر ما رواه مسلم من حديث أبي زرعة، عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل فقال في قصة إبراهيم وذكر كذباته ثم ساقه من طريق أخرى - من هذا الوجه - وقال في آخره: وزاد في قصة إبراهيم: وذكر قوله في الكوكب ﴿هذا ربي﴾ وقوله لآلهتهم: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وقوله: ﴿إني سقيم﴾ انتهى.

يقول ابن حجر: قال القرطبي: ذكر الكوكب يقتضي أنها أربع، وقد جاء في رواية ابن سيرين بصيغة الحصر، فيحتاج في ذكر الكوكب إلى تأويل قلت: الذي يظهر أنها وهم من بعض الرواة،

فإنه ذكر قوله في الكوكب بدل قوله في سارة . والذى اتفقت عليه الطرق ذكر سارة دون الكوكب ، وكأنه لم يُعَدّ ، مع أنه أدخل من ذكر سارة؛ لما نقل أنه قاله في حالة الطفولية ، فلم يعدها لأن حال الطفولية ليست بحال تكليف وهذه طريقة ابن إسحاق ، وقيل : إنما قال ذلك بعد البلوغ ، لكنه قاله على طريق الاستفهام الذى يقصد به التوبيخ وقيل : قاله على طريق الاحتجاج على قومه تنبيها على أن الذى يتغير لا يصلح للربوبية ، وهذا قول الأكثر أنه قال توبيخاً لقومه أو تهكماً بهم وهو المعتمد ، ولهذا لم يُعَدّ ذلك في الكذبات ، وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة ، فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً ، لكنه إذا حقق لم يكن كذباً لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين ، فليس بكذب محض ، فقوله : ﴿ إني سقيم ﴾ يحتمل أن يكون أى : سأسقم ، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيراً ، ويحتمل أنه أراد إني سقيم بما قدر عليّ من الموت ، أو سقيم الحجة على الخروج معكم . وحكى النووى عن بعضهم أنه كان تأخذه الحمى في ذلك الوقت - وهو بعيد - لأنه لو كان كذلك لم يكن كذباً لا تصريحاً ولا تعريضاً وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ قال القرطبي : هذا قاله تمهيداً للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة ، وقطعاً لقومه في قولهم : إنها تضر وتنفع ، وهذا الاستدلال يتجوّز فيه في الشرط المتصل ، ولهذا أردف قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ بقوله : ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ قال ابن قتيبة : معناه : إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا ، فالحاصل أنه مشترط بقوله : ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ أو أنه أسند إليه

ذلك لكونه السبب، وعن الكسائي أنه كان يقف عند قوله: ﴿ بل فعله ﴾ أي: فعله من فعله كائناً من كان ثم يبتدئ: ﴿ كبيرهم هذا ﴾ وهذا خبر مستقل، ثم يقول: فاسألوهم إلى آخره، ولا يخفى تكلفه. وقوله: (هذه أختي) يعتذر عنه بأن مراده: أنها أخته في الإسلام. قال ابن عقيل دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم، وذلك أن العقل بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة في تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه؟! وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم - عليه السلام - يعني إطلاق الكذب على ذلك - إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعاً لأعظمهما، وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تذم، فإن الكذب وإن كان قبيحاً مُخلاً لكنه قد يحسن في مواضع، وهذا منها قوله: (ثنتين منهن في ذات الله) خصهما بذلك لأن قصة سارة - وإن كانت أيضاً في ذات الله - لكن تضمنت حظاً لنفسه، ونفعاً له، بخلاف الثنتين الأخيرتين فإنهما في ذات الله محضاً، وقد وقع في رواية هشام بن حسان المذكورة أن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات، كل ذلك في ذات الله وفي حديث ابن عباس عن أحمد: (والله إن جادل بهن إلا عن دين الله).

ثم يقول ابن حجر: واختلف في السبب الذي حمل إبراهيم على هذه الوصية، يعني بها وصية إبراهيم لسارة أن تقول للملك إذا

سألها : إننى أخته ، فقيل فى سبب ذلك : كان من دين ذلك الملك ألا يتعرض إلا لذوات الأزواج كذا قيل ، ويحتاج إلى تتمة ، وهو أن إبراهيم أراد دفع أعظم الضررين بارتكاب أخفهما ، وذلك أن اغتصاب الملك إياها واقع لا محالة ، لكن إن علم أن لها زوجاً فى الحياة حملته الغيرة على قتله ، وإعدامه ، أو حبسه ، وإضراره ، بخلاف ما إذا علم أن لها أخاً فإن الغيرة حينئذ تكون من قبل الأخ خاصة ، لا من قبل الملك ، فلا يبالى به ، وقيل : أراد إن علم أنك امرأتى ألزمنى بالطلاق ، والتقدير الذى قدرته جاء صريحا عن وهب بن منبه فيما أخرجه عبد بن حميد فى تفسيره عن طريقه ، وقيل : كان من دين الملك : أن الأخ أحق بأن تكون أخته زوجته من غيره ، فلذلك قال : هى أختى ، اعتماداً على ما يعتقده الجبار فلا ينازعه فيها ، وتعقب بأنه لو كان كذلك لقال : هى أختى وأنا زوجها فلم اقتصر على قوله : هى أختى ؟ وأيضاً فالجواب إنما يفيد : لو كان الجبار يريد أن يتزوجها لا أن يغتصبها نفسها ، وذكر المنذرى فى حاشية السنن عن بعض أهل الكتاب أنه كان من رأى الجبار المذكور أن من كانت متزوجة لا يقربها حتى يقتل زوجها ؛ فلذلك قال إبراهيم : (هى أختى) لأنه لو كان عادلاً خطبها منه ، ثم يرجو مدافعته عنها ، وإن كان ظالماً خلص من القتل ، وليس هذا ببعيد عما قررته أولاً ، وهذا أُخذ من كلام ابن الجوزى فى مشكل الصحيحين فإنه نقله عن بعض علماء أهل الكتاب : (أنه سأله عن ذلك فأجاب به) يقول ابن حجر : وفى الحديث مشروعية أخوة

الإسلام وإباحة المعاريض والرخصة فى الانقياد للظالم والغاصب .. الخ).

٢ ـ ويقول النووى شارح صحيح مسلم [١] : (قال المازنى : أما الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله ـ تعالى ـ فالأنبياء معصومون منه، سواء كثيره وقليله، وأما ما لا يتعلق بالبلاغ ويعد من الصفات كالكذبة الواحدة فى حقير من أمور الدنيا ففى إمكان وقوعه منهم وعصمتهم منه القولان المشهوران للسلف والخلف، قال القاضى عياض : « الصحيح أن الكذب فيما يتعلق بالبلاغ لا يتصور وقوعه منهم سواء جوزنا الصغائر منهم وعصمتهم منه أم لا ، وسواء قل الكذب أم كثر؛ لأن منصب النبوة يرتفع عنه، وتجويزه يرفع الوثوق بأقوالهم » وأما قوله ـ ﷺ ـ : [ثنتين فى ذات الله تعالى وواحدة فى شأن سارة] فمعناه : أن الكذبات المذكورة هى بالنسبة إلى فهم المخاطب والسامع وأما فى نفس الأمر فليست كذباً مذموماً لوجهين : أحدهما : أنه ورى بها، فقال فى سارة : أختى فى الإسلام وهو صحيح فى باطن الأمر، والوجه الثانى : أنه لو كان كذباً لا تورية فيه لكان جائزاً فى دفع الظالمين، وقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنساناً مختفياً ليقتله، أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصباً وسأل عن ذلك وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به، وهذا الكذب جائز بل واجب ؛ لكونه فى دفع الظالم، فنبه النبى ـ ﷺ ـ على أن هذه الكذبات ليست داخلة فى

(١) صحيح مسلم (٤٣ / ١٥٤).

مطلق الكذب المذموم، قال المازني : (وقد تأول بعضهم هذه الكلمات وأخرجها عن كونها كذباً، قال : ولا معنى للامتناع من إطلاق لفظ أطلقه رسول الله - ﷺ -) .

قلت : أما إطلاق لفظ (الكذبات) عليها فلا يمتنع لورود الحديث به .

وأما تأويلها فصحيح لا مانع منه، قال العلماء : والواحدة في شأن سارة هي أيضاً في ذات الله - تعالى - لأنها سبب دفع كافر ظالم عن مواقعة فاحشة عظيمة، وقد جاء ذلك مفسراً في غير مسلم، فقال : (ما فيها كذبة إلا يُماحلُ بها عن الإسلام، أي : يجادل ويدافع قالوا : وإنما خصَّ اثنتين بأنهما في ذات الله - تعالى - لكون الثالثة تضمنت نفعاً له وحظاً مع كونها في ذات الله - تعالى - وذكروا في قوله : ﴿إني سقيم﴾ أي : سأسقم، لأن الإنسان عرضة للأسقام وأراد بذلك : الاعتذار عن الخروج معهم إلى عيدهم، وشهود باطلهم وكفرهم، وقيل : سقيم بما قدر علي من الموت، وقيل : كانت تأخذه الحمى في ذلك الوقت وأما قوله : ﴿بل فعله كبيرهم﴾ فقال ابن قتيبة وطائفة : جعل النطق شرطاً لفعل كبيرهم أي فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون، وقال الكسائي : يوقف عند قوله : ﴿بل فعله﴾ أي : فعله فاعله، فأضمر، ثم يبتدئ فيقول : ﴿كبيرهم هذا فاسألوهم﴾ عن ذلك الفاعل، وذهب الأكثرون إلى أنها على ظاهرها، وجوابها ماسبق والله أعلم .

أما حديث الشفاعة الذى أشار إليه ابن حجر فقد رأيت أن أذكره كاملاً كما جاء في صحيح البخارى استكمالاً للفائدة يقول [1] :

« حدثنا مُسدَّد ، حدثنا أبو عوانة ، عن قتادة ، عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : [يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا ! ! فيأتون آدم فيقولون : أنت الذى خلقك بيده ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا عند ربنا ، فيقول : لستُ هناكم ، ويذكرُ خطيئته ويقول ائتوا نوحاً ، أول رسول بعثه الله ، فيأتونه ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا إبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً ، فيأتونه ، فيقول : لست هناكم ويذكر خطيئته ، ائتوا موسى الذى كلمه الله ، فيأتونه فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته ، ائتوا عيسى ، فيأتونه ، فيقول : لست هناكم ، ائتوا محمداً - ﷺ - فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتونى ، فأستأذن على ربى ، فإذا رأيته وقعت له ساجداً ، فيَدعُنى ما شاء الله ، ثم يقال لى : ارفع رأسك وسلْ تُعطَه ، وقُلْ يُسمع ، واشفعْ تُشفَّع ، فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنى ثم أشفع ، فيحدّ لى حداً ، ثم أُخْرِجهم من النار وأُدْخِلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجداً مثله فى الثالثة أو الرابعة حتى مايبقى فى النار إلا من حبسه (القرآن)] وكان قتادة يقول عند هذا : أى وجب عليه الخلود » .

ثم نكتفى بتوضيح هذه الخطايا كما ذكر ابن حجر يقول [2] :

---

(١) فتح البارى ، المجلد الحادى عشر : ص ٤١٧ ، ٤١٨ .
(٢) فتح البارى ، المجلد الحادى عشر : ص ٤٣٣ وما بعدها .

١ - قوله : (فيأتون آدم) فى رواية مسلم (يا آدم أنت أبو البشر) قوله : (خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه) زاد فى رواية همام : (وأسكنك جنته ، وعلمك أسماء كل شئ) قوله : (فاشفع لنا عند ربنا) فى رواية مسلم (عند ربك) وزاد أبو هريرة (ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما بلغناه) قوله : (لست هناكم) قال عياض : قوله لست هناكم كناية عن أن منزلته دون المنزلة المطلوبة ، قاله تواضعاً وإكباراً لما يسألونه قال : وقد يكون فيه إشارة إلى أن هذا المقام ليس لى بل لغيرى قلت : وقد وقع فى رواية معبد بن هلال : فيقول : لست لها وكذا بقية المواضع وفى رواية حذيفة لست بصاحب ذاك وهو يؤيد الإشارة المذكورة قوله : (ويذكر خطيئته) زاد مسلم : (التى أصاب) أى : أصابها زاد همام فى روايته : (أكله من الشجرة وقد نهى عنها) وفى رواية هشام : (فيذكر ذنبه فيستحى) وفى رواية ابن عباس : (أنى قد أخرجت بخطيئتى من الجنة) وفى رواية أبى نضرة عن أبى سعيد : (إنى أذنبت ذنباً فأهبطت به إلى الأرض) وفى رواية حذيفة وأبى هريرة معاً : (هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم) وفى رواية ثابت عن سعيد بن منصور : (إنى أخطأت وأنا فى الفردوس ، فإن يغفر لى اليوم حسبى) وفى حديث أبى هريرة : (إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى) .

٢ - قوله : (ائتوا نوحاً فيأتونه) وفى رواية مسلم : (ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى الأرض ، فيأتون نوحاً) .

وفي حديث أبي هريرة : (اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً) وفي حديث أبي بكر : (انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم : إلى نوح ، ائتوا عبدا شكورا فينطلقون إلى نوح ، فيقولون : يا نوح اشفع لنا عند ربك ، فإن الله اصطفاك ، واستجاب لك في دعائك ، ولم يدع على الأرض من الكافرين ديارا) ويجمع بينهما بأن آدم سبق إلى وصفه بأنه أول رسول فخاطبه أهل الموقف بذلك وقد استشكلت هذه الأولية بأن آدم نبي مرسل وكذا شيث وإدريس ، وهم قبل نوح ومحصل الأجوبة عن الإشكال : أن الأولية مقيدة بقوله : (أهل الأرض) لأن آدم ومن ذكر معه لم يرسلوا إلى أهل الأرض أو الأولية مقيدة بكونه أهلك قومه أو أن الثلاثة كانوا أنبياء ولم يكونوا رسلاً ومن الأجوبة أن رسالة آدم كانت إلى بنيه ، وهم موحدون لعلمهم شريعته ونوح كانت رسالته إلى قوم كفار يدعوهم إلى التوحيد قوله : (فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها) وفي رواية هشام : (ويذكر سؤال ربه ما ليس له به علم) وفي رواية شيبان سؤال الله وفي حديث أبي هريرة : (إني دعوت بدعوة أغرقت أهل الأرض) ويجمع بينه وبين الأول : بأنه اعتذر بأمرين ، أحدهما : نهى الله تعالى له أن يسأل ما ليس به علم ، فخشي أن تكون شفاعته لأهل الموقف من ذلك ، ثانيهما : أن له دعوة واحدة محققة الإجابة ، وقد استوفاها بدعائه على أهل الأرض ، فخشي أن يطلب فلا يجاب وقال بعض الشراح : كان الله وعد نوحاً أن ينجيه وأهله ،

فلما غرق ابنه ذكر لربه ما وعده، فقيل له : المراد من أهلك من آمن وعمل صالحاً، فخرج ابنك منهم، فلا تسأل ما ليس لك به علم.

٣ ـ قوله : (ائتوا إبراهيم) في رواية مسلم : (ولكن ائتوا إبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً) قوله : (فيأتونه) وفي رواية مسلم : (فيأتون إبراهيم) زاد أبو هريرة في حديثه : (فيقولون يا إبراهيم، أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض، قم اشفع لنا إلى ربك) وذكر مثل ما لآدم قولاً وجواباً، إلا أنه قال : (قد كنت كذبت ثلاث كذبات) وذكرهن قوله : (فيقول : لست هناكم، ويذكر خطيئته) زاد مسلم (التى أصاب، فيستحى ربه منها) وفي رواية همام (إنى كنت كذبت ثلاث كذبات) زاد شيبان في روايته قوله : (إنى سقيم ﴾ وقوله : ﴿ فعله كبيرهم هذا) وقوله لامرأته : (أخبريه أني أخوك) وفي رواية أبي نضرة، عن أبي سعيد (فيقول : إني كذبت ثلاث كذبات قال رسول الله ـ ﷺ ـ : [ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله] وما حل بمعنى جادل ووقع في رواية حذيفة : (لست بصاحب ذاك إنما كنت خليلاً من وراء وراء) ومعناه : لم أكن في التقريب والإدلال بمنزلة الحبيب قال صاحب التحرير : كلمة تقال على سبيل التواطئ، أى : لست في تلك الدرجة قال : وقد وقع لى فيه معنى مليح، وهو أن الفضل الذى أعطيته كان بسفارة جبريل، ولكن ائتوا موسى الذى كلمه الله بلا واسطة وكرر (وراء) إشارة إلى نبينا ـ ﷺ ـ لأنه حصلت له الرؤية والسماع بلا واسطة، فكأنه قال : أنا من وراء موسى الذى هو من وراء محمد.

قال البيضاوى : الحق أن الكلمات الثلاث إنما كانت من معاريض الكلام ، لكن لما كانت صورتها الكذب أشفق منها استصغاراً لنفسه عن الشفاعة مع وقوعها ؛ لأن من كان أعرف بالله وأقرب إليه منزلة كان أعظم خوفاً .

٤ ـ قوله : (ائتوا موسى الذى كلمه الله) فى رواية مسلم : (ولكن ائتوا موسى) وزاد : (وأعطاه التوراة) زاد همام فى روايته : (وقربه نجياً) قوله : (فيأتونه) فى حديث أبى هريرة : (فيقولون : يا موسى ، أنت رسول الله ، فضلك الله برسالته وكلامه على الناس ، اشفع لنا) فذكر مثل آدم قولاً وجواباً ، لكنه قال : (إنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها) قوله : (فيقول لست هناكم) زاد مسلم : (فيذكر خطيئته التى أصاب : قتل النفس) .

وفى رواية ثابت عن سعيد بن منصور : إنى قتلت نفساً بغير نفس ، وإن يغفر لى اليوم حسبى .

٥ ـ قوله : (ائتوا عيسى) زاد مسلم : (روح الله وكلمته) وفى رواية هشام : (عبد الله ورسوله ، وكلمته وروحه) وفى حديث أبى بكر : (فإنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى) قوله : (فيأتونه) وفى رواية مسلم : (فيأتون عيسى ، فيقول : لست هناكم) وفى حديث أبى هريرة : (فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وكلمت الناس فى المهد صبياً ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ! مثل آدم قولاً وجواباً لكن قال : ولم يذكر ذنباً) لكن وقع فى رواية الترمذى من حديث أبى نضرة ، عن أبى سعيد : (إنى عبدت من

دون الله) وفي رواية أحمد والنسائي، من حديث ابن عباس : (إني عُبِدْتُ إلها من دون الله) وفي رواية أحمد والنسائي من حديث ابن عباس : (إني أُتُخِذْتُ إلها من دون الله) وفي رواية سعيد بن منصور نحوه، وزاد : (وإن يغفر لي اليوم حسبي) .

٦ ـ قوله : (ائتوا محمداً ﷺ ، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وماتأخر) . وفي رواية مسلم : (عبد غفر له . . . الخ) زاد ثابت : (من ذنبه) وفي رواية هشام : (غفر الله له) وفي رواية معتمد : (انطلقوا إلى من جاء اليوم مغفورا له، ليس عليه ذنب) وفي رواية ثابت أيضا : (خاتم النبيين قد حضر اليوم، أرأيتم لو كان متاع في وعاء فقد ختم عليه، أكان يقدر على ما في الوعاء حتى يفض الخاتم ؟!) .

وفي حديث أبي بكر : (ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم؛ فإنه أول من تنشق عنه الأرض) قوله : (فيأتوني) ووقع في رواية معبد بن هلال : (فيأتوني، فأقول : أنا لها، أنا لها) زاد عقبة بن عامر : (فيأذن الله لي ، فأقوم فيثور من مجلسي أطيب ريح شمها أحد) وفي حديث سلمان عن أبي بكر بن أبي شيبة : (يأتون محمداً، فيقولون : يا نبي الله أنت الذي فتح الله بك وختم، وغفر لك ما تقدم وما تأخر، وجئت في هذا اليوم آمنا، وترى ما نحن فيه، فقم فاشفع لنا إلى ربنا، فيقول : أنا صاحبكم فيجوز الناس حتى ينتهي إلى باب الجنة) قوله : (فأستأذن) في رواية هشام : (فأنطلق حتى أستأذن) قوله : (على ربي) زاد همام : (في داره، فيؤذن لي) قوله : (فإذا رأيته وقعت له ساجدا) .

فى رواية أبى بكر : (فآتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربى) وفى رواية لابن حبان عن أنس : (فيتجلى له الرب، ولا يتجلى لشئ قبله) وفى حديث أبيّ بن كعب (يعرّفنى الله نفسه فأسجد له سجدة يرضى بها عنى، ثم أمتدحه مدحة يرضى بها عنى) قوله : (فيدعنى ما شاء الله) وفى حديث عبادة بن الصامت : (فإذا رأيت ربى خررت له ساجدا، شاكرا له) وفى رواية معبد بن هلال : (فأقوم بين يديه فيلهمنى محامد لا أقدر عليها الآن، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرُ له ساجداً) وفى حديث أبى بكر الصديق : (فينطلق إليه جبريل فيخر ساجدا قدر جمعة) قوله : (ثم يقال لى : ارفع رأسك) فى رواية مسلم : (فيقال : يامحمد) وكذا فى أكثر الروايات، وفى رواية النضر بن أنس (فأوحى الله إلى جبريل أن اذهب إلى محمد فقل له : ارفع رأسك) فعلى هذا فالمعنى : (يقول لى على لسان جبريل) قوله : (وسل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع) وفى حديث سلمان : (فينادى : يامحمد ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع، وادع تجب) قوله : (فأرفع رأسى، فأحمد ربى بتحميد يعلمنى) وفى رواية ثابت (بمحامد لم يحمده بها أحد قبلى ولا يحمده بها أحد بعدى) وفى حديث سلمان (فيفتح الله له من الثناء والتحميد والتمجيد ما لم يفتح لأحد من الخلائق) وكأنه - ﷺ - يلهم التحميد قبل سجوده ... وبعده ... وفيه : (ويكون فى كل مكان ما يليق به) وقد ورد ما لعله يفسر به بعض ذلك لا جميعه ففى النسائى ومصنف عبد الرزاق ومعجم الطبرانى، من حديث حذيفة يرفعه، قال : (يجمع الناس فى صعيد واحد، فيقال :

يا محمد، فأقول : لبيك وسعديك والخير في يديك والمَهْديُّ مَنْ هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك تباركت وتعاليت سبحانك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك) زاد عبد الرزاق : (سبحانك رب البيت) فذاك قوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ (١) قال ابن منده : هذا حديث مجمع على صحة إسناده، وثقة رواته)

قوله : (ثم اشفع) في رواية معبد بن هلال : (فأقول : رب أمتي أمتي أمتي) وفي حديث أبي هريرة نحوه قوله : (فيحد لي حداً) يبين لي في كل طور من أطوار الشفاعة حداً أقف عنده، فلا أتعداه مثل أن يقول : شفعتك في من أخلَّ بالجماعة ثم في من أخل بالصلاة، ثم في من شرب الخمر، ثم في من زنى وعلى هذا الأسلوب كذا حكاه الطيبي والذي يدل عليه سياق الأخبار : أن المراد به تفضيل مراتب المخرجين، وفي الأعمال الصالحة، كما في رواية هشام عن قتادة، عن أنس، بلفظ : (يخرج من النار منْ قال : لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة ....) وفي رواية ثابت عند أحمد : (فأقول : أي ربِّ، أمتي، أمتي. فيقول : أخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة) ثم ذكر نحو ما تقدم وقال : (مثقال ذرة) ثم قال : (مثقال حبة من خردل) ووقع من طريق النضر بن أنس، قال : (فشفعت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً، فمازلت أتردد على ربي، لا أقوم منه مقاماً إلا شفعت) وفي حديث سلمان : (فليشفع في كل من كان في قلبه مثقال حبة من حنطة، ثم شعيرة، ثم حبة من خردل، فذلك المقام المحمود) .

(١) الآية ٧٩ من سورة الإسراء .

قوله : (ثم أخرجهم من النار) قال الداودى : كأن راوى هذا الحديث ركب شيئاً على غير أصله ، وذلك أنّ فى أول الحديث ذكر الشفاعة فى الإراحة من كرْب الموقف ، وفى آخره ذكر الشفاعة فى الإخراج من النار ، يعنى : وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف ، والمرور على الصراط ، وسقوط مَنْ يسقط - فى تلك الحالة - فى النار ، ثم يقع بعد ذلك الشفاعة فى الإخراج قال عياض : (لأن الشفاعة التى لجأ الناس إليه فيها هى الإراحة من كرب الموقف ثم تجئ الشفاعة فى الإخراج) قوله : (ثم أعود فأقع ساجداً مثله فى الثالثة أو الرابعة) وفى رواية هشام : (فأحد لهم حداً ، فأدخلهم الجنة ، ثم أرجع ثانياً فأستأذن) إلى أن قال : (ثم أحد لهم حداً ثالثاً فأدخلهم الجنة ثم أرجع) .

هكذا فى أكثر الروايات ووقع عند أحمد من رواية سعيد ، عن أبى عروبة ، عن قتادة : (ثم أعود الرابعة فأقول : يارب ، ما بقى إلا من حبسه القرآن) ووقع فى رواية معبد بن هلال عن أنس : أن الحسن حدث معبدا بعد ذلك بقوله : (فأقوم الرابعة) وفيه قول الله له : (ليس ذلك لك) (وأن الله يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وإن لم يعمل خيراً قط) فعلى هذا فقوله : (حبسه القرآن) يتناول الكفار وبعض العصاة ممن ورد فى القرآن حقه التخليد ، ثم يخرج العصاة فى القبضة ، وتبقى الكفار ، ويكون المراد بالتخليد - فى حق العصاة المذكورين - البقاء فى النار بعد إخراج من تقدمهم قوله : (حتى ما يبقى) وفى رواية هشام بعد الثالثة : (حتى أرجع فأقول) .

قوله : (إلا من حبسه القرآن ، وكان قتادة يقول عن هذا : أى وجب عليه الخلود) فى رواية هشام : (أى وجب عليه الخلود) أنها من قول قتادة فسر به قوله : (من حبسه القرآن) أى : « من أخبر القرآن بأنه يخلد فى النار » ووقع فى رواية همام بعد قوله : (أى وجب عليه الخلود) وهو : المقام المحمود الذى وعده الله وقد تمسك بعض المبتدعة : أن من دخل النار من العصاة لا يخرج منها ؛ لقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ [١] وأجاب أهل السنة بأنها نزلت فى الكفار وعلى تسليم أنها فى أعم من ذلك فقد ثبت تخصيص الموحدين بالإخراج ، ولعل التأبيد فى حق من يتأخر بعد شفاعة الشافعين حتى يخرجوا بقبضة أرحم الراحمين فيكون التأبيد مؤقتا وقال عياض : استدل بهذا الحديث مَنْ جوَّز الخطايا على الأنبياء ، كقول كُلِّ مَن ذُكر فيه ما ذُكر وأجاب عن أصل المسألة بأنه لا خلاف فى عصمتهم من الكفر بعد النبوة وكذا قبلها على الصحيح وكذا القول فى الكبيرة على التفصيل المذكور ويلحق بها ما يزرى بفاعله من الصغائر ، فذهب جماعة من أهل النظر إلى عصمتهم منها مطلقا ، وأولوا الأحاديث والآيات الواردة فى ذلك بضروب من التأويل ، ومن جملة ذلك : أن الصادر عنهم إما أن يكون بتأويل من بعضهم ، أو بسهو ، أو بإذن ، لكن خشوا ألا يكون ذلك موافقا لمقامهم فأشفقوا من المؤاخذة أو المعاتبة قال : وهذا أرجح المقالات ، وليس هو مذهب المعتزلة وإن قالوا بعصمتهم مطلقاً ؛ لأن منزعهم فى ذلك

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الجن ، ومثلها فى ذلك الآية ١٤ من سورة النساء ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾ .

التكفير بالذنوب مطلقاً، ولا يجوز على النبي الكفر ومنزعنا: أن أمة النبي مأمورة بالاقتداء به في أفعاله، فلو جاز منه وقوع المعصية للزم الأمر بالشئ الواحد والنهي عنه في حالة واحدة، وهو باطل ثم قال عياض: وجميع ما ذكر في الحديث لا يخرج عما قلناه؛ لأن أكل آدم من الشجرة كان عن سهو وطلب نوح نجاة ولده كان عن تأويل ومقالات إبراهيم كانت معاريض وأراد بها الخير وقتيل موسى كان كافرا وفيه جواز إطلاق الغضب على الله، والمراد به مايظهر من انتقامه ممن عصاه، وما يشاهده أهل الموقف من الأهوال التي لم يكن مثالها، ولا يكون كذا قرره النووي وقال غيره: المراد بالغضب لازمه، وهو إرادة إيصال السوء للبعض وقول آدم ومن بعده: « نفسي، نفسي، نفسي » أي: نفسي هي التي تستحق أن يشفع لها، وفيه تفضيل محمد - ﷺ - على جميع الخلق؛ لأن الرسل والأنبياء والملائكة أفضل ممن سواهم، وقد ظهر فضله في هذا المقام عليهم قال القرطبي: ولو لم يكن في ذلك إلا الفرق بين مَنْ يقول: نفسي نفسي وبين مَنْ يقول: أمتي أمتي لكان كافيا وفيه تفضيل الأنبياء المذكورين فيه على مَنْ لم يذْكر فيه، لتأهلهم لذلك المقام العظيم دون من سواهم وقد قيل: إنما اخْتُص المذكورون بذلك لمزايا أخرى لا تتعلق بالتفضيل فآدم لكونه والد الجميع ونوح لكونه الأب الثاني وإبراهيم للأمر باتباع مثله وموسى لأنه أكثر الأنبياء تبعًا وعيسى لأنه أولى الناس بنبينا محمد - ﷺ - كما ثبت في الحديث الصحيح.

انتهى ما رأيت فيه جميل الفائدة من شرح ابن جرير لحديث الشفاعة.

وإذا كان هذا موقف الأنبياء والمرسلين ومقدار خوفهم من الله وخضوعهم لسلطانه في يوم الحساب مع مكانتهم العالية عند الله وعفو الله عنهم جميعاً ومغفرته لهم، وفوزهم بالفردوس الأعلى من جنات الله، ونجاتهم من هول الموقف يوم الحساب فكيف يكون حالنا نحن عبيد الله : متقين ومذنبين وعصاة ؟

رُحْماك يا أرحم الراحمين.

يا من بيده ملكوت كل شيء.

سبحانك لا ملجأ منك إلا إليك.

وصلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله.

يا من تتشفع لأمتك يوم الحساب حتى يبعدهم الله عن النار، ويدخلهم الجنة إلا من كفر أو عصى أو طغى وتجبر.

وإن رجاءنا يارب العالمين وأملنا يوم الكرب العظيم في استجابتك - سبحانك - لشفاعة نبيك خاتم الأنبياء والمرسلين لنا نحن عبيدك أمة نبيك ورسولك محمد - ﷺ -.

وأن تغفر لنا ما أخطأنا عن جهل.

وما قصرنا عن عجز.

وما أذنبنا عن غير قصد.

وأن تتقبل منا - بفضلك وكرمك - ما قدرنا من جهد في خدمة كتابك الكريم.

وأن تجعله ربيع قلوبنا، ونور بصائرنا، وجلاء صدورنا.

وشفيعنا مع نبينا محمد إليك يوم الكرب العظيم.

آمين يارب العالمين.

ثانياً : موقف المفسرين من هذه الأقوال

١ - يقول ابن كثير في تفسيره :

أ - قوله تعالى : ﴿ فنظر نظرة في النجوم * فقال إني سقيم ﴾ [(١)] إنما قال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيدهم ، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاماً - وهو حق في نفس الأمر - فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه .

قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : (نظر في النجوم) يعني قتادة (أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به ، فقال : ﴿ إني سقيم ﴾ أي ضعيف .

فأما الحديث الذي رواه ابن جرير هاهنا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثني هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : أن رسول الله - ﷺ - قال : [لم يكذب نبي الله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - غير ثلاث كذبات : اثنتين في ذات الله تعالى ، قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله في سارة : (هي أختي) فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله ، حاشا وكلا ، ولما (هذا ورد في شرحه) وإنما أطلق الكذب على هذا تجاوزاً ، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد

(١) تفسير القرآن العظيم ، المجلد الرابع ، سورة الصافات ، ص ١٣ ، ١٤ .

شرعي ديني كما جاء في الحديث : (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب) وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة عن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - في كلمات إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - الثلاث التي قال : ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله - تعالى - فقال : ﴿ إني سقيم ﴾ وقال : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقال للملك - حين أراد امرأته - : (هي أختي).

قال سفيان في قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ : يعني : طعين وكانوا يفرون من المطعون[1] فأراد أن يخلو بآلهتهم وكذا قال العوفي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى : ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ﴾ فقالوا له وهو في بيت آلهتهم : اخرج، فقال : إني مطعون، فتركوه مخافة الطاعون وقال قتادة عن سعيد ابن المسيب : رأى نجماً طلع فقال : ﴿ إني سقيم ﴾ كابد نبي الله عن دينه ﴿ فقال إني سقيم ﴾ وقال آخرون : ﴿ فقال إني سقيم ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعني مرض الموت وقيل : أراد ﴿ إني سقيم ﴾ أي : مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى

وقال الحسن البصري : خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاظطجع على ظهره وقال : ﴿ إني سقيم ﴾ وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها ورواه ابن أبي حاتم، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾.

---

(١) المطعون : المريض بالطاعون، وكانوا يهربون من المريض به.

ب ـ وقال ابن كثير في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ :[1] يعنى الذى تركه ولم يكسره ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد، وفى الصحيحين : من حديث هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : [إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يكذب غير ثلاث . . .] وذكر الحديث.

ومفهوم ما ذكره ابن كثير فى تفسير قول سيدنا إبراهيم : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أراد بهذا القول أن يبادر قومه من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أن آلهتهم لا تنطق، وأن هذا لا يصدر عن الصنم، فإن كانت الأصنام لا تنطق فإنها لا تستحق أن تعبد من دون الله، وبهذا أقام عليهم الحجة وألزمهم بها . والله أعلم.

جـ ـ ويقول عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة الأنعام[2] : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ﴾ وقد اختلف المفسرون فى هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة فروى ابن جرير عن طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس : ما يقتضى أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله : ﴿ لئن لم يهدنى ربى ﴾ الآية وقال محمد بن إسحاق : قال ذلك حين خرج من السرب الذى ولدته فيه أمه . . . إلى آخر القصة التى مرت بنا فى موضعها، وهى تعنى أن محمد بن إسحاق ـ مثل ابن جرير ـ يرى أن هذا المقام مقام

(١) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، سورة الأنبياء، ص ١٧٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، المجلد الثانى، سورة الأنعام، ص ١٤٥، ١٤٦.

نظر، وقد رجحنا فى مناقشة هذه القصة لابن إسحاق: أن كلام سيدنا إبراهيم هذا فى الكوكب إنما كان بعد أن هاجر إلى (حران) بالشام، فكان هذا المقام مقام مناظرة لأهل (حران)، ذلك أن مرحلة المناظرة تلى ـ فى القدرة على التفكير والمحاورة ـ مرحلة النظر، وإبراهيم لم يتح له أن ينظر فى ملكوت السموات والأرض قبل أن يخرج من السرب الذى ولدته فيه أمه، فقد كان مايزال طفلاً رضيعاً، وكان السرب مغلقاً لا يتمكن القائم فيه من النظر فى السماء، وإنما آتاه الله رشده منذ طفولته والله أعلم.

يقول ابن كثير فى رده على ما ذهب إليه ابن جرير وابن إسحاق: والحق أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان فى هذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام.

فيبين فى المقام الأول مع أبيه خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية التى هى على صورة الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم ـ عند أنفسهم ـ أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده فى الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه ويبين فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادتهم الهياكل وهى الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهى: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فيبين أولاً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن هذه الزهرة لا تصلح للألوهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هى جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له فى ذلك من الحكم العظيمة وهى تطلع من

المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية ثم انتقل إلى القمر فيبين فيه مثل ما بين في النجم ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿ قال ياقوم إني بريء مما تشركون ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ (١) وقال - تعالى -: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ (٢) فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ناظراً في هذا المقام؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ - بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله - تعالى -: ﴿ وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا

---

(١) الآية ٥١ من سورة الأنبياء.

(٢) الآيات ١٢٠ - ١٢٢ من سورة النحل.

أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شئ علما أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ (١).

٢ ـ أما القرطبي فيقول :

أ ـ قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قال هذا ربى ﴾ (٢) اختلف في معناه على أقوال، فقيل : كان هذا منه في مهلة النظر وحال الطفولية وقبل قيام الحجة وفي تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان، استدل قائلو هذه المقالة بما روى عن على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ﴾ فعبده حتى غاب عنه، وكذلك الشمس والقمر، فلما تم نظره قال : ﴿ إني برىء مما تشركون ﴾ واستدل بالأفول ؛ لأنه أظهر الآيات على الحدوث.

وقال قوم : لا يصح، وقالوا : غير جائز أن يكون لله ـ تعالى ـ رسول يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله موحد وبه عارف، ومن كل معبود سواه برىء، قالوا : وكيف يصحّ أن يتوهم هذا على من عصمه الله ـ تعالى ـ وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكوته ؛ ليكون من الموقنين ولا يجوز أن يوصف بالخُلو عن المعرفة، بل عرف الرَّب أوَّل النظر.

(١) الآيات ٨٠ ـ ٨٣ من سورة الأنعام.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، المجلد الرابع، الجزء السابع، ص ٢٥ ـ ٢٨.

قال الزجاج : هذا الجواب عندى خطأ وغلط ممن قاله، وقد أخبر الله ـ تعالى ـ عن إبراهيم أنه قال : ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾[1] وقال ـ جل وعز ـ : ﴿ بقلب سليم ﴾[2] أى : لم يشرك قط قال : والجواب ـ عندى ـ أنه قال : ﴿ هذا ربى ﴾ على قولكم ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر ونظير هذا قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أين شركائى ﴾[3] وهو ـ جل وعز ـ واحد لاشريك له. والمعنى : أين شركائى على قولكم ؟ وقيل : لما خرج إبراهيم من السرب رأى ضوء الكوكب، وهو طالب لربه، فظن أنه ضوؤه، قال : ﴿ هذا ربى ﴾ أى بأنه يتراءى لى نوره ﴿ فلما أفل ﴾ علم أنه ليس بربه ﴿ فلما رأى القمر بازغا ﴾ ونظر إلى ضوئه قال : ﴿ هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ﴾ وليس هذا شركاً، إنما نسب ذلك الضوء إلى ربه، فلما رآه زائلاً دلّه العلم على أنه غير مستحقّ لذلك، فنفاه بقلبه، وعلم أنه مربُوب وليس بربّ.

وقيل : إنما قال ﴿ هذا ربى ﴾ لتقرير الحجة على قومه، فأظهر موافقتهم، فلما أفل النجم قرر الحجة وقال : ما تغيّر لا يجوز أن يكون رباً وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها.

وهذا ما رجحناه فى ردنا على ما ذهب إليه محمد بن إسحاق وقلنا : إن إبراهيم لم يقل ذلك حين خرج من السرب حين كان فى (بابل) بالعراق التى يعبد أهلها الأصنام.

---

(١) آية ٣٥ من سورة إبراهيم . (٢) آية ٨٤ من سورة الصافات .
(٣) آية ٢٧ من سورة النحل .

وإنما قاله لأهل (حران) مناظرة، وكانوا يعبدون الكواكب في الشام.

يقول القرطبي: وقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في هذا: ما صح عن ابن عباس أنه قال في قول الله - عز وجل -: ﴿ نور على نور ﴾ [1] قال: كذلك قلب المؤمن يعرف الله - عز وجل - ويستدل عليه بقلبه، فإذا عرفه ازداد نورا على نور، وكذا إبراهيم - عليه السلام - عرف الله - عز وجل - بقلبه، واستدل عليه بدلائله، فعلم أن له ربًا وخالقًا، فلما عَرَّفه الله - عز وجل - بنفسه ازداد معرفة فقال: ﴿ أتحاجوني في الله وقد هدان ﴾ وقيل: هو على معنى الاستفهام والتوبيخ منكرا لفعلهم، والمعنى: أهذا ربي؟ ومثل هذا يكون ربًا؟ فحذف الهمزة، وفي التنزيل ﴿ أفإين مت فهم الخالدون ﴾ [2] وقيل المعنى: هذا ربي على زعمكم، كما قال - تعالى -: ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ [3] وقيل المعنى: هذا ربي، أي: أهذا دليل على ربي؟

ب - ويقول في تفسير قوله - تعالى - من سورة الأنبياء [4] ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ إن كانوا ينطقون، فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين تنبيها لهم على فساد اعتقادهم، كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء وفي الكلام تقديم على هذا التأويل في قوله: ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وقيل أراد: بل فعله كبيرهم إن

(١) الجامع لأحكام القرآن، المجلد الرابع، الجزء السابع، ص ٢٥ - ٢٨.

(٢) آية ٣٤ من سورة الأنبياء. (٣) آية ٦٢ من سورة القصص.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، المجلد السادس، الجزء الحادي عشر، ص ٣٠٠، ٣٠١.

كانوا ينطقون، بيَّن أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد، وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، أي: سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل.

وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل، وهذا هو الصحيح؛ لأنه عدده على نفسه، فدل أنه خرج مخرج التعريض، وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله، فقال إبراهيم: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ ليقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون فيقول لهم: فلم تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجة منهم ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه، فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة، كما قال لقومه: ﴿ هذا ربي ﴾ (وهذه أختي) و﴿ إني سقيم ﴾ و ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾.

وقال ابن السميقع: ﴿ بل فعلّه ﴾ بتشديد اللام بمعنى فلعل الفاعل كبيرهم.

وقال الكسائي: الوقف عند قوله ﴿ بل فعله ﴾ أي فعله من فعله، ثم يبتدئ ﴿ كبيرهم هذا ﴾، وقيل: أي لم ينكرون أن يكون فعله كبيرهم؟ فهذا إلزام بلفظ الخبر، أي من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلاً، والمعنى: بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم.

يقول القرطبي: روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: [لم يكذب إبراهيم النبي في شيء

قط إلا فى ثلاث، قوله: ﴿إنى سقيم﴾ وقوله لسارة: (أختى) وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم﴾] وقال: حديث حسن صحيح ووقع فى الإسراء فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - فى قصة إبراهيم قال: وذكر قوله فى الكوكب: (هذا ربى) فعلى هذا تكون الكذبات أربعا، إلا أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد نفى تلك بقوله: لم يكذب إبراهيم النبى قط إلا فى ثلاث كذبات: ثنتين فى ذات الله، قوله: ﴿إنى سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم﴾ وواحدة فى شأن سارة (لفظ مسلم) وإنما لم يعد عليه قوله فى الكواكب ﴿هذا ربى﴾ كذبة، وهى داخلة فى الكذب؛ لأنه - والله أعلم - كان حين قال ذلك فى حال الطفولة، وليست حالة تكليف أو قال لقومه مستفهما لهم على جهة التوبيخ والإنكار، وحذفت همزة الاستفهام، أو عن طريق الاحتجاج على قومه تنبيها على أن ما يتغير لا يصلح للربوبية ذكر هذه الوجوه عند تفسير قوله: ﴿هذا ربى﴾ فى سورة الأنعام ويقول: قال القاضى أبو بكر بن العربى: فى هذا الحديث نكتة عظمى تقصم الظهر، وهى أنه - عليه السلام - قال: لم يكذب إبراهيم إلا فى ثلاث كذبات: ثنتين ما حل بهما عن دين الله، وهما قوله: ﴿إنى سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم﴾ ولم يعدّ قوله (هذه أختى) فى ذات الله - تعالى - وإن كان دفع بها مكروه، ولكنه لما كان لإبراهيم - عليه السلام - فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله لم يجعلهما فى ذات الله، وذلك لأنه لا يجعل فى جنب الله وذاته إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا، والمعاريض التى ترجع إلى النفس

إذا خلصت للدين كانت لله ـ سبحانه ـ كما قال : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ [(١)] وهذا لو صدر منا لكان لله، لكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا، والله أعلم.

ثم يقول : قال علماؤنا : الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه ـ عليه السلام ـ كان من المعاريض ـ وإن كانت معاريض وحسنات وحججاً في الخلق ودلالات ـ لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد المنزلة واستحيا منها قائلها، على ماورد في حديث الشفاعة الذي ذكرناه فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالاً لله، فإن الذي كان يليق بمرتبته والخُلَّة أن يصدع بالحق، ويصرح بالأمر، كيفما كان، ولكنه رخص له، فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة، ولهذا جاء في حديث الشفاعة : (إنما اتخذت خليلا من وراء وراء) والمعنى : (إني كنت خليلاً متأخراً عن غيري ويستفاد من هذا : أن الخُلة لم تصح بكمالها إلا لمن صح له في ذلك اليوم المقام المحمود، وهو نبينا محمد ـ ﷺ ـ) هذه العبارة للقرطبي : (وخفضت عن محمد المنزلة) لم أجد لها سنداً في أحاديث الشفاعة لا من كلام رسول الله، ولا في كلام أي من الأنبياء، مع أن القرطبي قال بعد ذلك : ويستفاد من هذا : أن الخُلة لم تصح بكمالها إلا لمن صح له في ذلك اليوم المقام المحمود، وهو نبينا محمد ـ ﷺ ـ فهو صاحب الشفاعة لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه

---

(١) من الآية ٣ من سورة الزمر.

وما تأخر، بمعنى أن الله أخبر أنه لا يؤاخذه بذنب لو وقع منه [1] وصلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله.

جـ - وقد مر بنا تفسير القرطبى لقوله - تعالى - فى سورة الصافات: ﴿ فنظر نظرة فى النجوم * فقال إنى سقيم ﴾ ومن المناسب هنا أن نذكر قوله [2]: وقيل المعنى: فنظر فيما نجم من الأشياء، فعلم أن لها خالقاً ومدبراً، وأنه (أى: وأن سيدنا إبراهيم) يتغير كتغيرها، فقال: ﴿ إنى سقيم ﴾ وقال الضحاك: معنى سقيم سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم فى الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض، كما قال للملك لما سأله عن سارة: (هى أختى) يعنى أخوة الدين وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك أيضاً أشار لهم إلى مرض يعدى كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون؛ فلذلك تولوا عنه مدبرين، أى فارين منه خوفاً من العدوى قلت: وفى الصحيح عن النبى - ﷺ - : [لم يكذب إبراهيم النبى - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات . . . الحديث] وقد مضى فى سورة الأنبياء، وهو يدل على أنه لم يكن سقيماً وإنما عرض لهم، وقد قال - جل وعز - : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [3] فالمعنى: إنى سقيم فيما أستقبل، فتوهموا هم أنه سقيم الساعة، وهذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس، فقالوا: مات وهو صحيح! فقال أعرابى: أصحيحٌ من

(1) فتح البارى، المجلد الحادى عشر، ص ٤٣٦.
(2) الجامع لأحكام القرآن، المجلد الثامن، الجزء الخامس عشر، ص ٩٢، ٩٣.
(3) الآية ٣٠ من سورة الزمر.

الموتُ في عنقه؟ فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم عُدَّ هذا ذنبا ولهذا قال: ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[1] وقيل: أراد سقيم النفس لكفرهم.

د ـ ويقول القرطبى عند تفسيره لهذه الآية[2]: قرأ الحسن وابن أبى إسحاق: خطاياى وقال: ليست خطيئة واحدة قال مجاهد: يعنى بخطيئته قوله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله: ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله: (إن سارة أختى) زاد الحسن: وقوله للكوكب: ﴿ هذا ربى ﴾. وقال الزجاج: الأنبياء بشر، فيجوز أن تقع منهم الخطيئة نعم لا تجوز عليهم الكبائر؛ لأنهم معصومون عنها.

٣ ـ أما الطبرى فيقول[3]:

أ ـ فى تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين... ﴾ إلى آخر الآيات. روى عن ابن عباس قوله: ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ يعنى به: الشمس والقمر والنجوم ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ﴾ فعبده حتى غاب ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ ﴿ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ﴾ فعبده حتى غاب ﴿ فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضآلين ﴾ ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى

(١) الآية ٨٢ من سورة الشعراء.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، المجلد السابع، الجزء الثالث عشر، ص ١١١، ١١٢.
(٣) جامع البيان، المجلد الخامس، ج ٧ ص ١٦٣ وما بعدها.

هذا أكبر ﴾ فعبدها حتى غابت، فلما غابت قال: ﴿ ياقوم إنى برىء مما تشركون ﴾ وحدث عن قتادة فلما أفل قال: ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ علم أن ربه دائم لا يزول.

وأنكر قوم من أهل الرواية هذا القول الذى روى عن ابن عباس وعمن روى عنه من أن إبراهيم قال للكوكب أو القمر: هذا ربى وقالوا: غير جائز أن يكون لله نبى ابتعثه بالرسالة أتى عليه وقت من الأوقات وهو بالغ إلا وهو لله موحد وبه عارف، ومن كل مايعبد من دونه برىء قالوا: ولو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات وهو به كافر لم يجدر أن يختصه بالرسالة لأنه لا معنى فيه إلا وفى غيره من أهل الكفر به مثله، وليس بين الله وبين أحد من خلقه مناسبة فيحابيه باختصاصه بالكرامة.

قالوا: وإنما أكرم من أكرم منهم لفضله فى نفسه فأثابه لاستحقاقه الثواب بما أثابه من الكرامة، وزعموا أن خبر الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو القمر أو الشمس: ﴿ هذا ربى ﴾ لم يكن لجهله بأن ذلك غير جائز أن يكون ربه، وإنما قال ذلك على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه وعلى العيب لقومه فى عبادتهم الأصنام إذ كان الكوكب والقمر والشمس أضوأ وأحسن وأبهج من الأصنام ولم تكن مع ذلك معبودة وكانت آفلة زائلة غير دائمة، والأصنام التى دونها فى الحسن وأصغر منها فى الجسم أحق أن لاتكون معبودة ولا آلهة قالوا: وإنما قال ذلك لهم معارضة، وقال آخرون منهم: بل ذلك كان منه فى حال طفوليته وقبل قيام الحجة عليه، وتلك حال لايكون فيها كفر ولا إيمان، وقال آخرون منهم:

وإنما معنى الكلام (أهذا ربى) على وجه الإنكار والتوبيخ أى (ليس هذا ربى) وقالوا: قد تفعل العرب مثل ذلك فتحذف الألف التى تدل على معنى الاستفهام.

يقول الطبرى: وفى خبر الله - تعالى - عن قيل إبراهيم حين أفل القمر: ﴿ لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ الدليل على خطأ هذه الأقوال التى قالها هؤلاء القوم، وأن الصواب من القول فى ذلك: الإقرار بخبر الله - تعالى - الذى أخبر به عنه والإعراض عما عداه.

وهذا القول للطبرى: يخطئ هؤلاء القوم من غير أهل الرواية فى غير خطأ: ذلك أنهم كما قال: أنكروا قول ابن عباس (فعبدها حتى غابت) ولكنهم لم ينكروا قول إبراهيم: ﴿ هذا ربى ﴾ كما جاء فى القرآن الكريم، وإنما هم حاولوا تأويله بما يدفع عن سيدنا إبراهيم خطيئة الكفر أو مذمَّة الكذب وما أظن الطبرى قد سلَّم بقول سيدنا إبراهيم ﴿ هذا ربى ﴾ على حقيقته المجردة دون هذا التأويل والتفسير وأغلب الظن أنه بهذا القول يحاول استبعاد محاولة التفسير والتأويل لكل أقوال سيدنا إبراهيم كما سيتضح فيما يلى فما هو البديل عنده للتأويل والتفسير؟

ب - جاء فى تفسيره لقوله - تعالى -: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾[1] حدث عن قتادة قوله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ الآية، وهى هذه الخصلة التى كادهم بها وقد زعم مَنْ لا يصدِّق بالآثار ولا يقبل من

---

(١) جامع البيان، المجلد التاسع، الجزء السابع عشر، ص ٣٠، ٣١.

الأخبار إلا ما استفاض به النقل من العوام : أن معنى القول ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ إنما هو : بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم ، أى إن كانت الآلهة المكسورة تنطق فإن كبيرهم هو الذى كسرها وهذا قول خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله - ﷺ - أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات كلها فى الله قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله لسارة : ﴿ هى أختى ﴾ وغير مستحيل أن يكون الله - تعالى - ذكره أذن لخليله فى ذلك ليقرع قومه به ويحتج به عليهم ويعرفهم موضع خطئهم وسوء نظرهم لأنفسهم ، كما قال مؤذن يوسف لإخوته : ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ ولم يكونوا سرقوا شيئاً .

وهكذا يتضح أن الطبرى يستبعد تماماً محاولة التأويل والتفسير لكلمات سيدنا إبراهيم وظهر من كلامه السابق أن البديل الذى اختاره أن الله - تعالى - ذكره أذن لخليله فى ذلك ليحتج به عليهم ويثبت عليهم خطأهم فى عبادة الأصنام أو فى عبادة الكواكب .

جـ - وجاء فى تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ ... فنظر نظرة فى النجوم * فقال إنى سقيم ﴾ [1] (حدث عن قتادة قوله : ذكر أن قومه كانوا أهل تنجيم ، فرأى نجماً قد طلع فعصب رأسه وقال إنى مطعون ، وكان قومه يهربون من الطاعون ، فأراد أن يتركوه فى بيت آلهتهم ويخرجوا عنه ليخالفهم إليها فيكسرها ، وحدث عن سعيد بن المسيب : أنه رأى نجماً طلع فقال : ﴿ إنى سقيم ﴾ .

(١) جامع البيان ، المجلد العاشر ، الجزء الثالث والعشرون ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

قال : كابد نبى الله عن دينه، فقال : إنى سقيم وحدث عن ابن زيد عن أبيه، قال : فنظر إلى نجم قد طلع فقال : إن ذلك النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لى فقال إنى سقيم يقول الطبرى : واختلف فى وجه قيل إبراهيم لقومه : ﴿ إنى سقيم ﴾ وهو صحيح، فروى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : [لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ...] وحدث من ذكر ذلك عن أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : [لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، ثنتين فى ذات الله (ذكر قبل أسطر أنها كلها فى ذات الله) قوله : إنى سقيم وقوله : بل فعله كبيرهم هذا وقوله فى سارة : هى أختى] روى هذا الحديث محمد عن أبى هريرة .

وحدث عن عبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : [لم يكذب إبراهيم فى شىء قط إلا فى ثلاث ...] ثم ذكر نحوه.

وحدث عن المسيب بن رافع عن أبى هريرة قال : ما كذب إبراهيم غير ثلاث كذبات قوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وإنما قاله موعظة، وقوله حين سأله الملك فقال : أختى ـ لسارة وكانت امرأته ـ.

وحدث عن محمد مرة ثانية، ويحتمل أن يكون أحدهما محمد ابن إسحاق والآخر محمد بن سيرين قال : إن إبراهيم ما كذب إلا ثلاث كذبات : ثنتان فى الله، وواحدة فى ذات نفسه، فأما الثنتان فقوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ .

وقصته في سارة وذكر قصتهما وقصة الملك وقال آخرون: إن قوله: ﴿إني سقيم﴾ كلمة فيها معراض ومعناها: أن كل من كان في عقبه الموت فهو سقيم وإن لم يكن به حين قالها سقم ظاهر، والخبر عن رسول الله - ﷺ - بخلاف هذا القول، وقول رسول الله - ﷺ - هو الحق دون غيره. هكذا يصر (الطبري) على رفضه لتأويل كلمات سيدنا إبراهيم ويؤكد للمرة الثالثة أن هذه الكلمات (كذبات) كما أخبر نبينا محمد - ﷺ - في تلك الروايات التي حشدها الطبري، مع أن رسول الله - ﷺ - لا يمكن أن يكون قد قصد بكلامه الإساءة إلى جده سيدنا إبراهيم خليل الرحمن، أو أن يسجل عليه خطيئة الكذب المزعوم، وإنما أراد بها - إذا صحت هذه الروايات - معنى آخر يعلمه هو - صلوات الله وسلامه عليه - ويعلمه الله - عز وجل - لا يُخطِّئ سيدنا إبراهيم أو يسئ إليه وتبرير الطبري الذي ذكره سابقاً بأن هذه كذبات رخص به الله - سبحانه وتعالى - لخليله سيدنا إبراهيم ليحتج بها على قومه لم يذكر معه دليل والله ورسوله أعلم.

د - وجاء في تفسيره لقوله - تعالى - من سورة الشعراء الآية ٨٢ ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ (١) وقيل إن إبراهيم - صلوات الله عليه - عنى بقوله: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾: (والذي أرجو أن يغفر لي قولي: إني سقيم، وقولي: بل فعله كبيرهم هذا، وقولي لسارة: إنها أختي). حدث من قال ذلك عن مجاهد في قول الله: ﴿أن يغفر لي

(١) جامع البيان، المجلد التاسع، الجزء التاسع عشر، ص ٥٣.

خطيئتي يوم الدين ﴾ قال : (وقوله : إني سقيم وقوله : فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة : إنها أختي حين أراد فرعون من الفراعنه أن يأخذها) فلو كان الله - عز وجل - أذن لخليله إبراهيم بهذه الأقوال لما رجا وتمنى أن يغفرها له.

٤- وجاء في الفتوحات الإلهية :

١ - عند تفسير قوله - تعالى - :

﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ﴾ [١] : ثم اختلف العلماء في وقت هذه الرؤية وفي وقت هذا القول : هل كان قبل البلوغ أو بعده؟ على قولين، أحدهما : أنه كان قبل البلوغ، في حال طفوليته وذلك قبل قيام الحجة عليه، فلم يكن لهذا القول الذي صدر من إبراهيم في هذا الوقت اعتبار، ولا يترتب عليه حكم؛ لأن الأحكام إنما تثبت بعد البلوغ، وقيل : إن إبراهيم لما خرج من السَّرب في حال صغره، ونظر إلى السماء وما فيها من العجائب، وكان قد خصه الله بالعقل الكامل، والفطرة السليمة تفكر في نفسه، وقال : لابد لهذه الخلائق من خالق مدبر، وهو إله الخلق ثم نظر في حال تفكره فرأى الكوكب وقد أزهر، فقال : هذا ربي على ما سبق إلى وهمه وذلك في حال طفوليته، وقبل النظر في معرفة أحكام الرَّب - سبحانه وتعالى - واستدل أصحاب هذا القول على صحته بقوله : ﴿ لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ قالوا : هذا يدل على نوع تحير، وذلك لا يكون إلا في

---

(١) الفتوحات الإلهية، المجلد الثاني، ص ٥٢ ، ٥٣.

حال الصغر وقبل البلوغ وقيام الحجة. وهذا القول ليس بسديد ولا مَرْضِيٍّ، لأن الأنبياء معصومون في كل حال من الأحوال، وأنه لايجوز أن يكون لله - عز وجل - رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو بالله عارف، وله موحد، وله من كل منقصة منزه، ومن كل معبود سواه برىء وكيف يتوهم هذا على إبراهيم وقد عصمه الله وطهره، وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكوت السموات والأرض ورأى الكوكب قال معتقداً : هذا ربي حاشا إبراهيم - ﷺ - من ذلك لأن منصبه أعلى وأشرف من ذلك - ﷺ -.

والقول الثاني الذي عليه جمهور المحققين : أن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم، وحين شرفه الله بالنبوة، وأكرمه بالرسالة ثم اختلف أصحاب هذا القول في تأويل الآية ومعناها، فذكروا فيها وجوهاً :

الوجه الأول : أن إبراهيم - عليه السلام - أراد أن يستدرج قومه بهذا القول، ويعرفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها؛ لأنهم كانوا يرون أن كل الأمور إليها فأراهم إبراهيم أنه مُعظِّم ماعظَّموه، فلما أفل الكوكب والشمس والقمر أراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبة والأفول؛ ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية ومثل هذا كمثل (الحواري) الذي ورد على قوم كانوا يعبدون صنماً، فأظهر تعظيمه، فأكرموه لذلك، حتى صاروا يصدرون عن رأيه في كثير من أمورهم، إلى أن دهمهم عدو لا قبل لهم به، فشاوروه في أمر هذا العدو، فقال : الرأي عندي : أن ندعوا هذا الصنم حتى يكشف عنا ما نزل بنا،

فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون إليه، فلم يغن شيئاً، فلما تبين لهم أنه لايضر ولا ينفع ولا يرفع دعاهم (الحوارى) وأمرهم أن يدعوا الله - عز وجل - ويسألوه أن يكشف عنهم ما نزل بهم فدعوا الله مخلصين، فصرف عنهم ما كانوا يحذرون، فأسلموا جميعاً.

الوجه الثانى: أن إبراهيم - عليه السلام - قال هذا القول على سبيل الاستفهام، وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه، تقديره: أهذا ربى الذى تزعمون؟ وإسقاط حرف الاستفهام كثير فى كلام العرب، ومنه قوله - تعالى -: ﴿أفإين مت فهم الخالدون﴾ [1] بمعنى أفهم الخالدون، والمعنى: أيكون هذا رباً ودلائل النقص فيه ظاهرة؟!

الوجه الثالث: أن إبراهيم - عليه السلام - قال ذلك على وجه الاحتجاج على قومه يقول: هذا ربى على زعمكم، فلما غاب قال: لو كان إلهاً كما تزعمون لما غاب فهو كقوله - تعالى -: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ [2] يعنى: عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى - عليه السلام - بقوله - تعالى -: ﴿وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا﴾ [3]: يريد إلهك بزعمك.

الوجه الرابع: أن فى هذه الآية إضمار (يقولون) أى: قال: يقولون: هذا ربى وإضمار القول كثير فى كلام العرب، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا﴾ أى يقولون: ربنا تقبل منا.

(١) الآية ٣٤ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية ٤٩ من سورة الدخان.
(٣) الآية ٩٧ من سورة طه.

الوجه الخامس: أن الله ـ تعالى ـ قال في حقه: ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ ثم قال بعده: ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ والفاء تقتضي التعقيب، فدل هذا على أن هذه الواقعة بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض، بعد الإيقان، ومن كان معه بهذه المنزلة الشريفة العالية لا يليق بحاله أن يعبد الكواكب، أو يتخذها رباً.

وجاء عند تفسيره لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ ... فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ عقب قوله: ﴿ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ﴾: تعريض لقومه بأنهم على ضلالة، فلم ينجح فيهم ذلك وإنما عرض بضلالهم في أمر القمر لأنه أيس منهم في أمر الكوكب ولو قاله في الأول لما نصفوه ولا أصغوا، ولهذا صرح في الثالثة بالبراءة منها، وأنهم على شرك، أي: فالتعريض هنا لاستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم.

٢ ـ وعند تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ جاء مايلي[1]: هذا على طريق الكناية العرضية، فهذا يستلزم نفي فعل الصنم الكبير للتكسير، وإثباته لنفسه، وهذا بناء على أن الفعل ـ وهو الكسر ـ دائر بين عاجز ـ وهو ذلك الصنم ـ وقادر ـ وهو إبراهيم ـ إذ القاعدة: أنه إذا دار فعل بين قادر عليه وعاجز عنه، وأثبت للعاجز بطريق التهكم به لزم منه انحصاره في الآخر والحاصل: أنه إشارة لنفسه على الوجه الأبلغ مضمناً فيه الاستهزاء

(١) الفتوحات الإلهية، المجلد الثالث، ص ١٣٤.

والتضليل، وقوله : ﴿ فاسألوهم ﴾ عن فاعله ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ أى : إن كانوا ممن يمكن أن ينطق، ولم يقل : يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ؛ لما أن نتيجة السؤال الجواب وأن عدم نطقهم أظهر فى تبكيتهم وفيه تقديم جواب الشرط وهو قوله : ﴿ فاسألوهم ﴾ وفيه إشارة إلى قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ مرتبط بقوله : ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ وقد صرح بذلك الطيبى، قال : والمعنى : بل فعله كبيرهم هذا، وإن كانوا ينطقون فاسألوهم إن أمكن هذا الفعل وهذا أظهر من جعل جواب الشرط محذوفاً لدلالة ما قبله عليه وفيه تعريض لهم بأن الصنم المعلوم عجزه عن الفعل لا يكون إلهاً فكيف يستحق أن يكون معبوداً ؟!

جـ ـ وعند تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم ﴾ جاء ما يلى [1] : سقيم : عليل، أى : سأسقم، قال ابن عباس : كان قومه يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث كانوا يتعاطون به، لئلا ينكروا عليه ذلك وأراد أن يباكتهم فى عبادة الأصنام، ويلزمهم الحجة على بطلانها وفى القرطبى : فنظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا يطلع مع سقمى ـ وكان علم النجوم مستعملاً عندهم منظوراً فيه ـ فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم معتقدهم عذراً لنفسه، وقال الحسن : المعنى : أنهم لما كلفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل فالمعنى على هذا : أنه نظر فيما نجم من

(١) الفتوحات الإلهية، المجلد الثالث، ص ٥٤٣

الرأى، أى فيما طلع له منه، فعلم أن كل حي سقيم، فقال : إنى سقيم، وقال الخليل والمبرد : يقال : الرجل إذا فكر فى نفسه تدبر ونظر فى النجوم وقيل : كانت الساعة التى دعوه فيها إلى الخروج معهم ساعة تعتاده فيها الحمى، وقيل : المعنى : نظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقاً ومدبراً، وأنه ـ أى : وأن سيدنا إبراهيم ـ يتغير كتغيرها، فقال : إنى سقيم، وقال الضحاك : معنى سقيم : سأسقم سقم الموت، لأن من كتب الله عليه الموت يسقم فى الغالب، ثم يموت، وهذا تورية وتعريض، كما قال للملك ـ لما سأله عن سارة ـ هى أختى يعنى : أخته فى الدين.

وقال ابن عباس، وابن جبير، والضحاك أيضاً : أشار لهم إلى مرض وسقم يعدى كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون، ولذلك ﴿ تولوا عنه مدبرين ﴾ أى : فارين منه خوفاً من العدوى.

وسأسقم جواب ما يقال : كيف جاز له ـ عليه السلام ـ أن يقول : إنى سقيم، والحال أنه لم يكن سقيماً، وإيضاحه : أنه كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إنك ميت ﴾ أى : ستموت، أو سقيم القلب عليكم لعبادتكم الأصنام وهى لا تضر ولا تنفع، أو أن من يموت فهو سقيم.

وفى أبى السعود قال : إنى سقيم ـ وكان صادقاً فى ذلك ـ فجعله عذراً فى تخلفه عن عيدهم، وقيل : أراد سقيم القلب لكفرهم، وقيل : فى علمها، أو فى كتبها، أو أحكامها، ولا منع من ذلك حيث كان قَصْدُه ـ عليه السلام ـ إيهامهم ـ حين أرادوا أن يخرجوا به عليه السلام إلى عيدهم ـ ليتركوه.

ويلاحظ أن « الفتوحات الإلهية » لم تذكر أياً من الروايات التى نسبت إلى رسول الله - ﷺ - ووصفت أقوال سيدنا إبراهيم هذه بأنها كذبات، كما أنها استعانت بما جاء فى تفسير أبى السعود - قبل أسطر، وفى نهاية الحديث - عن هذه الأقوال بما يبعد قول سيدنا إبراهيم ﴿إنى سقيم﴾ عن الكذبات، ويؤكد أنه كان صادقاً فيما قال.

فكيف نوفق بين هذا وبين تلك الروايات ؟

وبماذا نفسر عدم محاولة صاحب الفتوحات الإلهية لهذا التوافق؟ أترى صاحب الفتوحات يشكك فى صحة هذه الروايات أو فى نسبتها إلى رسول الله - ﷺ - ؟

ثالثاً : موقف المؤرخين من هذه الأقوال

١ ـ ابن كثير كمؤرخ كان موقفه في قصص الأنبياء كما يلي [١] :

ذكر روايات أبي هريرة، ورواية أبي سعيد التي ذكرها في تفسيره، وأضاف إليها رواية (محمد بن محبوب، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة ـ التي لم تسند إلى رسول الله ﷺ ـ ليتحدث فقط عن قصة سارة مع الملك ولم يكن له دفاع عن هذه الأقوال سوى قوله : « فقوله في الحديث : (هي اختي) أي : في دين » وقوله لها : (إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك) يعني : زوجين مؤمنين غيري وغيرك ويتعين حمله على هذا لأن (لوطا) كان معهم ـ وهو نبي ـ عليه السلام، وما جاء في رواية أبي سعيد : قال : قال رسول الله ﷺ ـ في كلمات إبراهيم الثلاث ـ : [ما منها كلمة إلا ما حل بها ـ أي جادل ـ عن دين الله].

٢ ـ وفي قصص القرآن :

أ ـ جاء عند قوله : ﴿إني سقيم﴾ [٢] ولما هموا بالذهاب إلى عيدهم طلبوا إليه أن يرافقهم، فأبى أن يصحبهم، وقد عقد العزم على أن يهدم صرح آلهتهم وادعى العلة، وتظاهر هو بالسقم ولم تكن به علل ولا مرض، ولكنه سقيم النفس، كاسف البال،

---

(١) قصص الأنبياء : ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) قصص القرآن : ص ٤٣ - ٤٥ .

يتقطع فؤاده حزناً على إشراك قومه، ويتميز غيظاً لأنهم لم يلبوا نداءه، ولم يصغوا إلى دعوته ولما كانوا يخشون الداء ويهابون الوباء تولوا عنه مدبرين.

ب ـ وجاء عند قوله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾[1] : ورجعوا من عيدهم ورأوا ما حلّ بمعبوداتهم، فبهتوا لهول ما رأوا وتساءلوا: من فعل هذا بآلهتنا؟ قال قائلهم: سمعنا فتى يذكرهم يقال له: إبراهيم فاعتزموا أن يوقعوا به من العقاب بمقدار ما ارتكب من وزر ونادوا بأن يأتوا به على أعين الناس ليشهدوا عليه بمقالته ويروا مايحل به من القصاص ولاشك أن اجتماع القوم في صعيد واحد كان أمنية إبراهيم ليقيم لهم الحُجة جميعاً على بطلان ما يعتقدون، ويريهم البرهان على فساد ماهم عليه عاكفون فسار بهم في الجدال ناحية أخرى، وجرهم بأسلوبه الحكيم إلى طريق يقصده، ليلزمهم الحُجة، فيرجعوا إلى صوابهم فقال: ﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ حجة دامغة قد صفعهم بها صفعة نبهتهم من غفلتهم، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وقالوا: إنكم أنتم الظالمون، فتركتموها لا حافظ لها ولا رقيب عندها ثم أدركتهم الحيرة فأطرقوا برءوسهم مفكرين ثم قالوا: لقد علمت ياإبراهيم أنها لا ترد سؤالاً فكيف تأمرنا بسؤالها؟ وتطلب منا الاستشهاد بها؟ أقروا بعجزها عن الإصغاء إليهم، واعترفوا بقصورها عن العلم بما يجرى حولها، وجردوها من القدرة على أن تصُدَّ المعتدين فأخذ يبكتهم على جهلهم، ويتأفف من ثباتهم على الباطل بعد وضوح الحق.

---

(١) قصص القرآن، ص ٤٣ ـ ٤٥.

فقال : ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ . (الآيتان ٦٦ ، ٦٧ من سورة الأنبياء) .

جـ - وجاء عند قوله : ﴿ هذا ربى ﴾ : ألقى إبراهيم عصاه فى (حران) التى هاجر إليها من بلده كوثى شمال العراق فى بابل بعد نجاته من محاولة إحراقه بالنار فاراً بدينه ، تاركاً وطنه وقومه علّه يجد فى غيرهما آذاناً مصغية ونزل بين ظهرانى أهل هذه البلاد ، وسرعان ما تبين ضلالهم ، إذ وجدهم يعبدون الكواكب من دون الله فأراد أن ينبههم إلى خطئهم ، فاختار لذلك سبيل العقل ، وطريق الحجة ، حتى إذا ما استبانوا الحق وتبينوا الرشد سلكوا سبيله وأطاعوا إلى ندائه ، واتبعوا دعوته (فلما) جنَّ عليه الليل رأى كوكباً مما يعبدون - وهو بين جماعة يتحدثون ويسمرون - فجاراهم فى زعمهم ، وحكى قولهم ، فقال : ﴿ هذا ربى ﴾ .

طريق فى الحوار حكيم ، ومنهج فى الكلام قويم (إنه) يحاكيهم فى اعتقادهم ، ولا يعلن مخالفتهم أو يسفه أحلامهم ويحقر معبوداتهم ، فذلك أدعى إلى إنصاتهم لقوله ، وتفهمهم لحجته ، ثم لم يلبث أن كر على قولهم ينقضه ورجع إلى مذهبهم يزيفه ، ولكن عن طريق خفى ينبئ عند سداد رأيه ونفاذ بصيرته ، فلما أفل هذا الكوكب وغاب تحت الأفق تفقده فلم يجده ، فقال : لا أحب الآلهة المتغيرين من حال إلى حال ، المتنقلين من مكان إلى مكان ، ثم عرض بآلهتهم ، وأعلن بغضه لها ، وتبرأه من حبها .

ولما رأى القمر بازغاً - وهو أسطع نوراً من ذلك الكوكب، وأكبر منه حجماً، وأكثر نفعاً - قال: (هذا ربى) استدراجاً لهم واستهواء لقلوبهم فلما أفل أيضاً واحتجب واختفى نوره واستتر قال: ﴿ لئن لم يهدني ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ بياناً أن الله مصدر الهداية، ومانح التوفيق عند الشك والحيرة، جاوز التعريض إلى ما هو أفصح منه، لما أنس منهم سكوتاً على بغضه لآلهتهم، وإغضاء عن ذمه معبوداتهم، وأبان أنه غير مطمئن النفس، لم يهتد بعد إلى طريق الحق وطلب من الله أن ينقذه من ذلك الضلال البعيد، فهذا الذى يعبدونه مخلوق مسيَّر، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

ثم رأى الشمس بازغة يتألق نورها، وملأت الأرض حياة وبهاء، وأرجاء الكون نوراً وضياء، فقال: ﴿ هذا ربى هذا أكبر ﴾ من كل الكواكب، وأكثرها نفعاً، وأجل شأناً فلما أفلت كغيرها وغابت عن عُبَّادها رماهم بالشرك، وقال: ﴿ إني بريء مما تشركون ﴾ فهذه الكواكب التى تنتقل من مكان إلى مكان، وتتحول من حال إلى حال، لابد لها من خالق يدبرها ويحركها، وإله يُطْلِعُها ويسيِّرها، فهى لا تستأهل عبادة، ولا تستحق إكباراً ولا تعظيماً ﴿ إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ [١].

د - وجاء عند قوله: (هى أختى): (وكانت سارة ذات جمال باهر، فوشى بها أحد بطانة السوء إلى الملك، وأغراه بجمالها،

---

(١) قصص القرآن: ص ٥٠ - ٥٢، سورة الأنعام: الآية: ٧٩.

وزين له حسنها، وحبّب إليه الاستحواذ عليها، فصادفت هذه المقالة رغبة في نفسه، وهوى في فؤاده فدعا إبراهيم إليه، وسأله عما يربطهما من سبب، وما يصل بينهما من قرابة ففطن إبراهيم إلى مآربه، وعرف مقصده، وخاف إن أخبره أنها زوجته بيّت الشر له، وعمل على الإيقاع به لتخلص له من دونه، ويستأثر بها من بعده، فقال له: (هي أختي) والأخت كما تكون في النسب تكون في الدين، واللغة، والإنسانية ورجع إلى زوجته فأخبرها بقصته، وطلب إليها أن تكون مصدقة لقوله، مؤكدة لخبره ولما أقبل الملك عليها، ورأى ما بها من لوعة وأسى، وحاول أن يخفف من حزنها، ويؤنس وحشتها، فجفلت وانتكس يحس اضطرابا في نفسه، ووجيبا في قلبه وأراد أن يعيد الكرة فعاد إليه اضطرابه.

فأوجس خيفة منها، وأوى إلى فراشه وغط في نومه، ورأى رؤيا استبان بها وجه الحق وعرف أن لها بعلاً، وأن عليه أن يخلي سبيلها، وألا يمسها بسوء، أو يقربها بإثم فلما أفاق من نومه رأى لامناص من إطلاق سراحها، فوهبها (هاجر) خادماً لها، وأسلمها إلى زوجها)[1].

٣ ـ أما الشيخ عبد الوهاب النجار فقد شكك في وقوع أحداث قصة سارة مع ملك مصر ورفض الاعتماد على روايات أبي هريرة وغيرها التي تناولت هذه القصة مما أثار عليه لجنة من العلماء، فقاموا بالرد عليه من خلال الاحتمالات التالية[2]:

الأول: أنه لم يقف على تلك الأحاديث التي وردت في هذه القصة

(١) قصص القرآن: ص ٥٣، ٥٤. (٢) قصص الأنبياء: ص ٨٤-٩٣.

ونرى أنه احتمال بعيد إذ يستبعد جداً من أستاذ متخصص فى التاريخ، نصَّب نفسه لتأليف كتاب فى قصص الأنبياء ليدرِّس للعلماء المتخصصين فى الوعظ والإرشاد ألا يقف على تلك الأحاديث خصوصاً وأنه جعل (صحيح البخارى) من الكتب التى رجع إليها وقت التأليف.

وهى مذكورة فيه وأيضاً فإن كتب التاريخ المشهورة - كتاريخ ابن الأثير، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير - ذكرت هذه القصة على نحو ما وردت به الأحاديث بل صرح ابن كثير بالنقل عن البخارى وأيضاً قد استدل المؤلف نفسه بحديث الشفاعة فى قصة نوح.

الثانى : أنه وقف على تلك الأحاديث ورأى فيها مطعناً أخرجها عن دائرة الاحتجاج بها فى الحوادث التاريخية وهو بعيد أيضاً، لأنه لو كان كذلك لذكرها ونبه على ضعفها، وكان ذلك خيراً من اعتماده على التوراة المعلوم أمرها من حيث القبول والرد، وأفيد من الوجهة العلمية.

الثالث : أنه وقف على تلك الأحاديث ولم يعلم فيها مطعناً ولكنه يرى أن الأحاديث - وإن صحت - لا تصح مصدراً للحوادث التاريخية، وهذا احتمال لا يتصور أن يصدر من مثل فضيلة الأستاذ، بل لا يصح أن يصدر من مسلم.

الرابع : أنه يعلم تلك الأحاديث ويعلم أنه لا مطعن فيها، ويعتقد أن الأحاديث الصحيحة أهم مصدر بعد كتاب الله للحوادث التاريخية، إلا أنه حين تدوينه لهذه القصة سها عن تلك الأحاديث وهذا الاحتمال هو الذى نميل إليه والله أعلم.

وإنَّا نورد تلك الأحاديث ونبين من خرجها :

الأول : عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : أن النبى ـ ﷺ ـ قال : [لم يكذب إبراهيم النبى ـ عليه السلام ـ قط إلا ثلاث كذبات ، ثنتين فى ذات الله : قوله ﴿ إنى سقيم ﴾ . وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن علم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختى ، فإنك أختى فى الإسلام ، فإنى لا أعلم فى الأرض مسلماً غيرك وغيرى ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار ، فأتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى أن تكون إلا لك فأرسل إليها ، فأتى بها ، فقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت بيده قبضة شديدة ، فقال لها : ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ، ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأولين[1] فقال : ادعى الله أن يطلق يدى فلك الله أن لا أضرك ففعلت ، فأطلقت يده ودعا الذى جاء بها فقال له : إنك إنما أتيتنى بشيطان ، ولم تأتنى بإنسان ، فأخرجها من أرضى ، وأعطها هاجر (قال) : فأقبلت تمشى ، فلما رآها إبراهيم ـ عليه السلام ـ انصرف فقال لها : مهيم ؟ فقالت : خيراً كف الله يد الفاجر ، وأخدم خادماً ، قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء.

---

(١) هكذا فى هذه النسخة من كتاب قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار : ص ٥٨ . وأغلب الظن أنه يسقط من الطبع ، والجملة التالية ـ وكما جاء فى صحيح مسلم ـ التى ذكرناها فى موضعها : (فقبضت أشد من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ، ففعلت . فعاد ...) .

هذا الحديث أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء من طريقين: مرفوعاً، وموقوفاً. وقال الحافظ ابن حجر شارح صحيح البخارى: إن ابن سيرين هو محمد بن سيرين الذى روى عن أبى هريرة كان غالباً لا يصرح برفع كثير من حديثه وقد أشرنا إلى هذا فيما سبق.

وأخرجه مسلم فى الفضائل مرفوعاً واللفظ الذى ذكرناه له.

وأخرجه أحمد بسياق مخصوص، قال الحافظ ابن كثير وقال ابن حاتم: حدثنا أبى حدثنا سفيان، عن على بن زيد بن جدعان، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ - فى كلمات إبراهيم الثلاث ... الخ.

الثانى: حديث الشفاعة فى فصل القضاء يوم القيامة، هو حديث طويل يتضمن أن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحداً بعد واحد يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم، وفيه: أنه حينما يأتون إبراهيم - عليه السلام - يطلبون منه ذلك، يقول: لست هناكم إنى كذبت ثلاث كذبات قوله: ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله لامرأته: (إنى أخوك).

أخرج هذا الحديث البخارى من عدة طرق، فى أبواب متعددة: أخرجه فى تفسير سورة البقرة: عن أنس:

وفى تفسير سورة بنى إسرائيل (الإسراء) عن أبى هريرة وحذيفة ورواه أحمد عن أنس من طريقين وعن ابن عباس من طريقين، وأخرجه ابن خزيمة عن أنس والطبرانى من حديث عبادة بن الصامت، وأخرجه ابن أبى شيبة من حديث سلمان الفارسى،

وأخرجه أبو عوانة من رواية حذيفة، عن أبي بكر الصديق، ثم أنه روى مطولاً ومختصراً فإنه في بعضها الاختصار على القول بأن كل رسول يذكر خطيئته وفي بعضها التصريح بالخطيئة، بأن يقول إبراهيم: كذبت ثلاث كذبات. وفي بعضها يبين الكذبات الثلاث كما ذكرناه أولاً وفي بعضها زيادة قول النبي - ﷺ - [ما منها كذبة إلا ماحل بها عن دين الله] «وماحل: كجادل وزنا ومعنى» هذا ما وقفنا عليه من الأحاديث الصحيحة المثبتة للقصة، والدالة بصريح العبارة على أن سارة لم تكن أخت إبراهيم حقيقة، وهي - كما ترى - تكاد تكون القدر المشترك المثبت لأصل القصة، والدال على أن سارة لم تكن أخت إبراهيم - عليه السلام - حقيقة يكون متواتراً، فلسنا في حاجة إلى أن ندعي - كما ادعى ابن الصلاح - أن ما اتفق عليه البخاري ومسلم قطعي الثبوت، لتلقي الأمة كتابيهما بالقبول.

بل نحن تنزلنا إلى أبعد حد ممكن، فراجعنا الأحاديث التي انتقدت على البخاري من قبل بعض الحفّاظ، كحافظ عصره (الدارقطني) فلم نجد هذه الأحاديث التي ذكرناها لإثبات هذه القصة من ضمن الأحاديث المنتقدة، فلم يبق شك في صحتها، ولا مجال للطعن فيها لا يقال: إن في هذه الأحاديث نسبة الكذب إلى إبراهيم - عليه السلام - وقد قرر علماء التوحيد أن ما ورد - وفيه نسبة المعصية إلى نبي من الأنبياء - فإن كان مقطوعاً به وجب تأويله، وإن كان منقولاً بآحاد وجب رده. وقال الإمام الرازي في تفسيره في شأن الحديثين اللذين ذكرناهما ما نصه: (فلأن يضاف الكذب إلى الرواة أولى

من أن يضاف إلى الأنبياء) لأنَّا نقول : هذا من قبيل المعاريض، وهو نوع من البديع، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ قد صرح بذلك، إذ قال : (فإنك أختي في الإسلام) وحينئذ فليس فيه نسبة الكذب حقيقة إليه، وأما كلام الإمام الرازي فمردود، وقد رد عليه العلماء وخطأوه، وأثبتوا صحة الأحاديث، وهو نفسه قال : (فإن صح فهو محمول على المعاريض) .

ولا يقال : إذا كان الصادر من إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومن غيره من باقي الرسل المذكورين في حديث الشفاعة ليس بخطيئة، فلم امتنعوا من الإقدام على الشفاعة ؟ وأظهروا حالة الخوف من الله ـ تعالى ـ لصدور ما ذكروه عنهم ؟ لأنَّا نقول : لأن ما صدر عنهم ـ وإن لم يكن خطيئة في الواقع ـ فهو صورة خطيئة وعدم صدوره بالنسبة لمقام الأنبياء أولى من صدوره، فلم يروا في أنفسهم بالنسبة إلى ذلك أهلية الشفاعة العظمى التي هي من خصائص سيد الخلق على الإطلاق : سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

أما ما ذكروه في وجه الاستبعاد من أن سن سارة ـ إذ ذاك ـ كانت سبعين، فلم يثبت ذلك من طريق صحيح، وإنما الثابت قطعاً : أنها قالت ـ حينما بشر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بإسحاق ـ ﴿ قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز ﴾ واختلفوا في سنها إذ ذاك، فقيل تسعون، وقيل غير ذاك .

وذكر ابن كثير في تاريخه نقلا عن أهل الكتاب : (أنه لما كان لإبراهيم ببلاد المقدس (عشرون سنة) وهبت السيدة (سارة) له (هاجر) ودخل بها، وجاءت بإسماعيل ـ عليه السلام ـ

وذكر أيضاً : أن ولادة إسماعيل كانت قبل ولادة إسحاق (بثلاث عشرة سنة) ومعلوم : أن (هاجر) أم إسماعيل هي التي قدَّمها (الجبار) خادمة لسارة ، فإذا صح ما ذكرناه ، وكان مكث إبراهيم في بيت المقدس المدة الموضحة بعد خروجه من مصر مباشرة لم يتخللها مرة أخرى تكون سنُّها - حينما كانت عند الجبار - (سبعاً وخمسين سنة) .. (حاصلة من جمع العشرين سنة إلى الثلاث عشرة سنة : (٣٣) سنة تطرح من التسعين التي قيل إن سارة بلغتها حين ولدت إسحاق) .

وتقول اللجنة : على تسليم أن سنها كانت إذ ذاك سبعين فلا وجه للاستبعاد ، لأن مثل هذه السن بالنسبة للأعمار الطويلة التي كانت في تلك الأيام تعتبر سن شباب ، لا سن شيخوخة ، خصوصاً بالنسبة للسيدة سارة التي أعطيت حظاً كبيراً من الحسن والجمال - كما هو نص الحديث الأول - : ولأنها أعطيت حظاً كبيراً من التقوى ، وعدم الميل إلى الشهوات ولا يخفى ما في هذا من حفظ القوى ، وكما ذكره الحافظ ابن حجر : (أعطى يوسف وأمه شطر الحسن : يعني سارة) .

وكان رد الشيخ عبد الوهاب النجار على ذلك مايلي :

إن الأحاديث - وإن كانت صحيحة الإسناد - لا يمكن أن تكون برهاناً على إثبات أمر اعتقادي ، نقل صاحب الفتح : ج ٨ - ص ٤٣١ قال العلماء : (الأحاديث إذا كانت في مسائل عملية يكفي في الأخذ بها - بعد صحتها - إفادتها الظن ، أما إذا كانت في

العقائد فلا يكفى فيها إلا ما يفيد القطع متناً وسنداً) وعلى ذلك فلا تصلح تلك الأحاديث أداة لتقرير اعتقاد كذب إبراهيم، لوجوه:

١ - أن إبراهيم نبى كريم، ومن أخص الصفات الواجبة للأنبياء: الصدق، اللهم إلا أن يكون من يريد إثبات الكذب واتصاف إبراهيم به ممن يجوز على أنبياء الله الكذب ... ولست منهم.

٢ - إن الله - تعالى - يقول: ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴾ (سورة مريم. الآية: ٤١) فقد رأيت الله - تعالى - فى هذه الآية لم يكتف بإسناد الصدق إليه، بل عبر عن ذلك بصيغة المبالغة (صديقا) والصديق: من خُلقه الصدق، وجرى ذلك منه مجرى الأمور الطبيعية التى لا تتغير.

٣ - قال الله - تعالى -: ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾ (سورة النحل. الآية: ١٠٥) وما كنت أسمح لنفسى أن أنظم إبراهيم فى سلك الذين لا يؤمنون بآيات الله بنسبة الكذب إليه ولو على سبيل الصورة؛ لأن أقل مافيها أن أسوء الأدب فى حقه بنسبته إلى ذلك الوصف الدنىء ولو صورة.

٤ - قال الله - تعالى - فى حق إبراهيم - عليه السلام -: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ (سورة النحل. الآيتين: ١٢٠، ١٢١) وما كان الله ليجتبى كذاباً ولا من الهداية إلى الصراط المستقيم أن يكون المهدى كذاباً.

٥ - يقول الله - تعالى - لمحمد - ﷺ - : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ (سورة النحل . الآية : ١٢٣) وما كان الله ليأمر خاتم أنبيائه باتباع ملة رجل كذاب .

٦ - أمر الله - تعالى - رسوله محمداً - ﷺ - بأن يقول للزارين عليه : إنه هُدى إلى ملة إبراهيم بقوله : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ (سورة الأنعام . الآية : ١٦١) ولم يذكر وجه الاستشهاد بهذه الآية .

٧ - قال الله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ (سورة الأنبياء . الآية : ٥١) وليس من رشد الرجل في شيء أن يكون كذاباً .

٨ - بعد أن ذكر الله - تعالى - إبراهيم وما حاجّ به قومه وذكر معه سبعة عشر نبياً قال لرسوله محمد - ﷺ - : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فهل كان الله - تعالى - يأمره بالاقتداء برجل كذاب ؟

٩ - قال الله - تعالى - في إبراهيم : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ (سورة النحل . الآية ٢٢) .

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية : بأن الله حببه إلى الناس ، حتى أن أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه ... (ولم يذكر وجه الاستشهاد بهذه الآية أيضاً) .

١٠ - وقال - تعالى - : ﴿ رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ۞ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ (سورة الشعراء . الآيتين : ٨٣ ، ٨٤) . قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية [١] : أى وفقنى للكمال فى العمل ؛ لأنتظم به فى عداد الكاملين فى الصلاح الذى لايشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره . (ولم يذكُر وجه الاستشهاد بهاتين الآيتين كذلك) .

١١ - قال الله - تعالى - فى إبراهيم : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ (سورة الصافات . الآية : ١٠٨) أى : أبقينا له دعاء الناس فى الزمن الباقى وتسليمهم عليه أمة بعد أمة وسلامهم الحسن وثناءهم عليه فأى ثناء حسن يبقى لرجل ينبز بأنه كذاب ، قارف الكذب ثلاث مرات أو ستاً فى الدنيا ؟! (سوف يوضحها فيما بعد) والكذب ينتظره أيضاً يوم القيامة . وقد قال المفسرون فى قوله - تعالى - : ﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾ (سورة الصافات . الآية : ١١٠ بعد الآيتين ١٠٨ ، ١٠٩) ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ۞ سلام على إبراهيم ﴾ إشارة إلى بقاء ذكره الجميل بعد الأمم .

١٢ - سُئل رسول الله - ﷺ - : أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : [نعم] قيل : أيكون بخيلاً ؟ قال : [نعم] قيل : أيكون كذاباً ؟ قال : [لا] والكذاب جرىء على الله ، جبان أمام الناس ، فهو يستخفى من الناس بكذبه ، ويجابه الله بلا حياء ، وما كنتُ بالذى يصم إبراهيم بذلك .

---

(١) هكذا جاء فى الكتاب ، ولعله يقصد الآية الأولى من الآيتين ٨٣ .

على أن حضرات أصحاب الفضيلة لو تحروا الحق في شأن إبراهيم وكان كاذباً - حاشاه - كما يقولون لوجدوه قد كذب ست كذبات، وهي : (١- قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ . - قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ . ٣- قوله عن زوجه : (إنها أختي) . ٤- قوله : ﴿ هذا ربي ﴾ حين رأى كوكباً . ٥- قوله : ﴿ هذا ربي ﴾ حين رأى القمر . ٦- قوله : ﴿ هذا ربي ﴾ حين رأى الشمس) .

فهذه ست كذبات ينتظره كذبات غيرهن يوم القيامة، حين يهرع الناس إليه طالبين أن يشفع لهم في فصل الخطاب؛ إذ يقول لهم : لست هناكم، إني كذبت ثلاث كذبات، مع أنهن ست وهكذا يجعلونه كذاباً في الدنيا، كذاباً في الآخرة.

ولم يكفهم تلك السبع من الكذبات (الست التي في الدنيا، والواحدة يوم القيامة في فصل الخطاب) حتى يتأولوا فيهن، فتكون نتيجة التأويل أنه احتال على الناس، وصرفهم عن إجابة طلبهم إلى الشفاعة في الموقف بما ليس عذراً حقيقة؛ إذ كذباته ليست مما يوجب عقاباً، فإجابته إنما هي تملص من طلبهم الذي افتدى عنه بإلصاق الكذب بنفسه، وهو اعتذار لا يحسن؛ لأن كذبه لا تبعة عليه فيه، فهل هذا لسان الصدق الذي جعله الله لإبراهيم ؟

وبعد هذا : فهل ما حصل من إبراهيم هو كذب ؟ أو صورة كذب كما يدعون ؟

والجواب : كلا، فإن قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ يحتمل أنه كان به

سقم خفيف ، أو أنه كان سقيم الباطن والضمير ، قلق الخاطر مألوماً في نفسه ، ولرؤية قومه يعبدون غير الله ، ولا يصغون لعظة ولا نصيحة

وأما قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ فإن الجواب عليه يحتاج إلى أن نشرح ما هو الكذب فنقول : الكذب : الإخبار عن الشيء على غير ما هو عليه في الواقع مع اعتقاد المخبر أن ما قاله غير مطابق للواقع قاصداً بذلك خديعة السامع لخبره ، وإيهامه أن الشيء على ما أخبر به ابتغاء إضلاله عن الحق ، مع إمكان أن يقع كلامه من السامع موقع الصدق فإذا كان الكلام لا يمكن أن يفيد ذلك لم يكن هناك كذب في الخبر ، فهل كان إبراهيم يضلل قومه ليعتقدوا أن الصنم الأكبر قد حطم سائر الأصنام ؟ كلا فإن الذي يعتقد أن الصنم المصنوع من خشب أو غيره ـ من حجر أو معدن ـ يأخذه الغيظ من أمثاله فيعمد إلى تحطيمهن ، ولا يكون عنده ذرة عقل ، وما كان القوم بهذا المقدار من الغباء .

(بل كان القوم بهذا المقدار من الغباء وأكثر من هذا القدر من الغباء والجهل ، فكفى بقمة الغباء والجهل والضلال أنهم عبدوا الأصنام ، وجعلوها آلهة من دون الله ، فلم يوفق الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا التعبير) .

فإبراهيم إنما قال لهم ما قاله على سبيل الاستهزاء بهم ، وليجرهم إلى إقامة حجته واضحة جلية ، ومعلوم أن لا كذب في ذلك .

وأما قوله عن زوجه : أختي ، فإنه إذا كان وقع منه ذلك فيحتمل

أن تكون أخته حقيقة، كما يحتمل أن تكون ابنة عمه، وإطلاق الأخت على بنت العم سائغ لا تنكره اللغة ويحتمل أن تكون بعيدة منه، وأنه يريد أختى فى الدين، كل محتمل ولا كذب فيه.

وعلى ذلك لم يحصل من إبراهيم كذب ولا صورة كذب.

انتهى ما رأينا نقله من كتاب «قصص الأنبياء» للشيخ عبد الوهاب النجار فى رأيه عن أقوال سيدنا إبراهيم التى جاءت مخالفة - فى ظاهرها للواقع - ورد لجنة العلماء عليها.

والعجيب الغريب أن هذه الضجة - التى أثاروها والمعركة التى أوقدوا نارها، لم تكن تحتاج إلى أن توقد لها النيران لم تكن بسبب خلاف جوهرى كبير فى الرأى بينهما حول أقوال سيدنا إبراهيم.

فهذه الأقوال: ﴿إنى سقيم﴾ و ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ و ﴿هذا ربى﴾ لكوكب الزهرة و ﴿هذا ربى﴾ للقمر و ﴿هذا ربى﴾ للشمس. سجلها القرآن الكريم على سيدنا إبراهيم.

كما سجلتها روايات حديث نبوى شريف - إذا صح إسناده إلى رسول الله ﷺ - فلا مجال لأى من الطرفين فى إنكارها، أو التشكيك فى صدورها عن إبراهيم.

وإذا كانت نقطة الخلاف بينهما: أن الشيخ عبد الوهاب النجار ينفى أنها كذبات، أو فى صورة كذبات، وأعطاها التفسير والتأويل الذى ينفى عنها حقيقة الكذب أو صورته، بينما اللجنة تقرر أنها كذبات رخص بها الله - عز وجل - لخليله إبراهيم استدراجًا لقومه،

وتأكيداً لحجته عليهم، فإن هذا التصرف من الطرفين - في محصله ونتيجته - يبرئ سيدنا إبراهيم من الاتصاف بتهمة الكذب وعنفوان الضجة أو المعركة في قوله عن زوجه سارة : (هي أختي) لأن هذا القول لم يسجل في القرآن الكريم، وإنما جاء مع تلك الأقوال - في روايات الحديث النبوي إذا صح إسناده إلى رسول الله ﷺ - وكان تفسيرها وتأويل الطرفين لها يسير في نفس طريق تفسير وتأويل الكلمات الثلاث، أو الست الأول، ويهدف إلى نفس الهدف، وهو تبرئة سيدنا إبراهيم من وصمة الكذب، وهو نفس التفسير بقوله في الحديث : (فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك).

ومن اليقين : أن رسول الله - ﷺ - إذا صح إسناد هذا الحديث إليه فإنه لا يمكن أن يكون قد أراد أن يتهم أبا الأنبياء وخليل الرحمن : جده - عليه السلام - إبراهيم - عليه السلام - حاشا رسول الله - ﷺ - وحاشا سيدنا إبراهيم - عليه السلام -

ولكننا نميل إلى رد هذا الحديث لسبب آخر هو طريقة الصياغة اللفظية التي صيغت بها هذه الروايات واضطراب الأسلوب فيها حيناً وضعف الترابط بين بعضها حيناً آخر، بما يختلف عن بلاغة أسلوب الأحاديث النبوية الشريفة وتبقى روايات حديث الشفاعة بعيدة عن هذه المعركة دون تفسير أو تأويل، مع أنها في أشد الحاجة إلى التفسير والتأويل؛ لأنه حديث تواتر، لا يجوز رده عند الجميع.

٤ - أما كتاب «النبوة والأنبياء» فقد عقد فصلاً مطولاً عن عصمة

الأنبياء، رد فيه على الأقوال الثلاثة : ﴿إني سقيم﴾ و ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ و (هذه أختى) وأضاف إليها ردا على شبهتين، تضمنت الأولى ذلك القول الرابع الذى أشار إليه القرطبى : ﴿هذا ربى﴾ وكانت الثانية فى قوله ـ تعالى ـ من سورة البقرة. الآية: ٢٦٠ : ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى﴾.

ننقل من هذا الكتاب أولاً[1] : (أما ما ورد فى السنة الشريفة مايشير ظاهره إلى عدم العصمة بحق إبراهيم ـ عليه السلام ـ وذلك فى قوله ـ عليه السلام ـ : [لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، اثنتين منهن فى ذات الله : قوله : ﴿إني سقيم﴾ وقوله : ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وقال : بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها : من هذه؟ قال : (أختى) فأتى فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبنى عليك، فإن سألك فأخبريه : أنك أختى فى الإسلام . . .] إلى آخر الحديث الذى ذكرناه مروياً من البخارى ومسلم، فهذا الحديث الشريف ليس فيه ما يدل على عدم العصمة؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ لم يقصد بهذه الكذبات الثلاث حقيقة معنى الكذب، إنما قصد أن إبراهيم الخليل أخبر بإخبارات توهم الكذب فى الصورة، وهى ليست بكذب فى الحقيقة والواقع فقول إبراهيم لقومه : ﴿إني سقيم﴾ وقوله : ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ إنما هو نوع من التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المعبودة فأراد بقوله : ﴿إني سقيم﴾ المعنى المجازى، أى : إنى سقيم

(١) النبوة والأنبياء : ص ٩٧ ـ ٩٩.

من عبادتكم لهذه الأصنام التى لا تسمع ولا تنفع، ولا تغنى عن صاحبها شيئاً وكما يكون الإنسان سقيم الجسيم يكون سقيم النفس، وخاصة إذا رأى قومه فى الجهالة والضلالة يتيهون ودعاهم إلى الهدى ولكنهم ظلوا فى ضلالتهم يعمهون ؟

وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ لم يكن فى الحقيقة كذباً، وإنما هو نوع من الحجة الدامغة والبرهان الساطع، أراد أن يقيمه إبراهيم على قومه فحين سألوه : من حطم هذه الأصنام ؟ أشار إلى الصنم الأكبر سخرية وتهكما بهم وبهذه الأصنام ثم لما رآهم متعجبين من كلامه، أجابهم بالجواب المسكت ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾.

وأما قوله لزوجته سارة : (إنك أختى) فإنما قصد به أخوة العقيدة، أخوة الإيمان، كما قال - تعالى - : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ولم يقصد به أخوة النسب، لأنها زوجته وليست أخته وكل هذا إنما هو من التعريض لا من الكذب الذى يؤاخذ صاحبه، ويأثم فاعله، وقد روى : [إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب] (الحديث أخرجه البخارى فى الأدب ترجمة ٨ / ٥٧ باب : المعاريض مندوحة عن الكذب) أى : إن فى التعريض ما يمنع المسلم عن الوقوع فى الكذب المحرم فليس إذا فى كلام إبراهيم ما يدل على تعمد الكذب الذى يخل بعصمة الأنبياء، وإنما هو نوع من التعريض المباح، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

وننقل من هذا الكتاب ثانيا [1] : وأما بالنسبة لإبراهيم الخليل - صلوات الله عليه - فقد وردت بعض النصوص من الكتاب والسنة

(١) قصص الأنبياء : ص ٩١ - ٩٧.

ظاهرها يفيد عدم العصمة وهذا الظاهر غير مراد ؛ لأنه يعارض نصوصا أخرى، ولابد ـ حين الجمع بين هذه النصوص ـ من فهمها على الوجه الذى يتفق مع عقيدة المسلم بـ (عصمة الأنبياء) الكرام .

أما النص الأول فهو فى سورة الأنعام، فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ۞ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ۞ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ۞ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾(١)

فهذه الآيات الكريمة توهم بظاهرها : أن إبراهيم كان شاكا فى الله ، جاهلا بعظمته ، لا يدرى : من هو الإله المستحق للعبادة وقد يظن بعض الناس أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان متأثرا ببيئة قومه وأنه ـ فى بدء نشأته ـ عبد معهم الكواكب ، كما عبد الشمس والقمر .

وهذا جهل فاضح وخطأ مبين لا يصدر إلا عمن جهل صفات الأنبياء الكرام ، ولم يفقه معانى القرآن الحكيم ، فالله ـ جل ثناؤه ـ قد أخبر عن نبيه وخليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه أطلعه على ملكوت السموات والأرض وأنه كان من المؤمنين الموحدين الكاملين فى الإيمان واليقين، وأن الله تعالى قد وهبه كمال الرشد منذ الصغر،

(١) الآيات من ٧٦ إلى ٧٩ من سورة الأنعام.

وأعطاه الحجة الدامغة التى تقصم ظهر كل معاند ومكابر وأنه فى مقام الاستدلال وإقامة البرهان على وجود الله الواحد الأحد ما كان يغلبه أحد والآيات إنما هى فى مقام الاستدلال على وجود الله، وفى تقرير الحجة على قومه، بحيث يتنزل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم، ويتدرج معهم على حسب اعتقادهم، فيقول عن النجم: هذا ربى ثم عن القمر، ثم عن الشمس، ليبطل عقيدتهم فى عبادة هذه الآلهة المزعومة بالمنطق السليم، وبالحجة والبرهان.

ولهذا ختم هذه القصة بقوله - جل وعلا -:

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾[1].

ولقد ذكر العلامة (الزمخشرى) كلاماً رائعاً ننقل طرفاً منه حول تفسير هذه الآيات الكريمة، قال - رحمه الله -: (وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام، والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم، ويرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها.

وقول إبراهيم: ﴿ هذا ربى ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكى قوله كما هو، غير متعصب لمذهبه؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأنجى من الشغب ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة، حيث يقول: ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ أى: لا أحب عبادة

---

(1) سورة الأنعام الآية: ٨٣.

الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام، وقوله: ﴿ لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضآلين ﴾ [1] تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً - وهو نظير الكوكب في الأفول - فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه [2].

فالقصة التي ساقها القرآن الكريم إنما ترمز إلى أسلوب الإقناع، وقوة الحجة التي أعطاها الله - سبحانه وتعالى - لنبيه وخليله إبراهيم - عليه السلام - وكيف استطاع أن يفحم قومه في إقامة البرهان على وجود الله، وأن يبرهن لهم ضلالهم وخطأهم في عبادة الكواكب والشمس والقمر ويظهر أن إبراهيم - عليه السلام - قد سلك معهم أيسر الطرق لبلوغ غرضه، فلم يجابههم بالضلال، وإنما تدرج معهم، فادعى أن (الكوكب) الذي رآه ساطعاً في السماء هو ربه؛ وذلك ليستأنسوا بكلامه ثم لما غاب الكوكب أنكر إبراهيم أن يكون هذا الكوكب صالحاً لأن يكون ربه؛ لأنه متغير متنقل - وذلك علامة الحدوث - ثم لما رأى (القمر) بازغاً مضيئاً في السماء قال: هذا ربي، فلما غاب القمر ولم يعد له نور أنكر أن يكون رباً معبوداً، وهنا لمَّح إبراهيم إلى ضلالهم، ولكن بأسلوب في منتهى الحكمة، حيث قال:

﴿ لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضآلين ﴾ فما عرض إلى التصريح بضلالهم، إنما اتهم نفسه بالضلالة إن عبد هذا الإله المتحرك المتنقل، الذي تظهر عليه علامات الحدوث ثم لما بزغت

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٧٧.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ٢ / ٤٠.

الشمس وسطعت بأشعتها الذهبية على الكون، وأضاءت الوجود، قال: هذه الشمس ربى فهى أكبر المخلوقات وهى أحق بالعبادة من سائر النجوم والكواكب.

وقال ذلك ليقيم الحجة على ضلالهم فلما غابت الشمس وتوارت خلف الأرض، ولم يعد لها ضياء أو نور صرح هنالك بضلال من يعبدها، أو يعبد تلك المحدثات وتبرأ من قومه ومن عبادتهم لها وذلك بعد أن ظهرت الحجة، وتبلج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود.

﴿ قال ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ [1] إلى قوله تعالى: ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ [2]

فظهر أن هذه الأقوال من إبراهيم الخليل لم تكن شكًا فى الله، ولم تكن جهلاً بالخالق جل وعلا، وإنما كانت من أجل إقامة الحجة على ضلال قومه عن طريق البرهان والاستدلال، وإفحامهم بأعظم الحجج الدامغة.

..ثم يتحدث كتاب «النبوة والأنبياء» عن النص الثانى فيقول:

---

(١) سورة الأنعام الآيتان: ٧٨، ٧٩.
(٢) سورة الأنعام الآية: ٨٣.

وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى

أما النص الثاني الذي يوهم عدم العصمة فهو قوله تعالى من سورة البقرة، الآية ٢٦٠ : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ فإن هذا النص الكريم قد يفهم منه أن إبراهيم الخليل كان شاكا في قدرة الله على إحياء الموتى وهذا الفهم غير سليم، فمعاذ الله أن يشك إبراهيم في ربه أو في قدرة الله تعالى، إنما سأل عن الكيفية ولم يسأل عن الماهية، فلم يقل : هل تقدر يارب أن تحيي الموتى ؟ والسؤال عن الكيفية إنما هو بقصد الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية يقول الشيخ (أحمد المنير) في تعليقه على تفسير الكشاف : (أما سؤال الخليل - عليه السلام - فليس عن شك - والعياذ بالله - في قدرة الله على الإحياء، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ونظيره : أن يقول القائل : كيف يحكم زيد في الناس ؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه يسأل عن كيفية حكمه وقد قطع النبي - عليه الصلاة والسلام - دابر الوهم بقوله : [نحن أحق بالشك من إبراهيم] (١) أي : ونحن لم نشك، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى وأراد بقوله : ﴿ أولم تؤمن ﴾ : أن ينطق إبراهيم بقوله : بلى آمنت، ليرفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى ليكون إيمانه مخلصا، نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهما لا يلحقه فيه شك) (٢).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦ / ٢٩٤ فتح الباري ومسلم رقم ١٥١ والترمذي ٣١١٥

(٢) النبوة والأنبياء، ص ٩٦، ٩٧ نقلا عن تفسير الكشاف ١ / ٣٠٨.

فماذا يقول المفسرون في هذا النص الكريم الذي قد يوهم عدم العصمة ؟

١ - يقول ابن كثير[1] : (ذكروا لسؤال إبراهيم - عليه السلام - أسبابًا منها : أنه لما قال لنمرود : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين - بذلك - إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فأما الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة ، ورواه مسلم عن وهب : قال رسول الله - ﷺ - : [نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي] فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة ، أحدها في هامش نهاية الصفحة ٢٩٨ يقول محقق النسخ : هنا بياض بالنسخ التي بأيدينا ونذكر ما قاله البغوي إتمامًا للفائدة ، قال : حكى محمد بن إسحاق ، عن إسماعيل بن يحيى ، أنه قال - على هذا الحديث - : لم يشك النبي - ﷺ - ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى ، وإنما شكًا في أنه : هل يجيبهما إلى ما سألا ؟ وقال أبو سليمان الخطابي : ليس في قوله : نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ، ولا على إبراهيم ، لكن فيه : نفي الشك عنهما ، يقول : إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأنه لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع وفيه الإعلام بأن المسألة من إبراهيم - عليه السلام - لم تعرض من جهة الشك ، ولكن من قبيل زيادة العلم بالعيان ؛ فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال وقيل : لما

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، المجلد الأول ، ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

نزلت هذه الآية قال قوم : شك إبراهيم، ولم يشك نبينا فقال رسول الله - ﷺ - هذا القول تواضعاً منه، وتقديماً لإبراهيم على نفسه).

ويتابع ابن كثير تفسيره فيقول : وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر، عن أيوب، في قوله ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ : قال ابن عباس : ما في القرآن آية أرجى عندي منها وقال ابن جرير : حدثني محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة : سمعت زيد بن علي يحدث عن رجل، عن سعيد بن المسيب، قال : اتفق عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو العاص : أن يجتمعا قال : ونحن شببة فقال أحدهما لصاحبه : أي آية في كتاب الله أرجى عندك لهذه الأمة ؟ فقال عبد الله بن عمرو : قوله تعالى ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾[1] الآية . . فقال ابن عباس : أما إن كنت تقول هذا فأنا أقول : أرجى منها لهذه الأمة قول الله - عز وجل - : ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح - كاتب الليث - حدثني محمد بن أبي سلمة، عن عمرو، حدثني ابن المنكدر أنه قال : التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص : أي آية في القرآن أرجى عندك ؟ فقال عبد الله بن عمرو : قول الله عز وجل : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآية فقال ابن عباس : لكن أنا أقول : قول الله عز

(١) من الآية ٥٣ من سورة الزمر.

وجل : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ﴾ فرضى من إبراهيم قوله (بلى) قال : فهذا لما يعترض في النفوس، ويوسوس به الشيطان، وهكذا رواه الحاكم في المستدرك.

وتتميماً للفائدة يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى - بعد قوله : ولكن ليطمئن قلبى - : ﴿ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (١) : اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هى ؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها ؛ إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن.

فروى عن ابن عباس أنه قال : هى (الغرنوق والطاووس والديك والحمامة) وعنه أيضا : (أنه أخذ أوزاً ورألا (وهو فرخ النعام) وديكاً وطاووساً) وقال مجاهد وعكرمة : كانت حمامة وديكا وطاووساً وغراباً وقوله : ﴿ فصرهن إليك ﴾ أى : وقطعهنّ قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، وأبو الأسود الدؤلى، ووهب بن منبه، والحسن، والسدى، وغيرهم وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ فصرهن إليك ﴾ : أوثقهن فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهنّ جزءا فذكروا : أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن، ونتف ريشهن، ومزقهن، وخلط بعضهنّ ببعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهنّ جزءاً . . قيل : أربعة أجزاء وقيل : سبعة، قال ابن عباس : رءوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهنّ، فدعاهن كما

---

(١) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً ؛ ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها وجعل كل طائر يجئ ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ولهذا قال : ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ .

٢ ـ ويقول (القرطبى) (١) : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ : اختلف الناس فى هذا السؤال، هل صدر من إبراهيم عن شكٍ أم لا ؟ فقال الجمهور : لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكاً فى إحياء الله الموتى قطُّ، وإنما طلب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أُخبرت به قاله أبو عمر قال الأخفش : لم يرد رؤية القلب، وإنما أراد رؤية العين وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والربيع : سأل ليزداد يقيناً إلى يقينه قال ابن عطية : وترجم الطبرى فى تفسيره فقال : وقال آخرون : سأل ذلك ربه لأنه شك فى قدرة الله تعالى، وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس قال : ما فى القرآن آية أرجى عندى منها وذكر عن عطاء بن أبى رباح أنه قال : دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس، فقال : يارب أرنى كيف تحيى الموتى، وذكر حديث أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : [نحن

(١) الجامع لأحكام القرآن، المجلد الثانى، الجزء الثالث، من ص ٢٩٧ ـ ٣٠٢.

أحق بالشك من إبراهيم] الحديث . ثم رجح الطبرى هذا القول . .
قلت : حديث أبي هريرة خرجه البخارى ومسلم عنه : أن رسول الله - ﷺ - قال : [نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ويرحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى] قال ابن عطية : وما ترجم به الطبرى عندى مردود وما أدخل تحت الترجمة متأول :
فأما قول ابن عباس : (هى أرجى آية) فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى ، وسؤال الإحياء فى الدنيا ، وليست مظنة ذلك ويجوز أن يقول : هى أرجى آية لقوله تعالى : ﴿ أولم تؤمن ﴾ أى أن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير وبحث وأما قول عطاء : دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فمعناه : من حيث المعاينة على ما تقدم وأما قول النبى - ﷺ - : نحن أحق بالشك من إبراهيم فمعناه : أنه لو كان شاكًا لكنا نحن أحق به ، ونحن لا نشك ، فإبراهيم - عليه السلام - أحرى ألا يشك فالحديث مبنىٌ على نفى الشك عن إبراهيم والذى روى فيــه عن النبى - ﷺ - أنه قـال : [ذلك محض الإيمان ، إنما هو فى الخواطر التى لا تثبت وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا ميزة لأحدهما على الآخر ، وذلك هو المنفى عن الخليل - عليه السلام - وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع ، وقد كان إبراهيم - عليه السلام - أعلم به ، يدلك على ذلك قوله : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ (1) فالشك يبعد على من تثبت قدمه فى

---

(1) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة فى محاجة إبراهيم للنمرود تحت عنوان (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه . .) بداية الآية .

الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخُلة والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعا وإذا تأملت سؤاله وسائر الألفاظ للآية لم تعط شكًا وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شئ موجود فيتقرر الوجود عند السائل والمسئول، نحو قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا، ومتى قلت: كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله و(كيف) في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شئ قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشئ يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشئ في نفسه لا يصح مثال ذلك أن يقول مدّع: أنا أرفع هذا الجبل فيقول المكذب له: أرني كيف ترفعه! فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها: تسليم جدل، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه، فأرني كيف ترفعه! فلما كانت عبارة الخليل - عليه السلام - بهذا الاشتراك المجازي خلص الله له ذلك، وحمله على أن يتبين له الحقيقة، فقال له: ﴿ أولم تؤمن قال بلى ﴾ فكمل الأمر وتخلص من كل شك، ثم علل - عليه السلام - سؤاله بالطمأنينة.

يقول القرطبي: هذا ما ذكره ابن عطية، وهو بالغ ولا يجوز على الأنبياء - صلوات الله عليهم - مثل هذا الشك؛ فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث وقد أخبر الله تعالى: أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل، فقال: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (١) وقال اللعين: ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (٢)، وإذ

(١) من الآية ٤٢ من سورة الحجر ومن الآية ٦٥ من سورة الإسراء.
(٢) من الآية ٤٠ من سورة الحجر.

لم يكن عليهم سلطنة فكيف يشككهم ! وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقوله ﴿ أرني كيف ﴾ طلب مشاهدة الكيفية وقال بعض أهالي المعاني : إنما أراد إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي القلوب، وهذا فاسد مردود بما تعقبه من البيان ذكره الماوردي وليست الألف في قوله ﴿ أولم تؤمن ﴾ ألف استفهام، وإنما هي ألف إيجاب وتقرير.

﴿ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ أي : سألتك ليطمئن قلبي بحصول الفرق بين المعلوم برهانا والمعلوم عيانا، وطمأنينة القلب : هي أن يسكن فكره في الشئ المعتقد، والفكر في صورة الإحياء غير محظور، فأراد الخليل أن يعاين، فيذهب فكره في صورة الإحياء وقال السدي وابن جرير : أولم تؤمن بأنك خليلي ؟ قال : بلى، ولكن ليطمئن قلبي بالخلة، وقيل : دعا أن يريه كيف يحيي الموتى ليعلم هل تستجاب دعوته فقال الله له : أولم تؤمن أني أجيب دعاءك ؟ قال : بلى، ولكن ليطمئن قلبي أنك تجيب دعائي.

واختلف في المحرك له على ذلك، فقيل : إن الله وعده أن يتخذه خليلا، فأراد آية على ذلك قاله السائب بن زيد وقيل : قول النمرود : أنا أحيي وأميت وقال الحسن : رأى جيفة نصفها في البر توزعها السباع، ونصفها في البحر توزعها دواب البحر، فلما رأى تفرقها أحب أن يرى انضمامها، فسأل ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع كما رأى التفريق فقيل له : ﴿ فخذ أربعة من الطير ﴾ قيل : هي الديك والطاووس، والحمام، والغراب ذكر ذلك ابن إسحاق وقال مجاهد وابن جريج وعطاء بن يسار، وابن زيد : وقال ابن

عباس مكان الغراب : الكركي وعنه أيضاً : مكان الحمام : النسر فأخذ هذه الطير حسب ما أمر، وذكاها، ثم قطعها قطعاً صغاراً، وخلط لحوم البعض إلى لحوم البعض مع الدم والريش حتى يكون أعجب، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءاً على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء، وأمسك رءوس الطير في يده، ثم قال : تعالين بإذن الله فتطايرت تلك الأجزاء، وطار الدم إلى الدم، والريش إلى الريش، حتى التأمت كما كانت أولاً، وبقيت بلا رءوس، ثم كرر النداء، فجاءته سعياً، أي : عدوا على أرجلهن قاله النحاس وكان إبراهيم إذا أشار إلى واحد منها بغير رأسه تباعد الطائر، وإذا أشار إليه برأسه قرب، حتى لقى كل طائر رأسه، وطارت بإذن الله وقال الزجاج : المعنى : ثم اجعل على كل جبل من كل واحد جزءا.

قال ابن عباس : أمر الله تعالى إبراهيم بهذا قبل أن يولد له، وقبل أن ينزل عليه الصحف والله أعلم.

٣ ـ ويقول (الطبرى) [١] : القول في تأويل قوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ واختلف أهل التأويل في سبب مسألة إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، فقال بعضهم : كانت مسألته ذلك ربه أنه رأى دابة قد تقسمتها السباع والطير، فسأل ربه : أن يريه كيفية إحيائه إياها مع تفرق لحومها في بطون طير الهواء وسباع الأرض؛ ليرى ذلك عياناً فيزداد يقيناً برؤيته ذلك عياناً إلى علمه به خبراً، فأراه الله ذلك مثلاً بما أخبر أنه أمر به . حدث بذلك عن قتادة

(١) جامع البيان، المجلد الثالث، الجزء الثالث، ص ٣٢، ٣٣.

وحدث عن الضحاك يقول : مر إبراهيم على دابة ميت قد بلى وتقسمه الرياح والسباع، فقام ينظر، فقال : سبحان الله كيف يحيى الله هذا ؟ وقد علم أن الله قادر على ذلك.

وقال آخرون : بل كان سبب مسألته ربه ذلك المناظرة والمحاجة التى جرت بينه وبين نمرود فى ذلك حدث بذلك عن محمد بن إسحاق.

وقال آخرون : بل كانت مسألته ذلك ربه عند البشارة التى أتته من الله بأنه اتخذه خليلاً، فسأل ربه : أن يريه عاجلاً من العلامة له على ذلك ليطمئن قلبه بأنه قد اصطفاه لنفسه خليلاً ويكون ذلك لما عنده من اليقين مؤيداً.

يقول الطبرى : (وقال آخرون : قال ذلك لربه؛ لأنه شك فى قدرة الله على إحياء الموتى .. !) [1].

وهذا القول غير صحيح، يحتاج إلى توضيح المقصود به، ولم يكلف الطبرى نفسه مهمة الرد عليه بنفس الحماس الذى رد به - على مثله - القرطبى، وابن كثير، وصاحب صفوة التفاسير، والنبوة والأنبياء مع ما فى مخالفة ذلك لألفاظ سؤال سيدنا إبراهيم إذ ليس السؤال عن : هل أنت تحيى الموتى أم لا ؟ وإنما هو عن : كيف تحيى الموتى ؟

يقول الطبرى : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية : ما صح به الخبر عن رسول الله - ﷺ - أنه قاله، وهو قوله : [نحن أحق بالشك من إبراهيم] قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أولم تؤمن وأن

---

(١) جامع البيان، المجلد الثالث، الجزء الثالث، ص ٣٤ - ٤٠.

تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه، كالذى ذكرنا عن ابن زيد آنفاً من أن إبراهيم لما رأى الحوت الذى بعضه في البر وبعضه في البحر قد تعاوره دواب البر ودواب البحر وطير الهواء ألقى الشيطان في نفسه، فقال : متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء ؟ فسأل إبراهيم حينئذ ربه أن يريه كيف يحيى الموتى : ليعاين ذلك عياناً، فلا يقدر ذلك الشيطان أن يلقى في قلبه مثل الذى ألقى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك، فقال له ربه : أو لم تؤمن ؟ يقول : أولم تصدق يا إبراهيم بأني على ذلك قادر ؟ قال : بلى يارب، لكن سألتك أن تريني ذلك ليطمئن قلبى فلا يقدر الشيطان أن يلقى في قلبي مثل الذى فعل عند رؤيتى هذا الحوت حدثنى بذلك يونس، قال : أخبرنا ابن وهب عن ابن زيد.

﴿ قال فخذ أربعة من الطير ﴾ فذكر أن الأربعة من الطير : الديك، والطاووس، والغراب، والحمام حدث من ذكر ذلك عن ابن حميد، عن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم : أن أهل الكتاب الأول يذكرون : أنه أخذ طاوسا، وديكا، وغرابا، وحماما وحدث بذلك عن (مجاهد، وابن جريج) وابن زيد قال : فأخذ طاوسا، وحماما، وغرابا، وديكا، مخالفة أجناسها وألونها.

﴿ فصرهن إليك ﴾ : اضممهن إليك، ووجههن نحوك، ثم قطعهن، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً وحدث عن مجاهد : ﴿ فصرهن إليك ﴾ : انتفهن بريشهن ولحومهن نتفاً، ثم اخلط لحومهن بريشهن وحدث عن قتادة : ﴿ فصرهن إليك ﴾ أمر نبى الله

ـ عليه السلام ـ أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحهن، ثم يخلط بين لحومهن وريشهن ودمائهن.

﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ﴾ اختلف أهل التأول في تأويل قوله : ﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ﴾ فقال بعضهم : يعنى بذلك : على كل ربع من أرباع الدنيا جزءا منهن وحدث عن ابن عباس قال : اجعلهن في أرباع الدنيا، ربعا هاهنا، وربعا هاهنا، وربعا هاهنا، وربعا هاهنا، ثم ادعهن يأتينك سعياً وعنه ـ في رواية أخرى ـ : قال : لما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً وحدث عن قتادة قال : أُمر نبى الله أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحهن، ثم يخلط بين لحومهن وريشهن ودمائهن، ثم يجزئهن على أربعة أجبل فذكر لنا أنه شكل على أجنحتهن، وأمسك برءوسهن بيده، فجعل العظم يذهب إلى العظم، والريشة إلى الريشة، والبضعة إلى البضعة، وذلك بعين خليل الله إبراهيم ـ ﷺ ـ ثم دعاهن، فأتينه سعياً على أرجلهن، ويلقى كل طير برأسه، وهذا مثل آتاه الله إبراهيم، يقول : كما بعث هذه الأطيار من هذه الجبال الأربعة كذلك يبعث الله الناس يوم القيامة من أرباع الأرض ونواحيها وحدث بنحو ذلك عن الربيع وحدث عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم أن أهل الكتاب يذكرون : أنه أخذ الأطيار الأربعة ثم قطع كل طير بأربعة أجزاء، ثم عمد إلى أربعة جبال، فجعل على كل جبل ربعا من كل طائر، فكان على كل جبل ربع من الطاووس، وربع من الديك، وربع من الغراب، وربع من الحمام ثم دعاهن، فقال : تعالين بإذن الله كما كنتن فوثب كل ربع منها إلى صاحبه، حتى اجتمعن، فكان كل

طائر كما كان قبل أن يقطعه، ثم أقبلن سعياً كما قال الله وقيل: يا إبراهيم، هكذا يجمع الله العباد، ويحيى الموتى للبعث من مشارق الأرض ومغاربها، وشامها، ويمنها، فأراه الله إحياء الموتى بقدرته، حتى عرف ذلك بغير ما قال نمرود من الكذب والباطل. وحدث بنحو ذلك عن ابن زيد.

وقال آخرون: بل معنى ذلك ثم اجعل على كل جبل من الأجبال التى كانت الأطيار والسباع التى كانت تأكل من لحم الدابة التى رآها إبراهيم ميتة، فسأل إبراهيم عند رؤيته إياها أن يريه كيف يحييها وسائر الأموات غيرها وقالوا: كانت سبعة أجبال[1].

حدث من ذكر ذلك عن ابن جريج، قال: لما قال إبراهيم ما قال عند رؤيته الدابة التى تفرقت الطير والسباع عنها حين دنا منها، وسأل ربه ما سأل، قال: ﴿ فخذ أربعة من الطير ﴾ قال ابن جريج: فذبحها ثم خلط بين دمائهن، وريشهن، ولحومهن ﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ﴾ حيث رأيت الطير ذهبت إلى كل قطرة من دم تطير إلى القطرة الأخرى، وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى، وكل بضعة وكل عظم يطير بعضه إلى بعض من رءوس الجبال، حتى لقيت كل جثة بعضها بعضاً فى السماء ثم أقبلن يسعين حتى وصلت رأسها وحدث بنحو ذلك عن السدى.

وقال آخرون: بل أمره الله أن يجعل ذلك على كل جبل حدث بذلك عن مجاهد من ثلاث طرق، وعن الضحاك من طريقين.

وجاء فى تفسير غرائب القرآن، ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابورى، بهامش جامع البيان ما يلى: [2].

---

(١) هكذا فى جامع البيان، المجلد الثالث، ص ٣٩.
(٢) هامش جامع البيان، المجلد الثالث، الجزء الثالث، ص ٣٦ - ٣٩.

ذكروا في سبب سؤال إبراهيم وجوهاً :

الأول : قال الحسن والضحاك وقتادة وعطاء وابن جريج : إنه رأى جيفة مطروحة على شط النهر، فإذا مد البحر أكل منها دواب البحر وإذا جزر جاءت السباع فأكلت، فإذا أكل السباع جاءت الطيور فأكلت وطارت فقال إبراهيم : رب أرني كيف تجمع أجزاء هذا الحيوان من بطون السباع والطيور ودواب البحر فقيل : أولم تؤمن ؟ قال : بلى، ولكن المطلوب بالسؤال : أن يصير العلم الاستدلالي ضرورياً.

الثاني : قال محمد بن إسحاق، والقاضي : إنه في مناظرته مع نمرود لما قال : ربي الذي يحيي ويميت قال الكافر : أنا أحيي وأميت، فأطلق محبوساً، وقتل آخر فقال إبراهيم : ليس هذا بإحياء أو إماتة وعند ذلك قال : ﴿ رب أرني كيف تحي الموتى ﴾ لتكشف هذه المسألة عند نمرود وأتباعه، ويزول الإنكار عن قلوبهم وروى أن نمرود قال له : قل لربك : يحيي وإلا قتلتك فسأل الله ذلك وقوله : ﴿ ليطمئن قلبي ﴾ أي : بنجاتي من القتل، أو ليطمئن قلبي بقوة حجتي وبرهاني.

الثالث : عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي : أن الله تعالى أوحى إليه : إني أتخذ بشراً خليلاً فاستعظم ذلك إبراهيم - عليه السلام - وقال : إلهي ما علامة ذلك ؟ فقال : علامته أنه يحيي الميت بدعائه فلما عظم مقام إبراهيم - عليه السلام - في درجات العبودية، وأداء الرسالة، خطر بباله : أني لعلي أكون ذلك الخليل فسأل الله إحياء الموتى، فقال الله : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى، ولكن ليطمئن قلبي على أني خليل لك.

الرابع : لا يبعد أن يقال : إنه لما جاء الملك إلى إبراهيم وأخبره بأن الله بعثك رسولاً إلى الخلق، طلب المعجزة ليطمئن قلبه على أن الآتي ملك كريم لا شيطان رجيم.

الخامس : لعله طالع الصحف المنزلة عليه : أن الله تعالى يحيي الموتى بدعاء عيسى، فطلب ذلك ليطمئن قلبه أنه ليس أقل منزلة عند الله من عيسى، وأنه من أولاده.

السادس : أمر بذبح الولد، فسارع إلى ذلك، فقال : إلهي ؛ أمرتني أن أجعل ذا روح بلا روح فامتثلت، فشرفتني بأن تجعل بدعائي فاقد الروح ذا روح ...(مربنا قول ابن عباس) : (أمر إبراهيم بهذا قبل أن يولد له).

السابع : أراد أن يخصصه الله بهذا التشريف في الدنيا، بأن جميع الخلائق يشاهدون الحشر في الآخرة.

الثامن : لعل إبراهيم لم يقصد إحياء الموتى، بل قصد سماع الكلام بلا واسطة وأما أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان شاكاً في المعاد فلا ينبغي أن يعتقد فيه ومن كفر النبي المعصوم فهو بالكفر أولي وكيف يظن ذلك بإبراهيم ـ عليه السلام ـ وقوله : ﴿ بلى ﴾ اعتراف بالإيمان وقوله ﴿ ليطمئن قلبي ﴾ كلام عارف طالب لمزيد من اليقين والشك في قدرة الله يوجب الشك في نبوة نفسه والذي جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه : [نحن أحق بالشك من إبراهيم] فذلك أنه لما نزلت هذه الآية قال بعض من سمعها : شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله ـ ﷺ ـ تواضعاً منه، وتقديماً لإبراهيم على نفسه ـ : [نحن أحق بالشك منه].

والمعنى : أننا لم نشك ونحن دونه ، فكيف يشك هو ؟!

وجاء في الفتوحات الإلهية ما يلى [1] : (. . . واختلفوا في سبب هذا السؤال :

﴿ رب أرني كيف تحي الموتى ﴾ من إبراهيم ، فقيل : إنه مرَّ على دابة ميتة ـ وهي جيفة حمار ـ وقيل : كانت حوتاً ميتاً ، وقيل : كان رجلاً ميتاً بساحل البحر ، قيل : بحر طبرية فرآها وقد توزعتها دواب البحر والبر ، فإذا مد البحر جاءت الحيتان فأكلت منها ، وإذا انحسر البحر جاءت السباع فأكلت منها ، فإذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها فلما رأى ذلك إبراهيم تعجب منها ، وقال يارب : إني علمت أنك تجمعها من بطون السباع ، وحواصل الطير ، وأجواف الدواب ، فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك فأزداد يقيناً فعاتبه الله تعالى بقوله : ﴿ قال أولم تؤمن ﴾ يعني : أولم تصدق ؟ ﴿ قال بلى ﴾ يارب ، قد علمت وآمنت ، ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ أي : ليسكن قلبي عند المعاينة ، أراد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يُصيَر له علمِ اليقين عيْن اليقين ؛ لأن الخبر ليس كالمعاينة .

وقيل : لما رأى الجيفة وقد تناولتها السباع والطير ودواب البحر تفكر : كيف يجتمع ما تفرق من تلك الجيفة ؟! وتطلعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه الله ، ولم يكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ شاكاً في إحياء الله الموتى ولا دافعاً له ، ولكن أحب أن يرى ذلك عياناً ، كما أن المؤمنين يحبون أن يروا نبيهم محمداً ـ ﷺ ـ ويحبون رؤية الله ، والجنة ، ويطلبونه ويسألونه في دعائهم مع الإيمان بصحة ذلك وزوال الشك عنهم فكذلك أحب إبراهيم أن يصير الخبر له عياناً .

(1) الفتوحات الإلهية ، المجلد الأول ، ص ٢١٥ وما بعدها .

وقيل : كان سبب هذا السؤال من إبراهيم أنه لما اجتمع على نمرود، فقال إبراهيم : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ فقال نمرود : ﴿ قال أنا أحيي وأميت ﴾ فقتل أحد الرجلين وأطلق الآخر فقال إبراهيم : إن الله تعالى يقصد إلى جسد ميت فيحييه ، فقال نمرود : أنت عاينته ؟ فلم يقدر إبراهيم أن يقول نعم، فانتقل إلى حجة أخرى ثم سأل إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيى الموتى قال : أولم تؤمن ؟ قال : ولكن ليطمئن قلبى بقوة حجتى ، فإذا قيل أنت عاينته فأقول : نعم . قال ﴿ فخذ أربعة من الطير ﴾ فإن قلت لم خص الطير من بين الحيوانات بهذه الحالة ؟ قلت : لأن الطير صفته الطيران فى السماء، وكانت همة إبراهيم إلى جهة العلو، والوصول إلى الملكوت، فكانت معجزته مشاكلة لهمته وعبارة (الكرخى) : خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان شبهاً، كتدوير الرأس، والمشى على رجلين، وأجمع لخواص الحيوان؛ لأن فيه ما فى الحيوان مع زيادة كالطيران فى السماء، والارتفاع فى الهواء، والخليل - عليه السلام - كانت همته إلى العلو، والوصول إلى الملكوت، فجعلت معجزته مشاكلة لهمته وفائدة التقييد بأربعة فى الطير، وفى الأجبل بعده : (التقييد بالأربعة جاء فى القرآن الكريم للطير فقط، ولم يأت فى القرآن الكريم تقييد الجبال بالأربعة، فمن أين جاء به (الكرخى) ؟) .

الجمع بين الطبائع الأربعة فى الطير وبين مهاب الريح من الجهات الأربع فى الأجبل . . . ﴿ فصرهن إليك ﴾ . بكسر الصاد وضمها - أى : أملهن إليك، وقطعهن، واخلط لحمهن وريشهن، وأمره

بإمالتهن إليه ـ أى تقريبهن منه ـ ليتحقق أوصافهن، حتى يعلم بعد الإحياء أنه لم ينتقل جزء منها عن موضعه الأول أصلاً.

﴿ ثم اجعل على كل جبل ﴾ من جبال أرضك قيل : كانت أربعة، كل واحد فى جهة من جهات إبراهيم... ﴿ منهن جزءا ﴾ قيل كانت الأجزاء أربعة على كل جبل جزء، وقيل : كانت الجبال سبعة، والأجزاء كذلك ﴿ ثم ادعهن ﴾ أى قل لهن : تعالين بإذن الله تعالى ﴿ يأتينك سعيا ﴾ أى : مشياً سريعاً، ولم تأت طائرة ليتحقق أن أرجلها سليمة فى هذه الحالة فأخذ طاووساً، ونسراً، وغراباً، وديكاً وفعل بهن ما ذكر وأمسك رؤسهن عنده ودعاهن فتطايرت الأجزاء إلى بعضها حتى تكاملت ثم أقبلت إلى رؤسها فإن قلت : لم خصت هذه الأربعة ؟ قلت : فيه إشارة إلى ما فى الإنسان، ففى الطاووس إشارة إلى ما فى الإنسان من حب الزهو والجاه. وفى النسر إشارة إلى شدة الشغف بالأكل، وفى الديك إشارة إلى شدة الشغف بحب النكاح، وفى الغراب إشارة إلى شدة الحرص، ففى هذه الأربعة مشابهة للإنسان فى هذه الأوصاف وفى الاقتصار عليها إشارة إلى أن الإنسان إذا ترك هذه الشهوات الذميمة لحق بأعلى الدرجات.

وإنما اقتصر فى الآية على حكاية أوامره تعالى له من غير تعرض لامتثاله ـ عليه السلام ـ ولما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى للإيذان بأن ترتيب تلك الأمور على أوامره تعالى، واستحالة تخلفها عنه أمر جلى لا يحتاج إلى الذكر أصلاً.

وناهيك بالقصة دليلاً على فضل الخليل، وحسن الأدب في السؤال حيث أراه ما سأل في الحال، وأرى (العُزَير)[1] ما أراه بعد مائة عام، انتهى ما جاء في الفتوحات الإلهية.

---

(١) العُزير : هو الذى عناه القرآن الكريم بقوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شئ قدير ﴾ الآية رقم ٢٥٩ قبل آية سؤال إبراهيم السابقة ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ﴾ رقم ٢٦٠ وبعد الآية ٢٥٨ من نفس السورة : ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت... الخ ﴾ وهى آية قصة للمحاج التى مرت بنا.

وقد جاءت هذه الآيات الثلاث متعاقبة، وفى سورة واحدة، للدلالة على إعجاز قدرة الله فى إحياء الموتى، والموت والحياة وقد مهدت الآيتان السابقتان لآية سؤال إبراهيم بتأكيد إيمان سيدنا إبراهيم بقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على إحياء الموتى وإيمانه بأن الله تعالى هو وحده الذى يحيى ويميت، مما يبعد سيدنا إبراهيم عن مجال الشك فى قدرة الله، وتفرده ـ عز وجل ـ بأنه هو وحده الذى يحيى ويميت.

وسبحان الله العظيم القادر على كل شئ، ولا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء، ولا يستعصى على قدرته أى عجيب أو غريب، قليل أو كثير، صغير أو جليل.

رب هب لى من الصالحين
فبشرناه بغلام حليم
ميلاد سيدنا إسماعيل ، وإبعاده مع أمه إلى مكة

مكث إبراهيم - عليه السلام - فى مصر فترة من الزمن بعد الذى حدث لزوجه (سارة) مع ملك مصر ، ونجاتها من محاولة اعتدائه عليها .

وكانت مصر - كما هي - بلدًا زراعيًا ، تجود فيها الزراعة والمراعى كما كانت سوقا كبيرا للاستهلاك الزراعى الذى شجع إبراهيم على التجارة ، فاشتغل بها ، وسعى فى تحصيل الرزق بكل جهد حتى كثر ماله ، ونمت تجارته ، وتضاعفت أنعامه وماشيته ولم يكن ينغص عليه عيشه سوى أن زوجه (سارة) لم تنجب له حتى ذلك الحين ، وتأكد أنها عقيم لا تلد .

ورأى فى نفسه ميلاً إلى أن يهاجر من مصر ، فقرر أن يعود إلى الأرض المقدسة التى هاجر إليها من موطن ميلاده بعد محاولة إحراقه ، ونجاته من هذه المحاولة والتى قضى فيها زمناً قبل أن يعمها الجفاف والقحط ، ويرحل إلى مصر ، واصطحب إبراهيم معه زوجه (سارة) وخادمتها (هاجر) واستاق معه أنعامه وماشيته ، وحمل ثروته التى حصل عليها من تجارته فى مصر ، واختار أن يكون مقامه فى (فلسطين) فى (بيت المقدس) بين الطائفة القليلة التى آمنت به .

يقول ابن كثير في «قصص الأنبياء» [1] : (... ثم إن الخليل - عليه السلام - رجع من بلاد مصر إلى أرض اليمن، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم (هاجر) القبطية المصرية).

وفي بيت المقدس قضى إبراهيم وزوجه (سارة) وخادمتها (هاجر) عشرين عاماً [2] وكانت سارة تعاني من إحساسها بالحرمان من الإنجاب، وهي ترى زوجها إبراهيم يتطلع في شوق أن يكون له أبناء ولابد أن تكون قد أحست بما يعانيه، وأن تكون قد سمعته وهو يتوجه إلى الله بالدعاء أن يرزقه ذرية صالحة، فيقول : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ الآية ١٠١ من سورة الصافات.

وكانت ترى خادمتها (هاجر) وفية، كريمة، مطيعة، أمينة، فوهبتها له، واتفقت معه على أن يدخل بها أملاً أن تنجب له ابناً يشبع أبوته، وتضيء به حياتهم واستجاب الله لأمنية (سارة) ودعاء إبراهيم، فحملت (هاجر) من إبراهيم.

يقول الله تعالى في سورة الصافات : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ الآية ١٠١ عقب دعاء إبراهيم : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾.

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار : (كانت سارة زوج إبراهيم عاقراً لم تلد، وكان ملك مصر قد أعطى (سارة) جارية مصرية (هاجر) وتألمت (سارة) إذ لم تجد لإبراهيم نسلاً وهي قد شاخت ولا يرجى لها أن تكون أماً، فأتمرت مع إبراهيم، وكان عاقبة ذلك

---

(١) قصص الأنبياء، ص ١٣٤.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير، ص ١٣٥، قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار : نقلا عن ابن كثير في تاريخه ص ٨٧.

أن دخل إبراهيم على (هاجر) فأتت منه بغلام هو (إسماعيل) عليه السلام وكان إبراهيم ابن ست وثمانين لما ولدت (هاجر) (إسماعيل) قبل مولد (إسحاق) بثلاث عشرة سنة)[1].

وجاء في «قصص القرآن» : (هاجر إبراهيم إلى فلسطين (من مصر) ومعه زوجه (سارة) وخادمتها (هاجر) واستاقوا معهم أنعامهم، واحتملوا ما يملكون من مال جزيل، وخير جليل وأقام وسط أهله وعشيرته وبين الطائفة القليلة التي آمنت به وكانت (سارة) عقيماً لا تلد، وكان يحزنها أن ترى بعلها الوفي يتطلع إلى النسل، وقد أصبحت على حال لا يرجى فيها الولد؛ فقد بلغت من الكبر عتياً فأشارت على زوجها أن يدخل بأمتها (هاجر) وهي الوفية الكريمة المطيعة الأمينة علها تنجب ولدا تشرق به حياتهما ويسرى عنهما بعض ما يجدان من لوعة الوحدة، ومرارة الوحشة، فانصاع لرأيها، وخضع لإشارتها، فلما وهبته إياها، أنجبت غلاماً زكياً هو (إسماعيل) فانتعشت نفس إبراهيم، وقرت عينه ولعل (سارة) قد شاركت (إبراهيم) في سروره وشايعته في بهجته)[2].

وجاء في كتاب «النبوة والأنبياء» : (هاجر سيدنا إبراهيم من مصر إلى فلسطين، ومعه زوجه (سارة) وأمتها (هاجر) وكانت (سارة) عقيماً لا تلد، وكان يحزنها أن ترى زوجها وحيداً ليس له ولد، وقد أصبحت هي على حال لا يرجى أن تأتي بعده بوليد؛ لأنها قد جاوزت سن السبعين وبلغت من الكبر عتياً، فأشارت على زوجها أن يدخل بأمتها بعد أن وهبتها له؛ لعل الله يرزقه منها غلاماً

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار، ص ٨٧، ٩٢.
(٢) قصص القرآن، ص ٥٦.

زكيًا ، تشرق به حياتهما ويكون عونًا لأبيه على تحمل مشاق الحياة ، فاستجاب إبراهيم لرأيها ، وخضع لإشارتها ، فلما تزوج (هاجر) أنجبت له غلامًا زكيًا هو سيدنا (إسماعيل) عليه السلام ، وهناك انتعشت نفس إبراهيم بعد أن رزقه الله بهذا الغلام على كبر من السن ، حيث كان قد بلغ من العمر ٨٦ سنة ولعل (سارة) قد شاركت إبراهيم سروره) [(١)]

وابن كثير «في قصص الأنبياء» ينقل عن أهل الكتاب ما يلي : (إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ سأل الله ذرية طيبة وإن الله بشره بذلك وإنه لما كان إبراهيم ببلاد المقدس عشرون سنة قالت (سارة) لإبراهيم ـ عليه السلام ـ : إن الله قد أحرمني من الولد ، فادخل على أمتي هذه ، لعل الله يرزقني منها ولدا ، فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ فحين دخل بها حملت منه ، قالوا : فلما حملت ارتفعت نفسها ، وتعاظمت على سيدتها فغارت منها (سارة) فشكت ذلك إلى إبراهيم ، فقال لها : (افعلي بها ما شئت) فخافت (هاجر) فنزلت عند (عين) هناك ، فقال لها ملك من الملائكة : (لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيرا) وأمرها بالرجوع ، وبشرها أنها ستلد ابنا ، وتسميه (إسماعيل) فشكرت الله ـ عز وجل ـ على ذلك ، ولما رجعت وضعت (إسماعيل) عليه السلام ، قالوا : ولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة ، قبل مولد (إسحاق) بثلاث عشرة سنة) [(٢)]

هذه الرغبة القوية من (سارة) لزوجها إبراهيم في أن يدخل بأمتها

---

(١) النبوة والأنبياء ، ص ٢١٨ .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ، ص ١٣٥ .

(هاجر) أملاً في أن تحمل (هاجر) منه وأمنيتها الصادقة في أن تنجب (هاجر) ولداً من إبراهيم تشرق به حياة سارة وإبراهيم، ويسرى عنهما بعض ما يجدانه من لوعة الوحدة، ومرارة الوحشة كما جاء في قصص القرآن.

وأملها الكبير في أن يرزق الله إبراهيم غلاماً زكياً، تشرق به حياتهما (إبراهيم وسارة) ويكون عوناً لأبيه (إبراهيم) على تحمل مشاق الحياة كما جاء في كتاب «النبوة والأنبياء» وتقديرها أن هذا (الولد) من (هاجر) إنما هو رزق يرزقها الله به كما جاء في قصص الأنبياء لابن كثير نقلاً عن أهل الكتاب.

كل ذلك يستدعى التأمل لأن سارة أرادت أن تملأ حياتها مع إبراهيم بوجود نسل لإبراهيم من (هاجر) تعويضاً عن حرمانها من أن تنجب له نسلاً، مع أن النسل سوف يكون من (هاجر) وليس منها..

وقمة التأمل في تلك العبارة الأخيرة - كما جاءت في قصص الأنبياء لابن كثير، نقلاً عن بعض أهل الكتاب - : (فادخل على أمتى هذه، لعل الله يرزقنى منها ولداً).

ومهما يكن من أمر فإنه لا يمكن أن تختلف (سارة) عن عموم النساء في الإحساس بالحزن والأسى من العقم وعدم الإنجاب، ومن الغيرة الشديدة من ضرتها الولود، ولا يمكن كذلك أن تختلف (هاجر) عن عموم النساء في التية والخيلاء على ضرتها العقيم، وهى ترى نفسها وقد حققت لإبراهيم - زوجها - ما تصبو إليه نفسه من الأبناء لكل هذا ارتفعت نفس (هاجر) - وهى الخادمة -

وتعاظمت على سيدتها (سارة) ولكل هذا غارت (سارة) من خادمتها (هاجر) بعد أن حققت (هاجر) لإبراهيم ما عجزت عنه (سارة) وشكت (سارة) من تعاظم (هاجر) وتعاليها إلى إبراهيم، وكان إبراهيم يحب سارة حبًا كبيرًا، فقد كانت من أول من آمن به وبدعوته، وكانت ذات جمال باهر، ثم كانت ـ على رأى ـ ذات قرابة عزيزة قوية لإبراهيم؛ بل كانت موضع رعاية من الله حين صانها وحفظها من محاولة الاعتداء عليها من ملك مصر.

فتعاطف معها، وقدر أحزانها ومشاعرها، واستجاب إلى ما أرادت أن تفعله بهاجر وإسماعيل.

ويذكر رواة التاريخ: أن (سارة) تضاعفت غيرتها من (هاجر) بعد أن أنجبت (هاجر) (إسماعيل) ولم تعد تطيق أن تراها تتعاظم وتتعالى عليها وهى تحمل وليدها إسماعيل أول أبناء إبراهيم، وتهدهده فى حنان كما تفعل الأمهات.

جاء فى «قصص القرآن»[1]: (ولكن الغيرة لم تلبث أن دبت إلى قلب (سارة) بل عصفت بها أعاصير شديدة من الحزن والشجن، وعقدت عليها الكآبة سحابة مطبقة، وأصبحت لا تطيق النظر إلى (الغلام) ولا تتحمل رؤية (هاجر) فلم تجد دواء لعلتها، وكشفا لدائها إلا إقصاء (إسماعيل وأمه) عن دارها، وإبعادهما عن عينيها فتمنت على زوجها أن يذهب بهاجر وطفلها إلى أقصى الأماكن؛ حتى لا يصل صوتهما إلى سمعها، ولا تقذى برؤيتهما عينها، فأذعن إبراهيم لإرادتها، وكأن الله أوحى إليه أن يطيع أمرها

(١) قصص القرآن، ص ٥٧، ٥٨.

واستجاب إلى رجائها، فركب دابته، واصطحب (الغلام وأمه) وسار ترشده إرادة الله، وتحدوه عنايته، وطال به السير، وامتد الطريق، حتى وقف عند مكان البيت، فأنزل (هاجر وطفلها) في هذا المكان البلقع، وتركهما في تلك البقعة الجرداء، وهما ضعيفان لا يملكان شيئاً سوى (مزود) به قليل من الطعام، و (سقاء) فيه شئ من الماء واستودعهما الله في هذا المكان، وقفل راجعاً فتبعته أم (إسماعيل) وقالت: يا إبراهيم إلى أين تذهب؟ ولمن تتركنا في هذا الوادى الموحش والمقفر؟ ولكنه لم يستمع إلى قولها، بل أبان لها أن ذلك أمر الله، وتلك إشارته فلا بد لها من الخضوع لحكمه، والتسليم بأمره فلما علمت بذلك استسلمت لأمر الله وركنت إلى رحمته، وقالت: لن يضيعنا، أما إبراهيم فإنه انحدر من تلك الربوة وهو يدعو الله أن يكلأ وحيده وفلذة كبده بعنايته ويحفظه برعايته ويقول: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (الآية ٣٧ من سورة إبراهيم).

وجاء في كتاب «النبوة والأنبياء» [(١)] (ولكن الغيرة لم تلبث أن دبت إلى قلب سارة بل عصفت بها أعاصير كثيرة من الحزن والألم، فحرمت الهدوء والهجوع، وأصبحت لا تطيق النظر إلى الغلام، ولا تتحمل رؤية أمه (هاجر) فلم تجد دواء لقلبها العليل إلا أن تطلب من إبراهيم أن يقصيها هي وولدها عن دارها، وأن

(١) النبوة والأنبياء، ص ٢١٩.

يبعدهما عن عينيها، وكأن الله أوحى إليه : أن يطيع أمرها ويستجيب إلى رجائها، وذلك لحكمة يريدها الله، فأخذهما إبراهيم وسار بهما حتى بلغ جبال مكة، فوضعهما فى ذلك المكان القفر الذى ليس فيه سمير ولا أنيس، فجعل لا يلتفت إليهما ؛ مخافة أن تصده عن تنفيذ أمر الله فقالت له عند ذلك : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم، قالت : إذن لا يضيعنا، ولما ابتعد إبراهيم عن زوجه وولده قليلا التفت جهة البيت، ووقف يدعو بهذه الدعوات :

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ .

والشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه «قصص الأنبياء» نقل هذه القصة كما هى فى «سفر التكوين» من التوراة دون تعليق .

أما ابن كثير فى كتابه «قصص الأنبياء» كذلك فقد نقل هذه الأحداث عن بعض أهل الكتاب، ولكنه أردفها بقوله : والمقصود أن (هاجر) لما ولد لها (إسماعيل) اشتدت غيرة (سارة) منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم، ويقال إن ولدها كان - إذ ذاك - رضيعا فلما تركها هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه (هاجر) وتعلقت بثيابه، وقالت : يا إبراهيم، أين تذهب وتدعنا هاهنا وليس معنا ما يكفينا ؟ فلم يجبها فلما ألحت عليه - وهو لا يجيبها - قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم، قالت : فإذن لا

يضيعنا، وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبى زيد فى كتاب (النوادر) : أن (سارة) غضبت على (هاجر) فحلفت : لتقطعن ثلاثة أعضاء منها فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها، فتبر بقسمها، قال السهيلى : فكانت أول من اختتن من النساء[1].

والقرآن الكريم لم يذكر عن ميلاد سيدنا إسماعيل سوى تلك البشارة لأبيه سيدنا إبراهيم بـ (بغُلام حليم) هكذا دون ذكر اسم إسماعيل - كما جاء فى سورة الصافات، الآية ١٠١ - : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾.

عقب دعاء إبراهيم فى الآية التى سبقت هذه الآية : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾.

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه «قصص الأنبياء» : (لم تفصل قصة ولادة إسماعيل، ورزق والده به فى القرآن الكريم، وإنما ذكرت فى«سفر التكوين» من التوراة مفصلة.

وأما التى ذكرت فى القرآن الكريم فلم يذكر فيها اسم إسماعيل[2].

وكذلك لم تفصل فى القرآن الكريم أحداث قصة ترحيل إسماعيل مع أمه (هاجر) إلى موضع مكة، وقريبًا من المكان الذى بنى فيه المسجد الحرام، وبجوار البقعة التى نبع فيها ماء زمزم وذلك استجابة لرغبة (سارة) زوج سيدنا إبراهيم، وربما وحيًا من الله - عز وجل - بهذا الترحيل.

(١) قصص الأنبياء، ص ١٣٦.
(١) قصص الأنبياء، ص ٩٣.

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار : (. . . رحلة إسماعيل إلى مكة لم تفصل فى الكتاب الكريم، ولم يذكر منها فيه سوى قوله تعالى - على لسان إبراهيم - : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ (من الآية ٣٧ من سورة إبراهيم) والوادى الذى لا زرع فيه هو الوادى الذى به مكة اليوم.

ويقول : (ويظهر لى : أن إبراهيم دعا هذا الدعاء بعد بناء البيت) [1].

وهذه قضية سوف نناقشها فيما بعد.

(٢) قصص الأنبياء، ص ١٠٣.

إسماعيل فى مكة

وإذا كان القرآن الكريم لم يفصل قصة ميلاد سيدنا إسماعيل كما ذكرنا، ولم يفصل قصة ترحيل إسماعيل مع أمه هاجر إلى مكة. فإنه كذلك لم يذكر تفاصيل مراحل حياة إسماعيل فى مكة، وإنما وردت آيات قرآنية كريمة تضمنت إشارات فى ثنايا بعض الأحداث، صُرح فيها باسم إسماعيل، كما فى رفع القواعد من البيت الحرام وإعداده وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود، يقول الله تعالى فى سورة البقرة : صدر الآية ١٢٧ : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ ويقول أيضاً فى نفس السورة : شطر الآية ١٢٥ :

﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ مع التصريح باسم إسماعيل فى كونه ﴿ كان صادق الوعد ﴾ وأنه كان ﴿ رسولا نبيا ﴾ و(فضله على العالمين مع اليسع ويونس ولوط) ومدحه بأنه (من الصابرين، ومن الصالحين) مع إدريس وذى الكفل، ثم مدحه مع اليسع وذى الكفل بأنهم (من الأخيار).

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام، الآية ٨٥ :

﴿ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾ ويقول فى سورة مريم، الآية ٥٤ .

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ . ويقول فى سورة الأنبياء، الآية ٨٥ :

﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين* وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ ويقول فى سورة ص الآية ٤٨ :

﴿ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ .

وحين توجه سيدنا إبراهيم إلى الله بالحمد على أن وهبه على الكبر بالبنين. يقول الله تعالى فى سورة إبراهيم، الآية ٣٩ :

﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل ﴾ وغير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة التى ذكرت اسم سيدنا إسماعيل فى أمور كثيرة مثل الوحى إليه مع الأنبياء والمرسلين.

بينما لم يصرح باسم إسماعيل فى البعض الآخر من هذه الأحداث، كما فى قصة الذبيح ؛ اكتفاء - والله أعلم - بما يدل عليه سياق هذه الآيات، وما ورد فيها من إشارات تغنى عن التصريح، كما سنوضح هذا فيما بعد.

أما كتاب «فتح البارى - شرح صحيح البخارى» (لابن حجر العسقلانى) والذى جمع أحاديث رسول الله - ﷺ - فإنه يتحدث عن رحلة إسماعيل مع أمه (هاجر) إلى مكة، وعن الأحداث التالية التى عاصرها وارتبط بها إسماعيل فى مكة فى روايات لأحاديث عن ابن عباس، والسيدة عائشة - رضى الله عنهما - :

١ - ترحيل هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة.

٢ ـ مقامهما قرب موضع البيت الحرام.

٣ ـ قصة نبع ماء زمزم بعد سعى هاجر بين الصفا والمروة.

٤ ـ نزول قبيلة جُرهُم إلى جوارها وإسماعيل بعد أن أذنت لهم هاجر.

٥ ـ موت هاجر.

٦ ـ ثم زواج إسماعيل للمرة الأولى.

٧ ـ مجئ إبراهيم من الشام ليطالع أحوال ولده إسماعيل وأمه هاجر فى مكة.

٨ ـ زواج إسماعيل للمرة الثانية ـ بعد طلاقه الزوجة الأولى ـ تنفيذاً لرأى والده إبراهيم.

٩ ـ مجئ إبراهيم ـ مرة أخرى ـ ليطالع أحوال ولده إسماعيل.

١٠ ـ وأخيراً قصة بناء إبراهيم وإسماعيل للبيت الحرام ورفعهما لقواعده، وأضيف إليها ما كان من أمر البيت الحرام فى عهد آدم وما أحدثته قريش فى بناء البيت منذ عهد النبى ـ ﷺ ـ إلى عهد العباسيين.

أما قصة الذبيح وما إذا كانت مرحلة من مراحل حياة إسماعيل فى مكة، فمع أنها حدثت فى مكة، وفى زمن بين أزمان هذه الأحداث ـ كما سنوضح فيما بعد ـ فقد تجاوزتها هذه الروايات، ولم تذكرها ضمن هذه الأحداث إلا أن (فتح البارى) تحدث عن هذه القصة فى

موضع آخر، في المجلد الثاني عشر، في صفحات (٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩) في باب (رؤيا إبراهيم) وقوله تعالى: ﴿ فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ الآيات من ١٠١ - ١٠٥ من سورة الصافات.

وذلك - كما قلنا - دون أن يذكر اسم الذبيح بعد أن قال عنه في الآية السابقة: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾.

وقد اعتمد المفسرون والمؤرخون على هذه الروايات إلى جانب ما جاء في القرآن الكريم ومن المؤرخين من اعتمد أيضاً على ماجاء في التوراة من تفصيل يستدعي التوقف عند أجزاء منه في وقائع هذه الأحداث، ولهذا فقد رأيت أن أفرد لقصة الذبيح فصلاً مستقلاً بعد أن نعرض لما جاء في:

١ - شرح صحيح البخاري، في كتاب «فتح الباري».

٢ - وفي كتب بعض المفسرين والمؤرخين عن تلك الأحداث الأخرى، وبخاصة منها بناء البيت الحرام... والله المستعان.

أولاً : مع (فتح البارى)

ذكر البخارى أكثر من رواية لحديث ابن عباس - رضى الله عنه - وأكثر من رواية لحديث السيدة عائشة رضى الله عنها.

نذكر - أولاً - من حديث ابن عباس أولى هذه الروايات :

يقول الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى [1] تحت رقم : (٣٣٦٤) حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معْمر، عن أيوب السَّخْتيانى، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وَداعة عن سعيد بن جبير : قال ابن عباس : (أول ما اتخذ النساء المنْطق من قبَل أم إسماعيل، اتخذت منْطقًا ؛ لتُعفِّى أثرها على سارة.

ثم جاء بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل - وهى تُرضعه - حتى وضعها عند البيت : عند دَوْحة فوق زمزم، فى أعلى المسجد وليس بمكة - يومئذ - أحد وليس بها ماء فوضعها هناك ووضع عندها (جرابًا) فيه تمْرٌ، و (سقاء) فيه ماءٌ، ثم قفّى إبراهيم منطلقًا فتبعته أمّ إسماعيل، فقالت : يا إبراهيم : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شئ ؟! فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها ! فقالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم، قالت : إذن لا يضيِّعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنيَّة - حيث لا

---

(١) فتح البارى، شرح صحيح البخارى، المجلد السادس، ص ٣٩٦ - ٣٩٨.

يرونه - استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ، ورفع يديه ، فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع ﴾ حتى بلغ ﴿ يشكرون ﴾ (١) وجعلت أم إسماعيل تُرْضِع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت ، وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال : يتلبَّط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت (الصفا) أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر : هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت (المَرْوة) فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس : قال النبي ـ ﷺ ـ : [فذلك سعي الناس بينهما] فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فقالت صه - تريد نفسها - ثم تسمَّعت أيضاً فقالت : قد أسْمَعْت ، إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال : بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها ، وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس : قال النبي ـ ﷺ ـ : [يرحم الله أم إسماعيل ؛ لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً] قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ؛ فإن ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يُضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً عن الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم .

يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفقة من (جُرهْم) - أو أهل بيت من (جُرهُم) - مقبلين من طريق (كداء) فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا - قال: وأم إسماعيل عند الماء - فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي - ﷺ -: [فألْفَى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تُحبُّ الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم] وشبَّ الغلام، وتعلَّم العربية منهم، وأنْفَسَهُم وأعجبهم حيث شبَّ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أمّ إسماعيل.

فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يُطالعُ تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغى لنا.

ثم سألهم عن عيشهم، وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٍّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، وقولى له (يغير عتبة بابه) فلما جاء إسماعيل - كأنه آنس شيئًا - فقال: هل جاءكم أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرته، وسألنى: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا في جهد وشدَّة، قال: فهل أوصاك بشئ؟ قالت: نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول: (غير عتبة بابك) قال: ذاك أبي، وقد أمرنى أن أفارقك، الحقى بأهلك فطلقها، وتزوج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على

امرأته، فسألها عنه، فقالت : خرج يبتغي لنا، قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم ؟ وهيئتهم ؟ قالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم، قال : فما شرابكم؟ قالت : الماء، قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ـ ﷺ ـ : [ولم يكن ـ يومئذ حَبٌ، ولو كان لهم دعا لهم فيه] قال : فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يُوافقاه.

قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة ـ وأثنت عليه ـ فسألني عنك : فأخبرته، فسألني : كيف عيشنا ؟ فأخبرته : أنَّا بخير.

قال : فأوصاك بشئ ؟ قالت : نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تُثبت عتبة بابك، قال : ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أُمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله.

ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، ثم قال : ياإسماعيل : إن الله أمرني بأمر، قال : فاصنع ما أمرك ربك قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك، قال : فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا (الحجر) فوضعه له، فأقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ بقية الآية من سورة البقرة، وأولها : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾.

يقول ابن حجر في شرحه لهذا الحديث : (المنْطَق : هو ما يشد به الوسط وكان السبب في أن (سارة) كانت وهبت (هاجر) لإبراهيم فحملت منه، فلما ولدته غارت منها، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء، فاتخذت (هاجر) منطقا، فشدت به وسطها وهربت، وجرت ذيلها لتخفي أثرها على (سارة) ويقال : إن إبراهيم شفع فيها، وقال لسارة : حللي يمينك بأن تثقبي أذنيها، وتخفضيها، وكانت أول من فعل ذلك، ويقال : إن سارة اشتدت بها الغيرة، فخرج إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة لذلك، وروى ابن إسحاق أن الله لما بوأ لإبراهيم مكان البيت فخرج بإسماعيل وهو طفل صغير وأمه، قال : وحملوا - فيما حدثت - على البراق حتى وضعهما عند دوحة. أي : (الشجرة الكبيرة).

قوله : (فوق الزمزم) في رواية (فوق زمزم) وهو المعروف قوله : (في أعلى المسجد) أي مكان المسجد ؛ لأنه لم يكن حينئذ بني قوله : (وسقاء فيه ماء) السقاء - بكسر أوله - : قربة صغيرة، وفي رواية إبراهيم بن نافع عن كثير التي بعد هذه الرواية (ومعها شنة) - بفتح الشين، وتشديد النون - وهي القربة العتيقة قوله : (ثم قفى إبراهيم) أي ولّى راجعا إلى الشام، وفي رواية ابن إسحاق (فانصرف إبراهيم إلى أهله بالشام، وترك إسماعيل وأمه عند البيت). قوله : (فتبعته أم إسماعيل) في رواية ابن جريج (فأدركته بكداء) وفي رواية عمر بن شبة عن سعيد بن جبير : أنها (نادته ثلاثًا، فأجابها في الثالثة، فقالت له : من أمرك بهذا ؟ قال : الله). قوله : (إذن لا يضيعنا) في رواية عطاء بن السائب (فقالت : لن يضيعنا) وفي رواية ابن جريج (فقالت : حسبي)

وفى رواية إبراهيم بن نافع عن كثير المذكورة بعد هذا الحديث فى الباب : (فقالت : رضيت بالله) . قوله : (حتى إذا كان عند الثنية) - بفتح الثاء، وكسر النون، وتشديد الياء - وقوله : (من طريق كداء) - بفتح الكاف ممدود - هو الموضع الذى دخل النبى - ﷺ - مكة منه، وهو معروف . قوله : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى ﴾ فى رواية ﴿ رب إنى أسكنت ﴾ والأول هو الموافق للتلاوة . قوله : (حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت) زاد الفاكهى من حديث أبى جهم : (فاقتطع لبنها) وفى روايته : (وكان إسماعيل حينئذ ابن سنتين) . قوله : (فجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال : يتلبط) ومعنى يتلبط : يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض وفى رواية عطاء بن السائب (لما ظمئ إسماعيل جعل يضرب الأرض بعقبيه) وفى رواية إبراهيم بن نافع (كأنه ينشغ الموت) أى يشهق، ويعلو صوته وينخفض كالذى ينازع . قوله : (ثم استقبلت الوادى) فى رواية عطاء بن السائب (والوادى يومئذ عميق) وفى حديث أبى جهم (تستغيث ربها وتدعوه) . قوله : (ثم سعت سعى الإنسان المجهود) أى الذى أصابه الجهد، وهو الأمر المشق قوله : (سبع مرات) فى حديث أبى جهم : (وكان ذلك أول ما سعى بين الصفا والمروة) وفى رواية إبراهيم بن نافع أنه (كانت فى كل مرة تتفقد إسماعيل وتنظر ما حدث له بعدها وقال فى روايته : (فلم تقرها نفسها) أى : لم تتركها نفسها مستقرة فتشاهده فى حال الموت، فرجعت، وهذا فى المرة الأخيرة . قوله : (فقالت : صه) كأنها خاطبت نفسها، فقالت لها : اسكتى، وفى رواية إبراهيم بن نافع وابن جريج (فقالت : أغثنى إن كان عندك خير) .

قوله : (إن كان عندك غواث) وحكى ابن الأثير ضم أوله ، والمراد به على هذا الحديث : المستغيث . قوله : (فإذا هي بالملك) في رواية إبراهيم بن نافع وابن جريج : فإذا جبريل ، وفي حديث علي عند الطبري (فناداها جبريل ، فقال : من أنت ؟ قالت : أنا هاجر أم ولد إبراهيم قال : فإلى من وكلكما ؟ قالت : إلى الله ، قال : وكلكما إلى كاف) قوله : (فبحث بعقبه أو قال : بجناحه) وفي رواية إبراهيم بن نافع (فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه بالأرض) وفي رواية ابن جريج (فركض جبريل برجله) وفي حديث علي (ففحص الأرض بإصبعه فنبعت زمزم) . قوله : (حتى ظهر الماء) في رواية ابن جريج (ففاض الماء) وفي رواية ابن نافع (فانبثق الماء) أي : تفجر . قوله : (فجعلت تحوضه) أي : تجعله مثل الحوض وفي رواية ابن نافع (فدهشت أم إسماعيل ، فجعلت تحفر) وفي رواية عطاء بن السائب (فجعلت تفحص الأرض بيديها) . قوله : (وتقول بيدها هكذا) هو حكاية فعلها ، وهذا من إطلاق القول على الفعل ، وفي حديث علي (فجعلت تحبس الماء ، فقال : دعيه فإنها رواء) .
قوله : (لو تركت زمزم أو قال : لو لم تغرف من زمزم) في رواية ابن نافع (لو تركته) وهذا القدر صرح ابن عباس برفعه إلى النبي ﷺ - وفيه إشعار بأن جميع الحديث مرفوع . قوله : (عينا معينا) أي : ظاهرا جاريا على وجه الأرض ، قال ابن الجوزي : كان ظهور زمزم نعمة من الله محضة بغير عامل ، فلما خالطها تحويط هاجر داخلها كسب البشر ، فقصرت على ذلك ، فأغنى ذلك عن توجيه (تذكير) معين مع أن الموصوف وهو (العين) مؤنث وفي رواية ابن نافع (كان الماء ظاهرا) فعلى هذا فقوله (معينا) صفة الماء ، فلذلك

ذكره. قوله : (لا تخافوا الضيعة) أى الهلاك، وفى حديث أبى جهم (لا تخافوا أن ينفد الماء) وفى رواية على بن الوازع، عن أيوب، عن الفاكهى (لا تخافى على أهل هذا الوادى ظمأ، فإنها عين يشرب بها ضيفان الله) زاد فى حديث أبى جهم (فقالت : بشرك الله بخير). قوله : (فإن هذا بيت الله) فى رواية (فإن ههنا بيت الله). قوله : (يبنى هذا الغلام) كذا فيه بحذف المفعول وفى رواية الإسماعيلى (يبنيه) زاد ابن إسحاق فى روايته (وأشار لها إلى البيت، وهو يومئذ مدرة حمراء، فقال : هذا بيت الله العتيق، واعلمى أن إبراهيم وإسماعيل يرفعانه). (وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية) وروى ابن أبى حاتم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال : (لما كان زمن الطوفان رفع البيت، وكان الأنبياء يحجونه، ولا يعلمون مكانه، حتى بوأه الله لإبراهيم، وأعلمه مكانه) وروى البيهقى عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : (بعث الله جبريل إلى آدم، فأمره ببناء البيت، فبناه آدم، ثم أمره بالطواف به وقيل له : أنت أول الناس، وهذا أول بيت وضع للناس) وروى عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عطاء : (أن آدم أول من بنى البيت وقيل بنته الملائكة قبله) وعن وهب بن منبه : (أول من بناه : شيث بن آدم) والأول أثبت. (فكانت) أى هاجر (كذلك) أى : على الحال الموصوفة، وفيه إشعار بأنها كانت تتغذى بماء زمزم فيكفيها عن الطعام والشراب. (حتى مرت بهم رُفْقَةٌ من جُرْهم) : هو ابن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح وقيل : ابن يقطن وكان جرهم - يومئذ - بواد قريب من مكة. (فرأوا طائراً عائفاً) هو الذى يحوم حول الماء، ويتردد ولا يمضى عنه عائفاً :

بالعين والفاء (فأرسلوا جريا) أي : رسولاً وقد يطلق على الوكيل، وعلى الأجير قيل : سُميَ بذلك لأنه يجرى مجرى مرسله أو موكله، أو لأنه يجرى مسرعًا فى حوائجه، وفى رواية إبراهيم بن نافع : (فأرسلوا رسولاً) (فألفى ذلك) أي : وجد (أم إسماعيل وهى تحب الأنس) ضد الوحشة (بضم الهمزة) والإنس - بكسر الهمزة - تحب جنسها. (وشب الغلام) أي : إسماعيل، وفى رواية حديث أبى جهم : (ونشأ إسماعيل بين ولدانهم) (وتعلم العربية منهم) فيه إشعار بأن لسان أمه وأبيه لم يكن عربيا وفيه تضعيف لقول من روى : أنه أول من تكلم بالعربية وقد وقع ذلك من حديث ابن عباس عند الحاكم فى «المستدرك» بلفظ : (أول من نطق بالعربية إسماعيل) وروى الزبير بن بكار من حديث علي : (أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل) وبهذا القيد يجمع بين الخبرين، ويحتمل أن تكون الأولية فى الحديث مقيدة بإسماعيل بالنسبة إلى بقية إخوته من ولد إبراهيم، فإسماعيل أول من نطق بالعربية من ولد إبراهيم. (وأنفسهم) أي : كثرت رغبتهم فيه، وقال الكرماني : أنفسهم : أي رغبهم فى مصاهرته لنفاسته عندهم. (زوجوه امرأة منهم) عن ابن إسحاق أن اسمها «عمارة بنت سعد» وحكى السهيلي : أن اسمها «جدى بنت سعد» وعند عمر بن شبة : أن اسمها «حيى بنت أسعد» (وماتت هاجر) أي : فى خلال ذلك. (فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل) فى رواية عطاء بن السائب : (فقد إبراهيم وقد ماتت هاجر) (يطالع تركته) أي : يتفقد حال ما تركه هناك قال (ابن التين) : هذا يشعر بأن الذبيح إسحاق لأن المأمور بذبحه كان عندما بلغ السعي وقد قال فى هذا الحديث :

(إن إبراهيم ترك إسماعيل رضيعاً ، وعاد إليه وهو متزوج ، فلو كان هو المأمور بذبحه لذكر فى الحديث أنه عاد إليه فى خلال ذلك بين زمانى الرضاع والتزويج وتعقب : بأن ليس فى الحديث نفى هذا المجئ ، فيحتمل أن يكون جاء ، وأمر بالذبح ، ولم يذكر فى الحديث ، قلت : وقد جاء ذكر مجيئه بين الزمانين في خبر آخر ، ففى حديث أبى جهم : (كان إبراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق ، يغدو غدوة فيأتى مكة ، ثم يرجع فيقيل فى منزله بالشام) . وروى الفاكهى من حديث على بإسناد حسن نحوه ، وأن إبراهيم كان يزور إسماعيل وأمه على «البراق» فعلى هذا فقوله : (فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل) أى بعد مجيئه قبل ذلك مراراً والله أعلم.

قوله (فقالت : خرج يبتغى لنا) أى يطلب لنا الرزق ، وفى رواية ابن جريج : «وكان عيش إسماعيل الصيد ، يخرج فيتصيد» وفي حديث أبى جهم : «وكان إسماعيل يرعى ماشيته ، ويخرج متنكبا قوسه ، فيرمى الصيد» وفى حديث ابن إسحاق : «وكانت مسارحه التى يرعى فيها السدرة من نواحى مكة» . قوله : (ثم سألها عن عيشهم) زاد فى رواية عطاء بن السائب وقال : هل عندك ضيافة.

قوله : (فقالت : نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة فشكت إليه) فى حديث أبى جهم فقال لها : هل من منزل ؟ قالت : لا ها الله إذن ، قال : فكيف عيشكم ؟ قال : فذكرت جهداً ، فقالت : أما الطعام فلا طعام ، وأما الشاة فلا تحلب إلا المصر - أى الشَخب - وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ والشخب : السيلان .قوله : (جاءنا شيخ كذا وكذا) فى رواية عطاء بن السائب كالمستخفة بشأنه.

قوله : (عتبة بابك) كناية عن المرأة ، وسماها بذلك لما فيها من

الصفات الموافقة لها، وهو حفظ الباب، وصون ما هو داخله، وكونها محل الوط قوله : (وتزوج منهم امرأة أخرى) ذكر الواقدى ـ وتبعه المسعودى، ثم السهيلى ـ : أن اسمها (سامة) بنت مهلهل بن سعد وقيل : اسمها (عاتكة) ورأيت فى نسخة قديمة من كتاب مكة لعمر بن شبة أنها (بشامة) بنت مهلهل بن سعد بن عوف، قال وقيل اسمها (جدة) بنت الحارث بن مضاض، وحكى ابن سعد عن ابن إسحاق : أن اسمها (رعلة) بنت مضاض بن عمرو الجرهمية، وعن الكلبى : أنها (رعلة) بنت يشجب بن يعرب بن لوزان بن جرهم وذكر الدارقطنى فى «المختلف» أن اسمها (السيدة) بنت مضاض وحكاه السهيلى أيضا، وفى حديث أبى جهم : (ونظر إسماعيل إلى بنت مضاض بن عمرو فأعجبته، فخطبها إلى أبيها، فتزوجها) وحكى محمد بن سعد الجوانى : أن اسمها (هالة) بنت الحارس وقيل (الحنفاء) وقيل (سلمى) قوله : (نحن بخير وسعة) فى حديث أبى جهم «نحن فى خير عيش، نحمد الله، ونحن فى لبن كثير، ولحم كثير، وماء طيب».

(ما طعامكم ؟ قالت : اللحم قال : ما شرابكم؟ قالت : الماء) فى حديث أبى جهم ذكر اللبن مع اللحم والماء (اللهم بارك لهم فى اللحم والماء) فى رواية إبراهيم بن نافع : «اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم» قال : قال أبو القاسم ـ ﷺ ـ : «بركة بدعوة إبراهيم» وفيه حذف، تقديره : «فى طعام أهل مكة وشرابهم بركة» (فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقا) وفى حديث أبى جهم : (ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه) وزاد فى حديثه ـ وكذا فى حديث عطاء بن السائب

نحوه - : «فقالت : انزل - رحمك الله - فاطعم واشرب قال : إنى لا أستطيع النزول قالت فإنى أراك أشعث، أفلا أغسل رأسك وأدهنه ؟ قال : بلى إن شئت، فجاءته بالمقام - وهو يومئذ أبيض مثل اللهاة - وكان فى بيت إسماعيل ملقى، فوضع قدمه اليمنى، وقدم لها شق رأسه - وهو على دابته - فغسلت شق رأسه الأيمن فلما فرغ حولت له المقام حتى وضع قدمه اليسرى، وقدم إليها رأسه، فغسلت شق رأسه الأيسر، فالأثر الذى فى المقام من ذلك ظاهر فيه موضع العقب والإصبع) . وعند الفاكهى عن ابن جريج، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس : «إن سارة داخلتها غيرة، فقال لها إبراهيم : لا أنزل حتى أرجع إليك » ونحوه فى رواية عطاء بن السائب عند عمر بن شبة . (هل أتاكم من أحد) فى رواية عطاء بن السائب : «فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته : هل جاء أحد؟ قالت : نعم، شيخ أحسن الناس وجها، وأطيبهم ريحا » (يثبت عتبة بابه) زاد فى حديث أبى جهم : «فإنها صلاح المنزل» (أن أمسكك) زاد فى حديث أبى جهم : «ولقد كنت على كريمة، وقد ازددت على كرامة فولدت لإسماعيل عشرة ذكور » زاد معمر فى روايته : «فسمعت رجلا يقول : «كان إبراهيم يأتى على البراق» يعنى فى كل مرة وفى رواية عمر بن شبة : «وأعجب إبراهيم بجدة بنت الحارث، فدعا لها بالبركة» . (ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له) النبل : السهم قبل أن يركب فى نصله وريشه، وهو السهم العربى، ووقع عند الحاكم من رواية إبراهيم بن نافع فى هذا الحديث : «يصلح بيتا له » والذى جاء فى البخارى الموافق لغيرها من الروايات . (تحت دوحة قريبة من زمزم) هى التى

نزل إسماعيل وأمه تحتها أول قدومهما، كما تقدم (فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد) يعني من الأعناق والمصافحة وتقبيل اليد، ونحو ذلك. (ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر) وفي رواية إبراهيم بن نافع: إن ربك أمرني أن أبني له بيتا، ووقع في حديث أبي جهم: «إن عمر إبراهيم يومئذ مائة سنة، وعمر إسماعيل ثلاثون سنة».

(قال: فاصنع ما أمرك ربك قال: وتعينني؟ قال: وأعينك) في رواية إبراهيم بن نافع» إن الله أمرني أن تعينني عليه قال: أن أفعل» قال ابن التين: «يحتمل أن يقال: أمره الله أن يبني أولاً وحده، ثم أمره أن يعينه إسماعيل، قال: فيكون الحديث الثاني متأخراً بعد الأول، قلت: ولا يخفى تكلفه، بل الجمع بينهما ممكن، بأن يكون أمره أن يبني، وأن إسماعيل يعينه فقال إبراهيم لإسماعيل: إن الله أمرني أن أبني البيت وتعينني، وتخلل بين قوله: (أبني البيت) وبين قوله: (وتعينني) قول إسماعيل: (فاصنع ما أمرك ربك) قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتا ـ وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها) وللفاكهي من حديث عثمان: «فبناها إبراهيم وإسماعيل، وليس معهما يومئذ غيرهما» يعني: في مشاركتهما في البناء، وإلا فقد كان قد نزل الجرهميون مع إسماعيل (فعند ذلك رفعا القواعد من البيت) في رواية أحمد عن عبد الرزاق عن معمر، عن أيوب، عن سعيد، عن ابن عباس: «إن القواعد كانت في الأرض السابعة» وعن طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «رفع القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك» ومن طريق عطاء قال: «قال آدم: يارب إني لا أسمع أصوات الملائكة، قال: ابني لي بيتا،

ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء» وفى حديث عثمان وأبى جهم : «فبلغ إبراهيم من الأساس ـ أساس آدم ـ وجعل طوله فى السماء تسعة أذرع، وعرضه فى الأرض ـ يعنى دوره ـ ثلاثين ذراعا، وكان ذلك بذراعهم، زاد أبو جهم : «وأدخل الحجر فى البيت، وكان قبل ذلك زربا لغنم إسماعيل، وإنما بناه بحجارة بعضها على بعض، ولم يجعل له سقفا، وجعل له بابا، وحفر له بئرا عند بابه خزانة للبيت، يلقى فيها ما يهدى للبيت».

وفى حديثه أيضاً : «أن الله أوحى إلى إبراهيم أن اتبع السكينة، فحلقت على موضع البيت كأنها سحابة، فحفرا يريدان أساس آدم الأول» وفى حديث على عند الطبرى والحاكم : «رأى على رأسه ـ فى موضع البيت ـ مثل الغمامة، فيه مثل الرأس، فكلمه، فقال : يا إبراهيم : ابن على ظلى ـ أو على قدرى ـ ولا تزد، ولا تنقص وذلك حين يقول الله : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ الآية وتكملتها : ﴿ أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ (الآية ٢٦ من سورة الحج).

(فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر) يعنى المقام، وفى رواية إبراهيم بن نافع : «حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام» زاد فى حديث عثمان : «ونزل عليه الركن والمقام، فكان إبراهيم يقوم على المقام يبنى عليه، ويرفعه له إسماعيل، فلما بلغ الموضع الذى فيه الركن وضعه يومئذ موضعه، وأخذ المقام فجعله لا حقاً بالبيت، فلما فرغ إبراهيم من بناء الكعبة جاء جبريل فأراه المناسك كلها، ثم قام إبراهيم على المقام، فقال : (يا أيها الناس

أجيبوا ربكم) فوقف إبراهيم وإسماعيل تلك المواقف، وحجه إسحاق وسارة من بيت المقدس ثم رجع إبراهيم إلى الشام، فمات بالشام وروى الفاكهي من طريق مجاهد، عن ابن عباس، قال: (يأيها الناس كتب عليكم الحج) فأسمع من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن، ومن كان سبق فى علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة: (لبيك اللهم لبيك) وفي حديث أبي جهم: (ذهب إسماعيل إلى الوادى يطلب حجراً، فنزل جبريل بالحجر الأسود، وقد كان رفع إلى السماء حين غرقت الأرض، فلما جاء إسماعيل فرأى الحجر الأسود قال: من أين هذا ؟ من جاء به ؟ قال إبراهيم: (من لم يكلنى إليك ولا إلى حجرك) ورواه ابن أبي حاتم، من طريق السدى نحوه وأنه كان بالهند، وكان ياقوته بيضاء، مثل (الثغامة) وهي - بالثاء والغين -: طير أبيض كبير.

وروى الفاكهي عن طريق أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: (والله ما بنياه بقصة ولا مدر، ولا كان لهما من السعة والأعوان ما يسقفانه) ومن حديث علي: (كان إبراهيم يبنى كل يوم ساقاً) ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: عنه وعن ابن أبي حاتم: (أنه كان بناه من خمسة أجبل: من حراء، وثبير، ولبنان، وجبل الطور، وجبل الخمر (بفتح الخاء): هو جبل بيت المقدس).

وقال عبد الرازق عن ابن جريج، عن عطاء: (إن آدم بناه من خمسة أجبل: حراء، والطور زيتا، والطور سيناء، والجودى، ولبنان وكان ربضه من حراء).

ومن طريق محمد بن طلحة قال : (سمعت أنه أسس البيت من ستة أجبل : من أبي قبيس، ومن الطور، ومن قدس، ومن ورقان، ومن رضوى، ومن أحد)[1].

بهذا ينتهي شرح ابن حجر العسقلاني لحديث ابن عباس في رواياته المتعددة، ولنا على بعض ما جاء فيه هذه التوقفات أو الملاحظات التالية :

(الملاحظة الأولى) :

أن معظم ألفاظ رواية الحديث لابن عباس ، ولم يقل ابن عباس : (قال أو عن رسول الله ـ ﷺ ـ بدليل قوله في ثنايا الحديث : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : [ولم يكن لهم يومئذ حبٌ ولو كان لهم دعا لهم فيه] وقوله : قال رسول الله ـ ﷺ ـ [يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم ـ أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم معينا] وقوله : قال النبي ـ ﷺ ـ [فذلك سعي الناس بينهما] وكذلك في رواية إبراهيم بن نافع : قال : قال أبو القاسم ـ ﷺ ـ : [بركة بدعوة إبراهيم] وعن هذا يقول ابن كثير ـ في تفسيره ـ : والحديث ـ والله أعلم ـ إنما فيه مرفوع أماكن صرح بها ابن عباس عن رسول الله ـ ﷺ ـ)[2].

ويقول في «قصص الأنبياء» : وهذا الحديث من كلام ابن عباس، وموشح برفع بعضه[3].

---

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، المجلد السادس، ص ٤٠٠ إلى ٤٠٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص ١٣٩.

(٣) قصص الأنبياء، ص ١٣٩.

ولهذا فإن قول ابن عباس : (حتى إذا كان أهل أبيات فيهم زوجوه امرأة منهم لما أدرك وماتت أم إسماعيل ليس نصًا دقيقًا حاسمًا في ترتيب هذين الحدثين : موت هاجر، ثم زواج إسماعيل، بدليل قول ابن حجر : شارح الحديث : (وماتت هاجر أي : في خلال ذلك) فلم يحدد زمن موتها : قبل زواج ابنها إسماعيل، أو بعده ؟ ودليل ثان في قوله : (فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل، يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل (امرأته) عنه) فلو أن (هاجر) كانت موجودة لكان إبراهيم - زوجها وأبو ابنها - قد حرص على لقائها، وسؤالها هي وابنهما إسماعيل، ولكنه بدلاً من هذا سأل امرأة إسماعيل عنه ، فدل هذا على أن أم إسماعيل لم تكن موجودة بعد زواج إسماعيل، ويلزم أن يكون زواج إسماعيل قد تم بعد موت أمه (هاجر) مع ملحظ آخر في قوله : (حتى إذا كان أهل أبيات فيهم زوجوه) فأين كانت أمه في ذلك الحدث العزيز على كل أم؟ وأين دورها في خطبة هذه المرأة لابنها البكر الوحيد إسماعيل ؟ مما يؤكد ما اعتمدنا عليه في ترتيب هذه الأحداث، إضافة إلى احتمال أن يكون موت هاجر بعد زواج ابنها في المرة الأولى والله أعلم.

(الملاحظة الثانية) :

أن تسلسل الأحداث في حياة إسماعيل بمكة كما يلي :

١ - إبعاد إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة.

٢ - سعي هاجر بين الصفا والمروة، ثم نبع ماء بئر زمزم.

٣ - نزول قبيلة جرهم إلى جوار هاجر وابنها إسماعيل قرب ماء

زمزم، بعد أن أذنت لهم هاجر.

٤ - موت هاجر أم إسماعيل وزواج إسماعيل بعد موتها.

٥ - رفع إبراهيم وإسماعيل لقواعد البيت الحرام، وإتمام بنائه وذلك دون ذكر لقصة رؤيا إبراهيم بذبح ولده البكر: إسماعيل وهي ملاحظة نبه إليها ابن كثير - كما سوف يأتي - عند تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة، الآية ١٢٧ -:

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ فقد قال - بعد أن ذكر حديث ابن عباس - وقد رواه البخاري من حديث إبراهيم بن نافع، وكان فيه اختصار، فإنه لم يذكر فيه شأن الذبيح[1] وأكد ابن كثير هذه الملاحظة مرة ثانية في كتابه «قصص الأنبياء» حيث يقول: (وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسماعيل) ونحن في هذا أمام الوقائع التالية:

موضوع رؤيا إبراهيم بذبح ولده إسماعيل حين بلغ السعي.

موضوع زواج إسماعيل حين أدرك، وأصبح قادرا على الزواج.

وبناء الكعبة جاء في ترتيب الأحداث - في حديث ابن عباس - بعد زواج إسماعيل.

وإذن ففي أي مرحلة من مراحل حياة إسماعيل في مكة كانت مسألة الذبح؟

الاختيار هنا بين أن تكون مسألة الذبح قبل زواجه، أو بعده وقبل بناء الكعبة أو بعدها؟ وإذا كان موضوع الذبح قد حدث لما بلغ

(١) تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص ١٦٩.

إسماعيل السعى وموضوع الزواج قد حدث لما أدرك إسماعيل وأصبح قادراً على الزواج فإن موضوع الذبح يكون أسبق من موضوع الزواج لأن بلوغ السعى مرحلة سابقة لمرحلة (القدرة على الزواج)، ثم يلي ذلك موضوع بناء الكعبة. كما هو نص الحديث - وعلى هذا فإن تسلسل الأحداث في حياة إسماعيل بمكة يكون مرجحاً في الترتيب التالى:

١ - إبعاد هاجر وولدها الرضيع إسماعيل إلى مكة بسبب غيرة سارة منهما.

٢ - نشأة إسماعيل في مكة مع أمه قريباً من قواعد البيت، وعند بئر زمزم، وبين قبيلة جرهم.

٣ - رؤيا ذبح إبراهيم لولده إسماعيل لما بلغ السعى، ومحاولة ذبحه.

٤ - موت هاجر أم إسماعيل.

٥ - زواج إسماعيل مرة أولى من إحدى عائلات جرهم لما أدرك وأصبح قادرا على الزواج.

٦ - طلاقه لزوجته تنفيذاً لوصية والده إبراهيم.

٧ - زواج إسماعيل مرة ثانية من إحدى عائلات جرهم.

٨ - مشاركة إسماعيل لأبيه إبراهيم في بناء الكعبة، وهو قادر على المشاركة في البناء، وهذا التسلسل جاء في كتب التاريخ التى استعنا بها في موضوع رؤيا ذبح إسماعيل وكذا في روايات كتب الحديث عن هذا الموضوع، مع إشارات واضحة في آيات من القرآن الكريم

تحدثت عن إبراهيم وإسماعيل من سورة مريم، والأنبياء، والصافات، كما سيأتي هذا كله.

ثم إن عدم ذكر قصة ذبح إسماعيل: ابن إبراهيم الوحيد البكر في سياق هذا الحديث أوجد مجالاً للقول بأن قصة الذبيح هذه لم تكن لإسماعيل أو أعطى الفرصة ـ على الأقل ـ للتشكيك في أن الذبيح إسماعيل، ووجه إلى احتمال أن يكون إسحاق، فمن هو صاحب المصلحة في هذا التشكيك بعدم ذكر قصة الذبيح في سياق الحديث ؟ يجيب ابن كثير على هذا التساؤل بقوله في «قصص الأنبياء»: (وهذا الحديث من كلام ابن عباس، وموشح برفع بعضه وفي بعضه غرابة، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات) ثم يقول (وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح، وأنه إسماعيل وكأن بعض هذا السياق من الإسرائيليات، ومطرز بشئ من المرفوعات، ولم يذكر فيه قصة الذبيح، وقد دللنا على أن الذبيح إسماعيل ـ على الصحيح ـ في سورة الصافات).

وسوف يأتي مناقشة هذه الملاحظة عند الحديث عن قصة الذبيح.

(الملاحظة الثالثة) : ترتبط بالملاحظة السابقة على قول ابن عباس في الحديث :(فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته) وتعقيب (ابن التين) عليه بقوله : هذا يشعر بأن الذبيح إسحاق؛ لأن المأمور بذبحه كان عندما بلغ السعي، وقد قال في هذا الحديث : إن إبراهيم ترك إسماعيل رضيعاً، وعاد إليه وهو متزوج فلو كان هو المأمور بذبحه لذكر في الحديث : أنه عاد إليه في خلال ذلك بين زماني الرضاع والتزويج.

(١) تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص ١٦٩.

وقد رد ابن حجر على تعقيب ابن التين هذا بقوله : (وتعقب : بأنه ليس في الحديث نفي هذا المجيء ، فيحتمل أن يكون جاء وأمر بالذبح ، ولم يذكر في الحديث ، وقد جاء ذكر مجيئه بين الزمنين في خبر آخر ، ففي حديث أبي جهم : كان إبراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق ، يغدو غدوة فيأتي مكة ، ثم يرجع فيقيل في منزله في الشام) وروى الفاكهي من حديث علي بإسناد حسن نحوه ، وأن إبراهيم كان يزور إسماعيل وأمه على البراق .

فعلى هذا فقوله : (فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل) أي : بعد مجيئه قبل ذلك مراراً والله أعلم ، ونضيف إلى ما عقب به ابن حجر على تعقيب ابن التين : ما مر بنا من تعدد وتوالي زيارات إبراهيم لولده إسماعيل وأمه هاجر في روايات عطاء بن السائب ومعمر .

ثم قول إسماعيل ـ مرة ثانية ـ لزوجته الثانية : «ذاك أبي» وعبارة الحديث في رواية عطاء بن السائب : (فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه) كل ذلك يؤكد أن إبراهيم كان يزور ولده إسماعيل وأمه هاجر كثيراً ، وأنه لكثرة زياراته وتعددها مرة كل شهر ـ كما جاء في حديث أبي جهم ـ كان يذكر ملامح أبيه إبراهيم ، ويشم رائحته في وضوح وبلا عناء ، على العكس مما لو كانت زيارة إبراهيم لولده وأم ولده لم تحدث ـ بعد أن تركه في ذلك المكان القفر بمكة رضيعاً مع أمه ـ إلا بعد أن بلغ إسماعيل وتزوج .

ولابن كثير ملحظ رقيق سجله في كتابه «قصص الأنبياء» بعد أن ذكر حديث ابن عباس في روايته الأولى وبداية روايته الثانية ،

حيث قال[1] : (ولم يذكر في هذا السياق في قدمات إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث مرات ، أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر ، وكيف تركهم من حين صغر الولد - على ما ذكر - إلى حين تزوجه لا ينظر في حالهم؟ وقد ذكر : أن الأرض كانت تطوى له ، وقيل : إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم ، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة (الأكيدة) ؟ وكأن بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات) .

(الملاحظة الرابعة) : على هذه الأقوال من الحديث :

١ - (ثم جاء بها إبراهيم وبإبنها إسماعيل - وهي ترضعه - حتى وضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد) يقول ابن حجر : (أي مكان المسجد ؛ لأنه لم يكن حينئذ بني ، ويلزم من هذا التوضيح لابن حجر أن تكون عبارة (في أعلى المسجد) قصد بها : (في موضع مكان المسجد) وأن يكون معنى عبارة ابن حجر : ونزل إسماعيل وأمه عند البيت : عند موضع مكان البيت .

٢ - (لا تخافوا الضيعة ؛ فإن هاهنا بيت الله ، يبني هذا الغلام وأبوه) أي : يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وهي عبارة تؤكد ما قرره ابن حجر من أن البيت الحرام لم يكن قد بني قبل أن يغادر إبراهيم زوجه هاجر وابنهما إسماعيل .

٣ - (وكان البيت مرتفعاً عن الأرض كالرابية) يلزم - في ضوء توضيح ابن حجر - أن يكون معناها (وكان موضع مكان البيت مرتفعاً عن الأرض كالرابية) .

---

(١) قصص الأنبياء ، ص ١٤٠ .

٤ - ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ هذا الدعاء لإبراهيم - كما هو نص الحديث - كان عندما هم إبراهيم بالرحيل عن (هاجر وإسماعيل) ونضيف إلى هذا أن المعقول والمناسب تماما، والمسلم به أن ألفاظ هذا الدعاء قاطعة فى أنه كان عندما ترك إبراهيم زوجه هاجر وابنهما إسماعيل، وأسكنهما فى هذا المكان الموحش القفر الذى لا زرع فيه، وهم بالرحيل، ويكون إبراهيم قد قصد من قوله: ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ معنى: (عند موضع مكان بيتك المحرم) ويعنى هذا كله: أن البيت الحرام لم يكن قد بنى - حين وصل إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى مكة وحتى رحيله عنهما - كما أكده ابن جرير وكما قررته نهاية سياق الحديث، بل إن هذه النهاية تقطع بأن إبراهيم وإسماعيل رفعا قواعد البيت، وأمّا بناءه حين عاد إبراهيم للمرة الثالثة إلى مكة من الشام بعد أن عاد قبل ذلك مرتين: مرة بعد زواج إسماعيل فى المرة الأولى وموت هاجر، ومرة ثانية بعد زواج إسماعيل فى المرة الثانية تنفيذا لأمر الله بأن يرفع إبراهيم لقواعد البيت مع إسماعيل والله أعلم.

ثم نذكر «ثانيا» من حديث السيدة عائشة - رضى الله عنها ما يلي:[1] (١٥٨٣) حدثنا عبد الله بن سلمة، عن مالك، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن محمد بن أبى بكر أخبر عبد الله بن عمر، عن عائشة - رضى الله عنها: زوج النبى - ﷺ - أن رسول الله - ﷺ - قال لها: [ألم ترى قومك لما بنوا

(١) فتح البارى، شرح صحيح البخارى، ص ٤٣٩، ٤٤٠.

الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم ؟] فقلت : يارسول الله : ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال : [لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت]. فقال عبد الله - رضى الله عنه - : لئن كانت عائشة - رضى الله عنها - سمعت هذا من رسول الله - ﷺ - ما أرى رسول الله - ﷺ - ترك استلام الركنين (الذين يليان الحجر) إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم .

(١٥٨٤) حدثنا مسدد ، حدثنا أبو الأحوص ، حدثنا أشعث عن الأسود بن يزيد عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سألت النبى - ﷺ - عن الجدر أمن البيت هو ؟ قال : نعم قالت : فما لهم لم يدخلوه فى البيت ؟ قال : إن قومك قصرت بهم النفقة ، قلت : فما شأن بابه مرتفعاً ؟ قال : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر فى البيت ، وأن ألصق بابه بالأرض .

(١٥٨٥) حدثنا عبيد بن إسماعيل ، حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله - ﷺ - : [لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ، ثم لبنيته على أساس إبراهيم - عليه السلام - فإن قريشاً استقصرت بناءه وجعلت له خلفاً] قال أبو معاوية : حدثنا هشام : خلفاً ، يعنى باباً .

(١٥٨٦) حدثنا بيان بن عمرو ، حدثنا يزيد ، حدثنا جرير بن حازم ، حدثنا يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - قال لها : [يا عائشة : لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه ، وألزقته

بالأرض، وجعلت له بابين : باباً شرقياً، وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم] فذلك الذى حمل ابن الزبير - رضى الله عنهما - على هدمه، قال يزيد : وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه، وأدخل فيه من الحجر وقد رأيت أساس إبراهيم : حجارة كأسنمة الإبل، قال جرير : فقلت له : أين موضعه ؟ قال : أريكه الآن، فدخلت معه الحجر، فأشار إلى مكان، فقال : هاهنا، قال جرير : فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها.

هذه مجموعة روايات لحديث السيدة عائشة - رضى الله عنها - عن رسول الله - ﷺ - خاصة بقصة بناء قريش للكعبة، ومشاركة النبى - ﷺ - فى هذا البناء، وكانت تلك روايات حديث ابن عباس المرفوع بعضه إلى النبى - ﷺ - خاصة ببناء إبراهيم وإسماعيل للبيت، مع نبذة عن أول بناء البيت منذ عهد آدم - عليه السلام - وننقل من شرح ابن حجر العسقلانى - بتصرف - لروايات حديث عائشة مايلى : [1].

وقد روى الطبرانى وأبو نعيم عن أبى الزبير، قال : قال جابر بن عبد الله : (أخبرنى النبى - ﷺ - أنه لما انهدمت الكعبة نقل كل بطن من قريش، وأن النبى - ﷺ - نقل مع العباس).

وروى الطبرانى والبيهقى والطبرى وأبو نعيم عن عكرمة، عن ابن عباس : حدثنى أبى عباس بن عبد المطلب قال : لما بنت قريش الكعبة انفردت : رجلين، رجلين، ينقلون الحجارة، فكنت أنا وابن أخى : يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم.

(1) فتح البارى، شرح صحيح البخارى، المجلد الثالث، ص ٤٣٩ إلى ٤٤٩.

وأخرج عبد الرازق من حديث أبي الطفيل قال : (كانت الكعبة فى الجاهلية مبنية بالرضم، ليس فيها مدر، وكانت قدر ما يقتحمها العناق، وكانت ثيابها توضع عليها، تسدل سدلاً، وكانت ذات ركنين، كهيئة هذه الحلقة، فأقبلت سفينة من الروم، حتى إذا كانوا قريبًا من جدة انكسرت، فخرجت قريش لتأخذ خشبها، فوجدوا الرومى الذى فيها نجاراً فقدموا به وبالخشب؛ ليبنوا به البيت، فكانوا كلما أرادوا القرب منه لهدمه بدت لهم حية فاتحة فاها، فبعث الله طيرا أعظم من النسر، فغرز مخاليه فيها، فألقاها نحو أجياد، فهدمت قريش الكعبة، وبنوها بحجارة الوادى، فرفعوها فى السماء عشرين ذراعا، وكان النبى - ﷺ - يحمل الحجارة على عاتقه من أجياد وكان بين المبعث خمس سنين، وأما الزهرى فقال : لما بلغ الرسول - ﷺ - الحلم أجمرت امرأة الكعبة، فطارت شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة فاحترقت، فتشاورت قريش فى هدمها، وهابوه، فقال الوليد : إن الله لا يهلك من يريد الإصلاح، فارتقى على ظاهر البيت ومعه العباس، فقال : اللهم لا نريد إلا الإصلاح، ثم هدم، فلما رأوه سالما تابعوه، قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج قال مجاهد : كان ذلك قبل المبعث بخمس عشرة سنة أى أن النبى - ﷺ - كان فى سن الخامسة والثلاثين على الرواية الأولى وفى سن الخامسة والعشرين على الرواية الثانية، حين شارك - لأول مرة - فى بناء الكعبة، على أساس أن المبعث كان وهو فى سن الأربعين.

يقول ابن حجر : الأول أشهر، وبه جزم ابن إسحاق، ووقع عند الطبرانى عن أبى الطفيل : أن اسم النجار المذكور (ياقوم). وللفاكهى عن طريق ابن جريج قال : وكان يتجر إلى بندر وراء

ساحلي عدن، فانكسرت سفينته بالشعيبة، فقال لقريش: إن أجريتم عيري مع عيركم إلى الشام أعطيتكم الخشب، ففعلوا.

وقال الأزرقي كان طولها (أي الكعبة) سبعة وعشرين ذراعاً، فاقتصرت قريش منها على ثمانية عشر، ونقصوا من عرضها أذرعاً أدخلوها في الحِجْر.

يقول ابن حجر: الحِجْر - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو معروف على صفة نصف الدائرة، وقدرها تسع وثلاثون ذراعاً.

(عن الجَدْر) - بفتح الجيم وسكون الدال - ووهم من ضبطه بضمها؛ لأن المراد الحجر.

(أمن البيت هو؟ قال: نعم) هذا ظاهره أن (الحجر) كله من البيت، وبذلك كان يفتي ابن عباس، قال: (لو وليت من البيت ما ولي ابن الزبير لأدخلت الحجر كله في البيت، فلم يطاف به، إن لم يكن من البيت؟)

وروى الترمذي، والنسائي، عن عائشة قالت: كنت أحب أن أصلي في البيت، فأخذ رسول الله - ﷺ - بيدي فأدخلني الحجر، فقال: صلي فيه، فإنما هو قطعة من البيت، ولكن قومك استقصروه حين بنوا الكعبة، فأخرجوه من البيت فإن بدا لقومك أن يبنوه بعدي فهلمي لأريك ما تركوا منه، فأراها قريبا من سبعة أذرع (قصرت بهم النفقة) - بتشديد الصاد - أي النفقة الطيبة التي أخرجوها لذلك، وذكر ابن إسحاق: أن أبا وهب بن عابد بن عمران بن مخزوم قال لقريش: (لا تدخلوا فيه من كسبكم إلا الطيب، ولا تدخلوا فيه مهر بغيٍ ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس) قلت:

فما شأن بابه مرتفعاً ؟ قال : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا زاد مسلم عن عائشة : فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه يرتقى ، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه ، فسقط .

(أن أدخل الجدر فى البيت) أى : أخاف إنكار قلوبهم إدخالى الحجر فبلغت به أساس إبراهيم ، فذلك الذى حمل ابن الزبير على هدمه زاد وهب بن جرير فى روايته : (وبنائه) .

(وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه ، إلى قوله : (كأسنمة الإبل) روى مسلم عن طريق عطاء بن أبى رباح : لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاه أهل الشام ، فكان من أمره ما كان .

وللفاكهى : لما أحرق أهل الشام الكعبة ورموها بالمنجنيق ، وهدمت الكعبة ولابن سعد : ارتحل الحصين بن نمير - الأمير الذى يقاتل ابن الزبير من قبل يزيد بن معاوية - لما أتاهم موت يزيد بن معاوية فى ربيع الآخر سنة أربع وستين قال : فأمر ابن الزبير بالخصاص التى كانت حول الكعبة فهدمت ، فإذا الكعبة تنفضَ - أى تتحرك - متوهنة ترتج من أعلاها إلى أسفلها ، فيها مثل جيوب النساء من حجارة المنجنيق ولم يبن ابن الزبير الكعبة حتى حج الناس سنة أربع وستين ، ثم بناها حين استقبل سنة خمس وستين ، وذكر مسلم إشارة ابن عباس عليه بألا يفعل ، وقول ابن الزبير : لو أن أحدكم احترق بيته بناه حتى يجدده ، وأنه استخار الله ثلاثاً ، ثم عزم على أن ينقضها قال : فتحاماه الناس ، حتى صعد رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شئ تتابعوا ، فنقضوه حتى بلغوا الأرض ، وجعل ابن الزبير أعمدة ستر عليها الستور حتى ارتفع البناء .

وفي رواية أبي أويس : ثم عزل ما كان صلح أن يعاد في البيت ، فبنوا فيه ، فنظروا إلى ما كان لا يصلح منها أن يبنى به فأمر به أن يحفر له في جوف الكعبة فيدفن واتبعوا قواعد إبراهيم من نحو الحجر فلم يصيبوا شيئاً ، حتى شق على ابن الزبير ، ثم أدركوها بعد ما أمعنوا ، فنزل عبد الله بن الزبير ، فكشفوا له عن قواعد إبراهيم ، وهن صخر أمثال الخلف من الإبل ، فأنفضوا له ، أي : حركوا تلك القواعد بالعتل ، فنقضت قواعد البيت ، ورأوه بنياناً مربوطاً بعضه ببعض ، فحمد الله وكبَّره ثم أحضر الناس ، فأمر بوجوههم وأشرافهم فنزلوا حتى شاهدوا ما شاهده ، ورأوا بنياناً متصلاً ، فأشهدهم على ذلك .

ووقع في رواية عطاء : (وكان طول الكعبة ثماني عشرة ذراعاً ، فزاد ابن الزبير في طولها عشرة أذرع) .

وروى عبد الرزاق عن زيد (أنهم كشفوا عن القواعد فإذا الحجر مثل الخلفة والحجارة مشبكة بعضها ببعض) وللفاكهي عن عطاء قال : (كنت في الأمناء الذين جمعوا على حفره ، فحفروا قامة ونصفاً فهجموا على حجارة لها عروق تتصل بزرد عرق المروة ، فضربوه ، فارتجت قواعد البيت ، فكبر الناس ، فبنى عليه) .

وفي رواية مرثد : (فكشف عن ربض في الحجر آخذ بعضه ببعض ، فتركه مكشوفاً ثمانية أيام ليشهدوا عليه ، فرأيت ذلك الربض مثل خلف الإبل : وجه حجر ، ووجه حجران ورأيت الرجل يأخذ العتلة فيضرب بها من ناحية الركن فيهتز الركن الآخر) .

وللفاكهي عن موسى بن ميسرة : أنه دخل الكعبة بعد ما بناها ابن الزبير فكان الناس لا يزدحمون فيها يدخلون من باب، ويخرجون من آخر.

وقد ذكر مسلم في رواية عطاء قال : فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك ابن مروان يخبره أن ابن الزبير قد وضعه (أي البيت) على أُسّ نظر إليه العدول من أهل مكة. فكتب إليه عبد الملك : أما ما زاده في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه، وسد بابه الذي فتحه فنقضه وأعاده إلى بنائه.

وللفاكهي عن هشام بن عروة : فبادر - يعني الحجاج - فهدمها، وبنى شقها الذي يلي الحجر، ورفع بابها، وسد الباب الغربي.

قال أبو أبيس : (فأخبرني غير واحد من أهل العلم : أن عبد الملك ندم على إذنه للحجاج في هدمها، ولعن الحجاج) ولابن عيينه عن مجاهد : فرد الذي كان ابن الزبير أدخل فيها من الحجر، قال : فقال عبد الملك : (وددنا أنا تركنا أبا خبيب - يعني ابن الزبير - وما تولى من ذلك) وحكى ابن عبد البر، وتبعه عياض وغيره، عن الرشيد - أو المهدي، أو المنصور - : أنه أراد أن يعيد الكعبة على ما فعله ابن الزبير، فناشده (مالك) في ذلك، وقال : أخشى أن يصير ملعبة للملوك فتركه، قلت : وهذا بعينه خشية جدهم الأعلى عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - فأشار على ابن الزبير - لما أراد أن يهدم الكعبة، ويجدد بناءها - بأن يرمَّ ما وهي منها، ولا يتعرض لها بزيادة ولا نقص، وقال له : لا آمن أن يجئ من بعدك أمير فيغير الذي صنعت.

وذكر الأزرقي : أن سليمان بن عبد الملك همَّ بنقض ما فعل الحجاج، ثم ترك ذلك لما ظهر له أنه فعل بأمر أبيه عبد الملك ولم أقف في شئ من التواريخ على أن أحداً من الخلفاء ولا من دونهم غيَّر من الكعبة شيئاً مما صنعه الحجاج إلا في الميزاب والباب وعتبته، وكذا وقع الترميم في جدارها غير مرة، وفي سقفها وفي سلم سطحها، وجدد فيها الرخام، وأن أول من فرشها بالرخام الوليد بن عبد الملك ثم يقول ابن حجر : وقد ترادفت الأخبار الآن - في وقتنا هذا، في سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة [1] - وتأملت المكان الذي قيل عنه، فلم أجده في تلك البشاعة، وقد رم ما تشعث من الحرم في أثناء سنة خمس وعشرين وثمانمائة إلى نقض سقفها في سنة سبع وعشرين وثمانمائة على يدى بعض الجند، فجدد سقفها ورخم السطح [2] فلما كان في سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة صار المطر إذا نزل ينزل إلى داخل الكعبة أشد مما كان أولاً، فأداه رأيه الفاسد إلى نقض السقف مرة أخرى، وسد ماكان في السطح من الطاقات التي كان يدخل منها الضوء إلى الكعبة ولزم من ذلك امتهان الكعبة، بل صار العمال يصعدون فيها بغير أدب، فغار بعض المجاورين فكتب إلى القاهرة [3] يشكو ذلك، فبلغ

---

(١) هذا الرقم (وثمانمائة) بين القوسين في المواضع الأربعة المذكورة أثبته في هذه المواضع بعد أن تركه ابن حجر اعتماداً على أنه ذكره في الرقم السابق، وهو الموافق للزمن الذي عاصر فيه هذه الأحداث.

(٢) رخم السطح : أى غطاء وكساه بالرخام.

(٣) ابن حجر شارح الحديث: ولد سنة ٧٧٦ هـ بالقاهرة، وعاش بها حتى توفى سنة ٨٥٢ هـ في عهد السلطان الظاهر بيبرس، فهو شاهد عيان على هذه الأحداث.

السلطان (الظاهر) فأنكر أن يكون أمر بذلك، وجهز بعض الجند لكشف ذلك.

وأخيراً: فقد جاء عن عياش بن أبي ربيعة المخزومي عن النبي - ﷺ - قال: [إن هذه الأمة لا تزال بخير ما أعظموا هذه الحرمة - يعني الكعبة - حق تعظيمها، فإذا ضيعوا ذلك هلكوا].

******

****

**

*

فهرست الموضوعات

الأزهر
مجمع مطابع الأزهر الشريف

رقم الإيداع
٢٠٠٥/١٦٣٨٩





مقاس الكتاب	$\frac{١}{١٦}$ / ٨٢×٥٧سم	ورق المتن	٦٠ / جم أبيض
ورق الغلاف	٢٥٠ / جم ـ بندكوت	ألوان الغلاف	٢ لـون
عدد الملازم	$\frac{٣}{٤٠}$ ٩ ملـزمة	نوع التجليد	بشـر آلى



الأزهر
مجمع مطابع الأزهر الشريف
الثمن : جنيهان